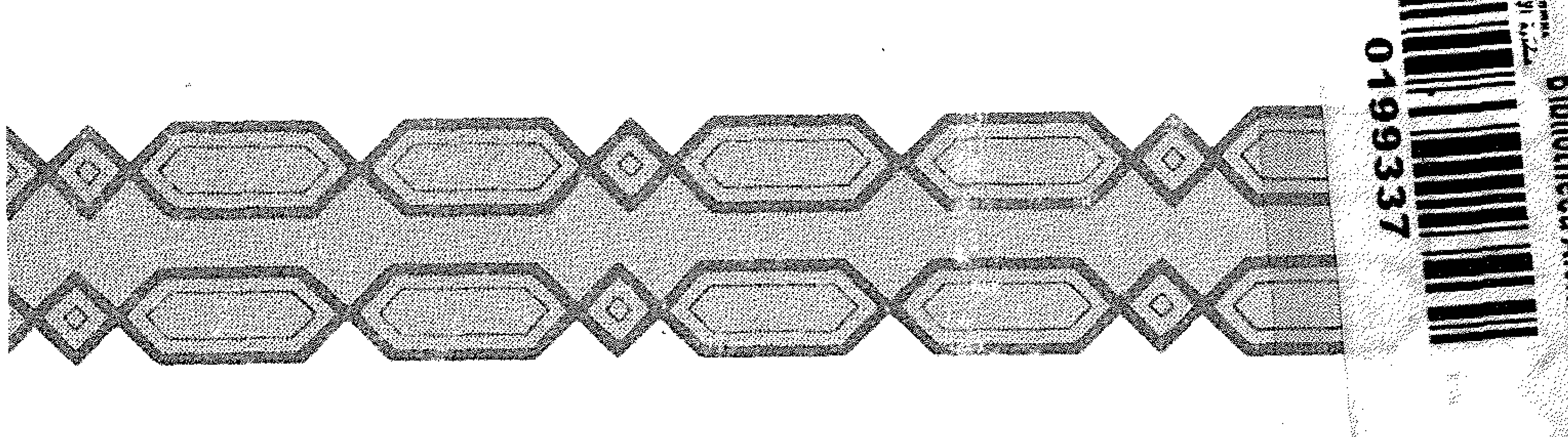


المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية
بغداد

تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر





١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد البحوث والدراسات العربية
بغـــداد

تجارة القوافل ودورها الحضاري
حتى نهاية القرن التاسع عشر

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم



اشراف الدكتور/ احمد ابراهيم دياب

الاساتذة المشاركون في البحث : ـ

د . محمد رنيبر ـ المغرب

د . يحيى بوعزيز ـ الجزائر

د . ابراهيم فخار ـ الجزائر

د . احمد ابراهيم دياب ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / معهد البحوث والدراسات العربية

د . يوري كريم فال ـ السنغال

د . صباح ابراهيم الشيخلي ـ العراق

د . السرسيد احمد العراقي ـ السودان

د . الشيخ الأمين عوض الله ـ السعودية

رضا جواد الهاشمي ـ العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لابد للباحث التاريخي من التعرف على جغرافيـة القارة الأفـريقية ، لأنها أثرت على سير التاريخ الأفريقي ، فالتاريـخ دراسة تقـوم على الأهميـة المكانيـة والزمانية ، والمكانية أقصد بها المفهوم الجغرافي أي الأرض التي تمت أو قامت فيها الأحداث التاريخية فالجغرافيا تؤثر في التاريخ وتغيره أحيانا .

لقد أعتبرت أوربا الصحراء الكبرى ـ وهكذا سمتها ـ حاجزا بين شمال أفريقيا وغربها ، وأن لوجودها الأثر الكبير في تغيير التاريخ الأفريقي ، وكذلـك وجود الشلالات ـ السدود ـ على النيل وقد ورد هذا القول عند كثير من الكتاب الأوربيين فقد كتب (جان زجلر) في كتابه مناهضة الثورة في أفريقيا ص ٧ :ـ

« أن الرمال المترامية التي تفصل أفريقيا العربية عن أفريقيا السوداء ، قد فعلت طوال ألوف السنين ، فعل حاجز يكاد لا يمكن تخطيه » .

لقد توهم كثير من الأوربيين (باحثين وكتابا) وجود هذا الحاجز بل قالوا بأن الحاجز ليس جغرافيا فقط بل وسيكولوجيا وإذا أخذنا الصحراء الكبرى وهي أكبر صحراء في العالم نجد فيها سلسلة جبلية واحدة من سلسلة جبال الأطلس في شمال القارة ولكن توجد بها بعض المرتفعات مثل هضبة أهير ومرتفعات أهجار وهضبة بوتش وهضبة تاوميت وهضبة فوتا جـالون ، وبـين هذه الهضـاب وعلى سفـوح المرتفعات نجد كثيرا من الوديان والواحات التي أتصل بعضها ببعض عن طريق القوافل مثل غدامس ومرزق والجغبوب وغات تمنراست وتوات ، وعين صـالح والعطرون وواحة الداخله والخارجه وسليمه .

هذه المعالم وغيرها تدحض الآراء الأوربية التي كانت تقول أن هذه الصحراء

مجردة من المزروعات ومن الأهمية التاريخية . وتاريخ أفريقيا في العصور الوسطى يثبت أنَ الصحراء الكبرى لم تكن حاجزا وليست مانعا لأنتقال الشعوب عبر القارة من غربها إلى البحر الأحمر شرقاً للوصول إلى الأراضي المقدسة ، ولم تقف حاجزا بين تنقل التجارة خلال الصحراء من الشمال إلى الجنوب فقد تيسر التنقل عبرها كثيرا منذ عام (٣٠٠م) بواسطة الجمال ، وكانت هناك طرق قوافل معروفة تربط بين جنوب الصحراء وشمالها ، وكان يستعملها التجار والدعاة المسلمون وعن طريق تلك الطرق وعلى القوافل رحل الرحالة ، مثل الحسن بن الوزان ووارنجتون والكابتن ليون وغوردن لانج وكبوبر وباكو ولوت وبارث وهوزمان وغيرهم .

وقد أثبت أبن حوقل في كتابه صورة الأرض ص ٩١ ، أن الصحراء لم تكن قفراً فقال :

« وعن يسار طريق فاس إلى سجلماسه أقليم أغمات ، وهو رستاق عظيم فيه مدينة كثيرة الخير والتجارة التي سجلماسة وغيرها ومن سجلماسة إلى غمات نحو ثمان مراحل ومثلها إلى فاس » .

ويذكر البكرى في كتابه المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ١٦٣ .

« أن الماء متوفر في الصحراء ويوجد على مسيرة يومين أو ثلاثة من وادي درعة إلى وادي تارجا ومن جبل ادرار مجابه ماؤها على ثمانية أيام وهي المجابه الكبرى » .

ويقول الحسن بن الوزان في كتابه وصف أفريقيا ص ٨٢ .

« وبعد جبال الأطلسي تقع سهول نوميديا حيث ينمو النخيل وهنا تكون البلاد رملية برمتها ، وبعد نوميديا ، تقع صحارى ليبيا التي تكون بدورها رملية حتى بلاد السودان ، وتوجد جبال كثيرة في هذه الصحارى ولكن التجار لا يخترقونها في الطريق الذي يسلكونه ، إذ توجد بين هذه الجبال ممرات عديدة وعريضة . . » ومن ثم لم تكن الصحراء حاجزا بين شمال وغرب القارة كما قال بذلك الجغرافيون

الأوربيون ، بل كان بها الماء القريب من السطح والعشب وبها حتى اليوم كثير من العيون والمياه الجوفية مما سهل الأتصال بين شمالها وجنوبها وبين شرقها وغربها .
ويؤكد ذلك ابن خلدون في الجزء السابع ص ١١٩ من كتاب التاريخ حيث يقول :
« وفي البلاد الصحراوية إلى وراء العرق طريقة غريبة في أستنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب ، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلده فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جوفها ثم يصعد الفعلة ويقذفون عليها زيره من الحديد تكسر طبقتها عن الماء فينبعث صاعدا فيعقم البئر » .

ولكن هل أصبحت الصحراء الكبرى مانعا أو حاجزا عندما أرادت ـ أوربا أن تستعمر أفريقيا ؟ وهل كانت سدا عندما رأت خيرات أفريقيا خلف الصحراء ؟

نحن الآن في أمس الحاجة إلى إعادة كتابة تاريخ الصحراء وإعادة دراسة جغرافيتها ومجتمعها وإبراز معالمها الثقافية والحضارية . لأن الصحراء كانت وما تزال منارة علم تزخر بالعلم والعلماء والمدارس والجامعات وكانت وما تزال أداة وصل فعالة وحدت بين شمال القارة وغربها أي بين جنوب وشمال الصحراء وعن طريقها تأكدت أخوة القبائل والعشائر فالصحراء بالنسبة اليهم ليست جسرا حاجزا بل هي جسر خير بين الشمال والجنوب ينسابون على دروبها الواضحة التي عرفتهم وعرفوها بين واحاتها الهادئة الهادرة بالقوافل المحملة بالخير والعطاء والمتنقلة بين فاس وتوات وكانم وطرابلس وغدامس وكانو وزويله وبرونو وتمبكتو ومرزق وجالو وسيوه والجغبوب والفاشر وعشرات المدن في تشاد ومالي والنيجر ونيجريا وموريتانيا والمغرب وتونس والجزائر وليبيا والسودان والسنغال .

وهذا الملف نريده أن يكون بداية لدراسة جاده حول تاريخ الصحراء الأفريقية وحول العلاقات العربية الأفريقية كدراسة تخصصية ولعل تجارة القوافل ودورها الحضاري من أهم هذه الأدوار الحضارية للمسلمين تجارا ورسل حضارة .

والله الموفق لما فيه خير أمتنا العربية المعطاء في صمت ، البانية للقيم الشامخة المتصدية لحماية مسئولياتها القومية ورسالتها الإنسانية .

الدراسة

الدكتور أحمد ابراهيم دياب

تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم

رضا جواد الهاشمي
أستاذ مساعد بقسم الآثار
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تقديـــم :

على الرغم من قدم التجارة في التاريخ الأنساني عامة ، وفي التاريخ العربي بخاصة ، إلا أن تجارة القوافل تعد نقلة نوعية كبيرة في تاريخ التجارة العربية ، أنعكس أثرها واضحاً في التاريخ العربي والعالمي القديم .

والمقصود بتجارة القوافل في هذه الدراسة حصراً ، التجارة التي أعتملت ظهور الإبل في تنقلاتها ، على الرغم من أن بعض الأشارات الأثرية والتاريخية تعكس لنا صورة تجارة قوافل الحمير للفترات التي سبقت تدجين الإبل وأستخدامها على نطاق واسع للنقل التجاري .

فالأقوام العربية القديمة[1] التي سكنت شطآن النهرين دجلة والفرات ، أو وديان الخصب والنماء في سوريا وسواحلها ، أو في وادي النيل ، وهي الأقوام التي شيّدت أقدم مراكز الحضارة والتمدن في التاريخ الأنساني ، وهي التي تركت الكثير من الآثار المادية والمدونة ، والتي عن طريقها نتابع أحداث الماضي وتفاصيل حياة

---

١ ـ نقصد بالأقوام العربية القديمة (الأقوام السامية) ومنهم الأكديون والبابليون والكنعانيون الفينيقيون والأراميون وغيرهم من أقوام الشرق الأدنى القديم .

مجتمعاته ، حيث كان من أوجه نشاطاتهم ، المبادلات السلعية التي تعد الصورة المبكرة للنشاطات التجارية .

وقد أعتمدت هذه المراكز وسائل مختلفة في نقل البضائع والسلعْ والمنتجات المختلفة ، سواء كان منها في التوزيع الداخلي أو في المبادلات التجارية الخارجية

فقد أزدهرت في تاريخ العـراق القديم مثـلاً وسائط المـواصلات النهـرية مستفيدة من أمتداد النهرين وفروعهما لتغذية معظم أنحاء العراق بالسلع والمنتجات المطلوبة . كذلك وفرّ طريق الساحل الغربي للخليج العـربي . المتميز بضحـالة مياهه وكثرة تعرجاته وتوفر المياه العذبة في بعض نقاطه ، فرص الأمتداد بطريق الملاحة النهرية صوب الجنوب في مياه الخليج العربي[١]

وبذلك بقي طريق الخليج العربي وأمتداده في نهر الفرات من أبرز طـرق المواصلات التجارية التي ربطت الشرق بالغرب . فعن هذا الطريق وصلت السلع والمنتجات الهندية إلى سواحل البحر المتوسط ولعب العراق دوراً مبرزاً في تنشيط هذه التجارة لأكثر من ألف عام .

وبجانب وسائط المواصلات النهرية من سفن وأفلاك وقوارب وقفف ، وهي الوسائط التي شهدت تطوراً وأستخداماً واسعين في تاريخ العراق القديم[٢] ، فقد أعتمد العراقيون في نقل تجارتهم عبر المناطق التي تنعدم فيها الطرق المائية ، على الحمير ، وبخاصة ومع الأناضول مدن سوريا التجارية .

ويبرز دور الأموريين من بين الأقوام العربية القديمة في كثرة أستخـدامهم

---

١ ــ رضا جواد الهاشمي : المدخل إلى آثار الخليج العربي . منشورات مركز دراسات الخليـج العربي بجامعة البصرة (٣٦) بغداد ـ ١٩٨٠ ص ١٢ .

٢ ــ رضا جواد الهاشمي « الملاحة النهرية في بلاد وادي الرافدين » مجلة سومر ـ بغداد المجلد السابع والثلاثون ـ ١٩٨١ الصفحات ٣٦ ـ ٥٥ .

للحمير في تنقلاتهم وحمل تجارتهم ، ويتم التأكيد في المعلومات المدونة عن الأموريين ، على شهرة وأهمية الحمار من بين الحيوانات عندهم[1] . كما يرى بعض الباحثين أن مجموعة من السوريين ، كانوا في الغالب من الجماعات الأمورية ، قدموا إلى مصر على حميرهم ، وقد وصلتنا صورهم ومعهم الحمير ، حيوانات نقلهم الرئيسة ، مرسومة على جدران مقابر بني حسن في مصر من عهد الملك سنوسره الثاني من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ويرجع زمنها لحدود عام ١٩٠٠ق.م[٢] وهو تاريخ مقارب لهجرة القبائل الأمورية إلى العراق أيضاً . ومهما يكن من أمر هؤلاء الوافدين إلى مصر ، فإن المهم أنهم من السوريين وذهبوا إلى مصر للأتجار ، وكان الحمار حيوان نقلهم الرئيسي .

وعلى العموم فأن الحديث عن مرحلة النقل على ظهور الحمير لا تؤثر خصوصية في تاريخ التجارة ، كما أن الحمار لم ينفرد في حمل التجارة لبعض المناطق ، بل شاركه في ذلك الحصان والبغل والثور ، وفي مراحل لاحقة ، العربات .

لذلك كانت وستبقى شهرة تجارة القوافل مرتبطة بحيوان نقلها الوحيد ، الجمل . كما أن مجموع المواصفات والمزايا التي ينفرد بها هذا الحيوان . كانت وراء أنعطافه كبيرة في تاريخ التجارة القديمة وطرقها وموادها وأصحابها وتأثيرتها ، وأنها بقيت مزدهرة لوقت طويل ، ولم تترك مكانها إلا بعد التطور الكبير الذي أصاب وسائط النقل البحرية في القرون الميلادية الأولى فأصبحت الوسائط الجديدة ، بسبب أستيعابها للحمولات الكبيرة ، وتمكنها من الوصول إلى ثغور محطات القوافل الرئيسة ، المنافس الشديد لتجارة القوافل ، فغدت بذلك عاملاً ، أضافة إلى عوامل أخرى ، في أضعاف وأضمحلال تجارة القوافل .

---

1 CAD (chicago Assyrian Dictionary)-A- see amurru p.72

٢ ــ نجيب ميخائيل أبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم . القسم الأول ـ مصر ص ٣٤٢ ط٤ / ١٩٦٣ ـ دار المعارف ـ مصر .

تدجين الإبل وتجارة القوافل :

خلصنا في المقدمة إلى أن الحديث عن تجارة القوافل لا يستقيم بدون الحديث عن الإبل ، وأن أبرز نقطة في حياة هذا الحيوان تتعلق بأمر تدجينه ؛ لأنه بعد تدجين الإبل ، تعرف مدجنوه تدريجياً على خصائص هذا الحيوان ومزاياه ، كما كانت المتغيرات الطبيعية في الجزيرة العربية[1] والمتغيرات السياسية في دنيا الشرق الأدنى القديم في الألف الأولى ق.م. ، تدفع بأستخدام هذا الحيوان لأغراض النقل والركوب ، إلى المقام الأول .

ويمكننا الآن في ضوء المعلومات الأثرية والبيانات الأدبية المتوفرة، أن نحدد مطلع الألف الثانية ق.م. لبداية تدجين الإبل[2] . والراجح بين الباحثين أيضاً ، أن مطلع الألف الأولى ق.م . يمثل بداية سيادة هذا الحيوان في التنقلات فوق الأرض العربية ، وبذلك يمكننا أن نؤرخ بموجب ذلك لبدايات تجارة القوافل أيضاً ونرجعها إلى مطلع الألف الأولى ق.م. ، وهو تاريخ يتوافق كثيراً مع بروز العرب وتجارتهم على سطح الأحداث في الشرق الأدنى القديم ، كما يمكننا أستنتاج ذلك من بدايات الأشارة إلى العرب في المصادر الأشورية ،[1] وتاريخ ظهور الممالك العربية الجنوبية[2] حيث أن معظم هذه الأشارات لم تفصل بين العرب وبين الإبل وبين التجارة .

وقد حققت تجارة القوافل هذه أزدهار الحياة الأقتصادية وأتساع الممالك

---

١ ــ رضا جواد الهاشمي : « البيئة الطبيعية في تاريخ الجزيرة العربية القديم » مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد ١٩٨١/٣٠ ص ٢٤١ فما بعد

٢ ــ رضا جواد الهاشمي : « تاريخ الابل في ضوء المخلفات الاثارية والكتابات القديمة » مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد ٢٣ ملحق / ١٩٧٨ الصفحات ١٨٥ ـ ٢٣٢

١ ــ رضا جواد الهاشمي : « العرب في ضوء المصادر السمارية » مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ـ ١٩٧٨/٢٢ . الصفحات ٦٣٩ ـ ٦٨٣

٢ ــ جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ص ٢٦٠ ، ٧٣٠ دار المعلم للملايين ـ بيروت ، مكتبة النهضة ـ بغداد . طبعه أولى ١٩٦٩

وعظم العمران ، كذلك زادت من أواصر الصلة والعلاقة بين مناطق الجزيرة العربية وقبائلها من جانب ، وبينها وبين أقطار الشرق الأدنى القديم من جانب آخر . فكان حصيلته عصرامن الأزدهار الحضاري لأمة العرب في تاريخها القديم ، والأزدهار التجاري منه بوجه خاص ، فأنتقلت بعض مراكز العرب القديمة إلى مصاف المراكز الحضارية المتقدمة ومن هذه المراكز على وجه الخصوص ، ممالك المعينيين والسبئيين والتتبانيين ، ومملكة الأنباط في البتراء ومملكة تدمر .

ولننتقل الآن صوب الجمل ، لمعرفة بعض أسرار تكوينه الطبيعي وجوانب من مزاياه وخصائصه ، لأن هذا الحيوان كان العامل المباشر لأزدهار حضارة العرب القديمة عامة ، وتجارتهم بوجه خاص .

لم تعرف حياة العرب القديمة حيواناً نال من الشهرة والأهمية عندهم مثلما نالها الجمل ، وسبب ذلك تعدد جوانب النفع منه ، ومن أبرزها ، أن الجمل جعل من مفازات الجزيرة العربية وفلواتها الصحراوية طرقاً يسيرة أمام تنقلات العرب ، كما أنه ربط مناطق الجزيرة العربية البعيدة بمراكز الحضارات المجاورة .

والجمل يحمل ضعف حمولة البغل ، وتصل قدرته إلى حمل حوالي ٥٠٠ كغم ، وتسير قوافل الإبل التي يصل تعدادها أحياناً إلى ألف بعير ، مسافة ٤كم في الساعة[1] . وتسير الجمال بأنتظام معدل ٥ـ٦ أيام دون أن ترد الماء ، ويصل تحمل بعضها لعشرين يوماً فتسمى الابل الجوازيء . وبذلك فأن لبعضها القدرة على قطع مسافة تصل لحدود ٤٠٠ كم دون أن تتزود بالماء ، لذلك يصدق وصفها بسفائن الصحراء .

ومما يضاف إلى مزايا هذا الحيوان ، أنه يتناول طعامه أثناء السير وطعامه وشرابه مما تعافه سائر الحيوانات .

---

1 —— The Encyclopedia Americana. vol.5. p.257. New York- chicago-1948

وتتعدى فائدة الإبل أغراض النقل والحمولة ، فهي مفيدة في لحمها ولبنها وجلدها ووبرها . ومقابل هذه الفوائد والخدمات الكثيرة التي يقدمها هذا الحيوان للعربي ، فأنه لا يحتاج إلى أدنى رعاية أو خدمة مثلما تحتاجها سائر الحيوانات الأخرى .

وأخيراً ، فإن تركيب جسم الحيوان ، وبخاصة خفه ، وفرّ له أمكانية السير فوق الأقسام الرملية من أرض العرب ، حيث يتعذر على أي حيوان آخر سلوك هذه الأقسام [1] .

العوامل التي شجعت على تطور تجارة القوافل العربية :

لأجل التركيز ، نذكر العوامل التي شجعت على تطور تجارة القوافل العربية في نقاط :ـ

١ ــ يأتي في مقدمة العوامل تدجين الجمل وحسن استخدامه والتعرف على مزاياه ، وملاءمته العالية لخصائص الأرض والبيئة العربية . والراجح بين الباحثين أن ذلك وقع بحدود مطلع الألف الأولى ق.م .

ويكفي أن نستشهد بأحد النصوص الأشورية التي أوردت ذكر الابل ، لنستدل منها على العلاقة الوثيقة بين هذا الحيوان وبين أصحابه ، العرب ، وسعة وتعدد استخداماته ففي نص للملك الأشوري شيلمنصر الثالث ، يؤرخ بحدود منتصف القرن التاسع ق.م. (٨٥٣ ق.م) يتعرض فيه الملك الأشوري لحلف عسكري قام ضده ، تعاقدت فيه عدد من الممالك الأرامية والمدن السورية ، وتحالف معهم زعيم عربي أسمه « جندبو » دعم الحلف بألف جمّال محارب [2] .

---

١ ــ أحيل القاريء إلى دراسة موسعة لي عن الابل أشرت إليها في هامش سابق ، حيث يجد فيها تفاصيل واسعة لأمور كثيرة تتعلق بهذا الحيوان وعلاقته مع العرب ، وأن المعلومات المختصرة التي أوردتها في أعلاه مقتبسه عن ذلك البحث .

٢ ــ رضا جواد الهاشمي : « العرب في ضوء . . . » المصدر السابق ص ٦٤٠ .

فنرى في هذا المثال وفترته المبكرة ، خير دليل على أعتماد العرب الوثيق على الإبل ، وأنها أفادتهم ليس في التنقل والتجارة فحسب ، وإنما كانت حيواناتهم المفضلة في الحرب ، بخاصة وأن الإبل بمقدورها الأنسحاب إلى المناطق الرملية في عمق الأراضي العربية ، حيث يتعذر على أي حيوان آخر ، وبخاصة الخيول ، التي شاع استخدامها في مراكز الحضارات القديمة في الألف الأولى ق.م . أيضا ، من ملاحقتها. وبهذه المناسبة نجد ضرورة الأشارة إلى أن هذه الميزة في الإبل ، وأنعدامها عند بقية الحيوانات تسببت في تعذر سيطرة مراكز القوى السياسية الكبرى على مناطق الجزيرة العربية ، وبخاصة في أجزائها البعيدة ومنها بلاد اليمن ، ويكفي أن نذّكر بمحاولات الأسكندر الفاشلة وبحملة أليوس غالوس على اليمن التي فشلت في تحقيق أهدافها أيضاً . ولذلك بقيت محاولات مراكز القوى العسكرية تحوم حول أطراف الجزيرة العربية وبخاصة عند أطرافها الشمالية . فلم يصل الأشوريون إلى أبعد من دومة الجندل ، وكان حظ الكلديين أوفر لأنهم تعقبوا طرق القوافل العربية فنجحوا في الوصول إلى تيماء وفدك ويثرب (المدينة المنورة) . أما اليونان والرومان ، فكانت تدمر ودمشق البتراء ، أبعد النقاط في شمالي الجزيرة العربية ، هي التي بلغوها ونشروا سيطرتهم عليها . وكان السبب الرئيس لمنع توغل هذه القوى في أعماق الأرض العربية ، في نفس الوقت ، كان نفسه السبب في حرية الحركة والتنقل للعرب ، يتمثل في أستخدام الإبل .

٢ ـ الموقع

تحتل بلاد العرب منطقة القلب في عالم الشرق الأدنى القديم ، كما إنها توصل بين أقليمين جغرافيين مختلفين هما أقليم البحر المتوسط ومنتجاته المتميزة ، وأقليم المناطق الحارة الاستوائية ومنتجاتها المتميزة وبخاصة شرقي أفريقيا وشبه القارة الهندية . ولذلك عبرت التجارة العالمية بلاد العرب منذ أقدم العصور ، ولا تزال تعبرها لحد الوقت الحاضر . ولكن الذي أختلف خلال العصور التاريخية ، هو أمر الطرق الرئيسة لهذه التجارة ومعها وسائط النقل ، فبعد مئات من السنين من

أزدهار طريق الخليج العربي وتكملته في نهر الفرات الذي ربط شرقي البحر المتوسط بمناطق الهند وتجارتها ، تحول الطريق إلى جنوبي الجزيرة العربية لأسباب سياسية واقتصادية سنتعرض لها، لتزدهر بموجبه تجارة القوافل التي نقلت منتجات الشرق إلى سواحل البحر المتوسط وبالعكس . وبالاضافة إلى الشواهد التاريخية الكثيرة في هذا السياق ، فإن الدلائل الاثرية المكتشفة في مدن اليمن القديمة ، ومنها مخلفات أثرية هندية وأخرى يونانية ، تؤكد هذه الحقيقة في أهمية موقع بلاد العرب بالنسبة للتجارة العالمية[١]

٣ ــ الأحوال السياسية :

تتأثر حركة التجارة وطرقها تأثراً كبيراً بالأوضاع السياسية التي تنتاب مراكزها وأسواقها ومناطق مرورها ، ونقول اجمالاً أن التجارة تزدهر في أوقات السلم وتطور العلاقات الودية بين ورسوخ البنيان السياسي للحكومات القديمة ، أفلم تزدهر تجارة مكة والقرشيين بسبب أشهر الحرم والايلاف ؟

ومع حالات الأستقرار السياسي تزدهر الحياة وتتوجه الجهود للبناء ويزداد الطلب على السلع الأساسية والكمالية التي تتوفر عن طريق التجارة .

لقد كان العراق القديم محطة رئيسة على طريق التجارة العالمية القديمة ، كما تسبب أزدهاره الحضاري وبناؤه السياسي والأقتصادي القويين ، على أستقطاب حركة التجارة وخطوطها الرئيسة لفترة تزيد عن ألفي عام . ما بين ٢٥٠٠ ـ ٥٠٠ ق.م .

ولكن العراق ومنطقة الشرق الأدنى القديم شهدت تبدلات كبيرة في مراكزها

---

1 —— Berta segall : "The Lion-Riders from Timna" in Archaeological Discoveries in south Arbia. John Hopkins press- USA- 1968 p.155f.

Gusvan Beek : "The Rise and Fall of Arbia Felix" in scientific American- December 1969. pp.36-46

السياسية وعلاقات دولها ، مما تسبب في أحداث خلل كبير في موازين القوى السياسية العالمية القديمة ، وترك ذلك بالتالي أثره الواضح على حركة التجارة وطرقها ووسائطها . فقد ظهرت في الأقسام الجنوبية الغربية من ايران قوة سياسية جديدة تمثلت بدولة الفرس الأخمينيين الذين نجحوا في بحر سنوات قليلة من نشر سلطانهم على كثير من أجزاء الشرق الأدنى القديم ، فسقطت بابل أمامهم في عام ٥٣٩ ق.م. وسقطت مصر بعد ذلك في عام ٥٢٢ ق.م. ويمثل سقوط هذين المركزين الحضاريين أهم التحولات التي طرأت على خارطة الأحداث السياسية والحضارية للشرق الأدنى القديم . كما جلب الفرس بسبب سياستهم التوسعية التي شملت بالأضافة إلى العراق ومصر ، وسوريا والأناضول ، أنظار اليونان إلى المنطقة .

ولم يكن الفرس الأخمينيون روّاد بحر أو طلّاب تجارة ، بل أنحصر تاريخهم في صراعات عسكرية طاحنة مع مراكز الحضارات التي أخضعوها وبخاصة مصر والعراق ، وختموا تاريخهم بسلسلة المعارك البرية والبحرية الكبرى مع اليونان .

فكان لهذا الوضع الذي أحاط بالتجارة وطرقها القديمة أثره الكبير في أبتعاد طرق التجارة العالمية عن بؤر الصراع العسكري لذلك وجدت التجارة العالمية في طرق الصحراء المنعزلة ، وفي العرب الذين بقوا لوحدهم من بين شعوب الشرق الأدنى القديم ؛ أسياد كلمتم على أرضهم أفضل الطرق وأحسن التجار وكان العرب بسبب امتلاكهم ناصية الإبل ، وخبرتهم العالية في مسالك الأرض العربية خير الناس في نقل التجارة ، وكذلك كانت الإبل في مقدار تحملها وحمولتها أفضل الوسائط .

وعلى الرغم من أن البيانات والدلائل التاريخية المتوفرة تشير إلى أنهماك العرب بتجارة القوافل قبل هذا التاريخ بكثير ، حيث أن معلومات النصوص الأشورية توضح ذلك بجلاء[1] ولكننا نستطيع أن نؤشر القرن السادس ق.م.

---

١ ــ رضا جواد الهاشمي : « العرب في ضوء المصادر . . . » المصدر السابق

بداية لمرحلة ازدهار تجارة القوافل العربية القديمة ، حيث لا نقرأ حديثاً عن التجارة من القرون اللاحقة إلا وتحصرها في العرب وقوافلها(٢)

٤ ــ المنتجات الزراعية المتميزة

وإذا كانت العوامل الثلاثة الأولى عوامل خارجية فإن هذا العامل هو من خصوصيات الأرض العربية وبيئتها ومناخها ، الذي تفاعل معه العرب تفاعلاً أيجابياً ووظفوه في تشييد حضارة متقدمة وأحتلال مركز مرموق .

فمن هبات الطبيعة لهذه الأرض ، أنها أغدقت على أقسامها الجنوبية وبخاصة في أجزائها الغربية بتضاريس متميزة من أهم خواصها سلاسل الجبال فيها ، كما أنعمت الطبيعة على هذا الركن من أرض العرب بمياه الأمطار الموسمية الوفيرة ، فتهيأت للعرب هناك مستلزمات الزراعة ، ولكنها أرتبطت بجهود أنسانية فريدة من نوعها في التاريخ القديم ، وتتمثل في إتقان أهل اليمن لبناء السدود الحاجزة لمسيل المياه في الوديان ، بغية تنظيم توزيعها وأستثمارها على الوجه الأكمل قبل ضياعها في المناطق الرملية أو رجوعها إلى البحر . وأكثر ما جاءنا من تراث اليمن هي بقايا السدود ومشاريع الري المتعددة ، حيث يحمل الكثير من حجارات البناء فيها كتابات تذكارية تؤرخ تشييد أو تقوية أو إعادة بناء هذه المنجزات ويكفي أن نتذكر تخليد القرآن الكريم لحضارة اليمن بأبرز مقوماتها وهي سدود الري وأكبرها سد مأرب .

وأستفادت بلاد اليمن من أختلاف تضاريسها في أستنبات أنواع مختلفة من الأشجار والنباتات أو تكثير الأشجار الطبيعية التي تتوفر في مناطقها . وعرف اليمنيون خواص كثير من أشجارهم ، سواء كانت الأستفادة من لحائها أو أوراقها

---

٢ ــ لطفي عبد الوهاب يحيى : « الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية الصفحات ٥٥ ــ ٧١ . دراسات تاريخ الجزيرة العربية ــ الكتاب الأول مصادر تاريخ الجزيرة العربية ــ الجزء الأول ــ جامعة الرياض / ١٩٧٩

أو ثمارها أو أصمـاغها ، ولم يكتفـوا بإستعمـال هذه المنتجـات ، وإنما أشـاعوا أستعمالها في مناطق عديدة من مراكز المدن العامرة في مصر وسوريا واليونان ، حتى أصبح الطلب على هذه المنتجات يوازي الطلب على الذهب وأحياناً يزيد بخاصة إذا ما عرفنا بأن بعض هذه المنتجات كانت تدخل في صناعـة الأدوية والعقـاقير والعطور ولأغراض التطبيب وفي المراسيم والطقوس الدينية في المعابد ، أو الجنائزيه عند الدفن . وقد عرف المصريون أستخدام هذه المواد في الطقوس وعند التحنيط وكمواد كمالية منذ فترات قديمة ، وكانوا يطلقون على بلد المنشأ لهذه المواد تسمية بلاد بونت . وكانت الرحلات التي تنطلق من قفط على نهر النيل ثم عبر وادي الحمامات إلى البحر الأحمر حيث تغادر صوب الجنوب لتبلغ مناطق هذه المنتجات كثيرة في التاريخ المصري القديم ، نذكر منها على سبيل المثال رحلات التجارة من عهد الملكة حتشبسوت (أواسط الالف الثانية)[1] .

وعلى الرغم من نمو بعض من منتجات العربية الجنوبية في الجزء الأفريقي المقابل لأرض اليمن عبر مضيق باب المندب أي في أقسام جنوبي الحبشة والصومال ولكن عرب الجنوب كانوا وراء تجارة هذه المواد على الأطلاق ، ولا يستبعد أنهم أضافوا منتجات الصومال إلى منتجاتهم ، مثلما أضافوا منتجات الهند إلى بضائع رحلاتهم التجارية[1] .

صحيح أن مواد التجارة اليمنية كانت الأشهر والأكثر رواجاً في الأسـواق للأسباب التي أشرنا إليها ، كما أشتهرت تجارة القـوافل بنقـل المنتجات الهنـدية

---

١ ــ لطفي عبد الوهاب يحيى : العرب في العصور القديمة ص ٣٧٦ ـ ٧٧ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٨ .

1 —— Walter W.Muller : "Arabian Frankincanse in Antiqiuty According to classical sources" pp.79-92. in studies in the History of Arabia- vol.I. Sources forthe History of Arabia part I. Riyad university- 1979

وبخاصة التوابل والدارصين ، ولكن تجارة القوافل العربية نقلت التمور والعنبر والادم (المستكة) والقرفة والأحجار الكريمة والذهب ، ومواد أخرى كثيرة بقي بعضها شائعاً في تجارة العرب إلى أيام الأسلام الأولى[٢] .

وبموجب ما أشرنا إليه من أسباب ، نشط العرب قديماً في تجارة القوافل وتعمقت بسببها أيضاً مجموعة من النظم والتقاليد ، التي كان هدفها النهائي تطوير مستلزمات العمل التجاري وسلامة حركته لضمان أفضل النتائج المرجوه من هذه النشاطات ، وفيما نقرأه عند الأخباريين من تفسير لمعنى لفظة قريش أو قريش التجار[٣] أو ما يقال في معنى الإيلاف[٤] أو حديث عن حلف الفضول ، تؤكد كلها مجموعة السنن والتقاليد التي أحاطت بنشاطات تجارة القوافل . ويخبرنا بليني قبل هذا الوقت بكثير ، كيف أحيطت أعمال جمع اللبان والبخور بهالة من القدسية ولزوم الطهارة أثناء العمل ، وبلغ الأمر إلى حد تسمية أفراد الأسر التي تمتلك غابات اللبان بالمقدسين[٥] فمن الراجح أن هذه القدسية كانت تحيط البضاعة في طريق رحلتها أيضاً .

ونظراً لهذه المكانة العالية التي أحتلتها تجارة القوافل في حياة العرب قديماً ، فقد أحيطت رحلاتها وطرقها وعقدها بالعناية الكبيرة ، وأزدهرت بموجبها أيضاً مجموعة من مدن القوافل التي أصبح بعضها سوقاً رئيسية للتجارة . وتقع مجموعة العقد والمدن التجارية على طرق متميزة تتوفر عندها مستلزمات الرحلة من تموين وأمن : وتقصد مراكز الأسواق التجارية النشطة .

إن كثيراً من محطات القوافل تحولت بمرور الوقت إلى مراكز تجارية متميزة ،

---

٢ ـ د. لطفي عبد الوهاب : المصدر السابق ص ٢٨٢ ، سعيد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والأسلام ص ١٦٦ ـ ٦٧ دمشق ـ ١٩٣٧ .

٣ ـ سعيد الأفغاني : نفس المصدر ص ٧٩

٤ ـ نفس المصدر : ص ١٢٤

٥ ـ لطفي عبد الوهاب : المصدر السابق ص ٢٨٣

ومن أجل سلامتها وتوفير الأمن اللازم لرحلاتها التجارية ، والذي يفيد سكانها وزائريها ، فقد أحيطت بعضها بهالة من القدسية والاحترام ، لتعميق شروط الأمن فيها ، ولنا في مثال مكة قبل الاسلام خير شاهد على ذلك . وقديماً كانت مدن التجارة العربية تزدهر بحياتها الدينية وكثرة معابدها ودور رجال الدين البارز في الحياة الاقتصادية . فقد كان عدد المعابد في مدينة شبوه عاصمة حضرموت ٦٠ معبداً ، وفي تمنه عاصمة قتيبان ٦٥ معبداً ، وكانت أبنية المعابد التدمرية من أفخم المباني في تدمر[١]، ولا خلاف حول أروع مباني البتراء المعروفة بخزنة فرعون عند السبق ، وهو مبنى مهيب ورائع حفر في الصخر ، يرجح أن يكون معبداً أو ضريحاً ، وأخيراً فان معبد الشمس في مدينة الحضر ، وهي مدينة قوافل أيضاً تكشف عن دور الدين والآلهة ومعابدها وكهنتها والعاملين على خدمتها في النشاطات الاقتصادية عامة ، وفي التجارة بوجه خاص .

وقبل أن نتابع أهم طرق تجارة القوافل ، يجدر بنا الألتفات إلى جملة من الشروط التي تحدد مسار خطوط التجارة وتتحكم بها إلى حد بعيد وهي :

١ ــ مسار الوديان الرئيسية والثانوية ، لأنها تساعد الناس وحيواناتهم على التنقل فيما توفره من مصادر المياه وبعض العشب والكلأ ، اللذان يعدان من الشروط الضرورية لقطع قفار الأرض العربية .

٢ ــ مواطن الآبار : وهي لأهميتها تشكل منازل على طرق القوافل ، تستريح عندها القافلة وتتزود بالماء والمؤونة لمواصلة رحلتها ، وقد تحول بعضها بسبب وفر مياهها وزراعتها وموقعها إلى عقدة تجارية هامة ، وأمثلتها كثيرة في مناطق الجزيرة العربية ، ومنها دران (واحة العلا) والحجر (مدائن صالح) وتيماء والبتراء وتدمر . وأضافت أعمال التنقيب الحديثة في المملكة العربية السعودية موقعاً جديداً يتمثل بقرية الفأو ، وتقع في أطراف وادي الدواسر إلى الشمال

---

١ ــ د. لطفي عبد الوهاب : المصدر ص ٣٦٨ ـ ٦٩

الشرقي من نجران[1] .

كما تجدر الاشارة إلى رواية هيرودتس بخصوص الآبار وأهميتها في بلاد العرب ومعرفة العرب بمواضعها ، يقول هيرودتس : « كان في البلاد العربية نهر كبير اسمه Corys يصب في البحر الأحمر . وأن ملوك العرب كانوا يصنعون أنابيباً من جلود الثيران أو الحيوانات الأخرى لتوصل بين النهر وبين كل جهات الصحراء . وهكذا يوصلون الماء إلى آبار معينة كانوا أعدوها »[2] .

٣ ــ المسافة بين موطن ماء وآخر : وعلى الرغم من القدرة العالية للإبل على تحمل العطش وقساوة المناخ بشكل منقطع النظير ، وأن بمقدورها السير لمسافة تتراوح ما بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠كم قبل ورودها الماء ، وبالتالي فهي المسافات المقبولة مع مساحة الجزيرة العربية الواسعة .

٤ ــ الأبتعاد عن المناطق الجبلية والصخرية : لأنها لا تتفق مع قدرات الإبل الطبيعية على الحركة والانتقال ، ويثبت ذلك الجاحظ بقوله « ومن العجب أن رجال الروم تصلح في البدو مع الإبل ودخول الإبل بلاد الروم هو هلاكها »[3] ويقصد الجاحظ من ذلك دون شك وعورة بلاد الروم وثلوجها في الشتاء .

٥ ــ دور العرب أنفسهم ، وبخاصة أصحاب الإبل منهم ، فالعربي بوصلة الصحراء التي لا تخطىء ، ولم ينجح في مجاراتهم في هذا الضرب من النشاطات أي شعب آخر ، لذلك بقيت التجارة حكراً عليهم ، ولم ينجح الأشوريون أو الكلدانيون أو اليونان أو الفرس أو الرومان ، من الوصول إلى مواطن التجارة العربية ولا السيطرة على طرقها على الرغم مما بذلوه من مساع كبيرة في هذا الشأن . لذلك حاول اليونان والرومان الألتفاف على التجارة العربية عن طريق غلق منافذها أو التحكم بأسواقها ، كما بذل اليونان جهوداً

---

١ ــ د . عبد الرحمن الطيب الأنصاري : « قرية » الفاو . جامعة الرياض ـ ١٩٨٢ .

2 - Herodotus : III, 7-9.

٣ ــ الجاحظ : كتاب الحيوان . ج٣ ص ٤٣٤ .

مضنية لأكتشاف طرق تجارية بديلة عن طرق القوافل . ابتدأت بمحاولات الاسكندر لاكتشاف طريق الملاحة في الخليج العربي وصولاً الى منافذ جنوبي الجزيرة العربية .

توزعت في أنحاء الجزيرة العربية طرق عديدة للقوافل التجارية ، تجتمع عندها معظم الشروط التي ذكرناها سالفاً ، ونال بعضها شهرة كبيرة وديمومة تاريخية ، بحيث حافظت على مكانتها إلى فترات التاريخ العربي الأسلامي ، حيث حلّت قوافل الحجيج إلى الديار المقدسة بدلا من قوافل التجارة ، لأن شروط الطريق ووسائط النقل بقيت دون تغيير إلى فترات طويلة من العهد العربي الأسلامي .

ويبرز في المقام الأول عند الحديث عن طرق القوافل ، الطريق الشهير باسم طريق البخور ، ومنطلقه من جنوبي الجزيرة العربية ، من منطقة الجوف ، أرض معين القديمة ، فبعد أن تتجمع المنتجات العربية المختلفة من سواحل حضرموت وبلادي قتبان وسبأ ، أضافة إلى السلع التي ينقلها اليمنيون أو تصلهم عن طريق البحرين من الحبشة والهند ، تتحرك القوافل شمالاً إلى أرض الجوف ، ومنها إلى نجران ، وبعد مغادرة نجران يتفرع عن هذا الطريق مسار يتوجه نحو الشمال الشرقي ماراً بوادي الدواسر عند مدينة الفأو أو قرية الفأو ومنها إلى الأفلاج فمروراً بمنطقة الخرج الوفيرة المياه ،ثم شرقا إلى اليمامة وهجر ، ومن منطقة هجر على سواحل الخليج العربي تتوجه شمالاً إلى وادي الرافدين فبلاد الشام[1] .

أما طريق البخور الرئيسة فتواصل مسيرها شمالاً لتصل إلى يثرب (المدينة المنورة) وينعطف الطريق غرباً قبل وصوله إلى يثرب في الفترات التي سبقت الأسلام ببضعة قرون ليمر بمكة . وبعد خروج الطريق من يثرب يمر بواحة العلا (ديدان) ثم مدائن صالح (الحجر) . وعند واحدة من هاتين العقدتين يخرج طريق فرعي

١ ــ عبد الرحمن الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦ ـ ١٧ .

منعطفاً نحو الشمال الشرقي ليذهب إلى تيمـاء ومنها إلى دومة الجندل لينتهي أخيراً في الأسواق العراقية . أما الطريق الرئيـس فيواصل مسيره نحو الشمال ليصل إلى البتراء ، وهي النافذة الرئيسية لتجارة العرب ومحطة كبيرة لقوافلهم ، فيتفرع منها ثلاثة خطوط ، يذهب الأول عبر سيناء إلى مصر ، وينتقل الثاني بالتجارة الى غزة لتنقل بحراً إلى العالم الغربي ، ويواصل الثالث سيره شمالاً ويمر ببصري قبل بلوغه السوق الرئيسـة للتجارة في دمشق .

ومع ازدهار تدمر في القرون الميلادية الأولى ، ازدهر خط مضاف يربط ما بين مدن العراق وبين مدن الشام من خلال تدمر ، كما كانت تدمر ترتبط بالبتراء بخط يمر (بربة عمون) فيلادلفيه (عمّان) ثم بصرى فالبتراء .

أن تأشير أمتدادات خطوط القوافل في الجزرة العربية تؤكدها كافة البيانات المدونة ، المسمارية الأشورية والكلدية منها ، والكلاسيكية (اليونانية والرومانية) كما أن كثيراً من هذه الخطوط بقيت نشطة إلى صدر الأسلام ، وورد ذكرها أو ذكر مواضعها في كثير من موارد الشعر العربي القديم ، وأخيراً فإن أعمال التنقيبات والأستكشافات الأثرية ونتائجها ، أيدت بالبرهان المادي صحة المعلومات المدونة عن هذه الطرق[1] .

والذي يتابع تاريخ العرب القديم منذ القرن الثامن ق . م . ، يتعرف على مناطق انتشارهم وأبرز نشاطاتهم وهي التجارة ، وأهم مراكزها ومـوادها ، ويستشف من مواضع المدن القديمة مسار خطوط القوافل القديمة أيضاً ، لذلك ورد ذكر دومة الجندل وتيماء وديدان ويدع وفدك ويثرب في هذه الأخبار[1] وهي المواضع

1 - Richard Le Baron Boqen "Ancient Trade Routs in South Arabia" in Arehaeological Discoveries .. op.cit. p.35ff.

ـــ لطفي عبد الوهاب ـ المصدر السابق ص ٢٩٢ فما بعد .

Gusvan Beek- op.cit.

أنظر أيضاً خارطة الجزيرة العربية مؤشر عليها خطوط القوافل في (الأنصاري ـ المصدر السابق) .

١ ـــ رضا جواد الهاشمي : العرب في ضوء المصادر المسمارية . المصدر السابق .

التي بقى بعضها زاهراً إلى وقت طويل ، كما كانت تدمر معروفة أيضاً بموضعها المتميز في بادية الشام ، ولكن الأوضاع السياسية لبلاد الشرق الأدنى ، وقربها من مراكز مدن بلاد الشام ، أجّل إزدهارها إلى القرون الميلادية .[٢]

أما في الخليج العربي ، فقد كانت الشهرة لطرق الملاحة ، ومع ذلك فمن المؤكد أن بعض مراكز الخليج العربي نشطت على طرق القوافل منذ القرن الثالث ق . م . ونذكر منها على وجه الخصوص الجرهاء ، التي كانت لها صلات تجارية مع السبأيين من جانب ، ومع مدن العراق القديم من جانب آخر ، وبسبب موقعها على ساحل الخليج العربي ، فأنها نشطت على الطريقين التجاريين ، الطريق البحري وطريق القوافل .[٣]

وهكذا هيأت هذه الطرق أسباب الأتصال والتنقل والأتجار بين مناطق الجزيرة العربية المختلفة ، وبينها وبين مراكز الحضارات القديمة في الشرق الأدنى القديم عامة . وأن التجارة واحدة من دعائم الأتصال الحضاري بين الأمم والشعوب ، وسبباً قوياً في تفاعلاتها ، ويتم ذلك من خلال السلع والمنتجات التي تمثل جوانب الحضارة المادية المتنقلة ، أو من خلال الناس ، الذين ينقلون معهم الأفكار والعادات والنظم والتقاليد . لذلك لعبت التجارة العربية القديمة ، وطرق القوافل خاصة ، دوراً عظيم الشأن في تهيئة فرص التفاعل الحضاري بين مراكز حضارات الشرق الأدنى القديم ، وتعدته في بعض الأحيان إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى .

ولهذه الأسباب مجتمعة ، وبفضل طرق القوافل ، وغيرها من العوامل ، بلغت حضارة اليمن ما بلغته في تاريخها القديم ، ونالت البتراء وتدمر من الثروة

---

٢ ــ د . عدنان بني : تدمر والتدمريون . دمشق ١٩٧٨ .

٣ ــ رضا جواد الهاشمي : المدخل إلى آثار الخليج العربي ـ المصدر السابق ص ٥٩ ـ ٦٠ .
لطفي عبد الوهاب : المصدر السابق ص ٢٩٥ .

والعظمة والشهرة ما جعلها هدفاً لأطماع اليونان والرومان . ولم يتوقف هذا الأهتمام حتى في زمن الساسانيين ، حيث بلغ الصراع بينهم وبين الأحباش ذروته في احتلالهما المتتابع لليمن ، وأخيراً كانت حملة أبرهة الفاشلة على البيت العتيق تصب في نفس الأتجاه .

ولكن المتتبع للتاريخ العربي القديم ، يفتقد هذه الصورة النضرة لواقع الحياة العربية في القرون القليلة التي سبقت الأسلام ، ويتساءل عن الظروف التي أحاطت بالعرب وبلادهم وحياتهم والتي تسببت في أضمحلال المقومات الحضارية وأسباب ازدهارها .

ومع إقرارنا بأن الأسباب كثيرة ، ولكننا نرى في السبب الإقتصادي المتمثل بالتجارة وطرقها وأسبابها عاملاً رئيسياً فيما آلت إليه حضارة العرب القديمة . وقد تبلور ذلك في ضوء عاملين أساسيين هما :

١ ــ إكتشاف أسرار الملاحة في البحر الأحمر :

فقد نجح ملاح يوناني إسمه هيبالوس بمعرفة أسرار حركة الرياح ، وبخاصة الرياح الموسمية ، وكان ذلك مع مطلع القرن الأول الميلادي[1] أضف إلى ذلك تطور وسائط النقل البحرية في حجومها وأشرعتها وعدد جذّافيها[2] ، وبذلك أصبح بمقدور الرومان الذين تولوا زمام الأمور في سوريا منذ عام ٦٤ ق . م . وفي مصر منذ عام ٣٠ق . م . ، بأن يبحروا إلى الجنوب العربي خلال البحر الأحمر ، ومنه إلى شواطىء الهند الغربية ، فكُسر بذلك طوق الإحتكار العربي لتجارة الهند ، وتوجهت ضربة قوية لتجارة القوافل .

وأكثر من ذلك ، فإن تجارة البحر سحبت كثيراً من العرب إليها ، وفي القرنين الميلاديين الأول والثاني ، تبدأ مجموعة من مدن الموانىء العربية بالظهور

---

1 - G.Fadlo Hourani: Araf Seafaring in thw Indian Ocean" Beirut. 1963. p.24.
2 - ibid. p.28.

والشهرة[1] ومع إستعادة العرب لبعض نشاطاتهم التجارية على الطرق البحرية ، ولكنهم لم يستطيعوا مجاراة السفن والتجار الرومان والصينيين الذين ظهروا بتجارتهم في المحيط الهندي منذ مطلع القرن الميلادي الأول[2] . والأكثر من ذلك خطورة هو ما أصاب تجارة القوافل نتيجة إزدهار طرق الملاحة البحرية .

٢ ـ تبني الدولة البيزنطية للديانة المسيحية :

تكثر الإشارات في المصادر الكلاسيكية إلى الإقبال الشديد على البخور والطيوب وغيرها من منتجات اليمن الزراعية ، لأغراض مختلفة في المجتمع اليوناني والروماني الوثنيين ، ويذكر لنا بليني أن نيرون أحرق على رفاة زوجته ما مقداره إنتاج سنتين من بخور العربية الجنوبية . وواصل المصريون إستخدامها في شؤون طقوسهم الدينية إضافة لإستخداماتها في صناعة العطور والأدوية . ولكن الديانة المسيحية التي شملت أرجاء الإمبراطورية البيزنطية (دولة الروم الشرقية) والتي استحوذت على معظم أقاليم الإمبراطورية الرومانية الوثنية ، ومنها في آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، أبطلت العمل بالكثير من الطقوس والمراسيم الوثنية ، وكان معظمها يتعامل مع البخور والطيوب العربية الجنوبية . وكانت بداية ذلك في عام ٣٢٥م ، في زمن حكم الإمبراطور قسطنطين الكبير . أضف إلى ذلك أن روما الوثنية لم تعمّر طويلاً ، حيث سقطت في عام ٤٧٦م وانتهى معها آخر المراكز الوثنية المهمة التي كانت تستورد البخور العربية .

وبذلك وُجهت ضربة مزدوجة إلى نشاطات العرب الإقتصادية ، فقد تسبب ذلك من دون شك في ضعف الإهتمام بالإنتاج الزراعي الخاص بهذه المنتجات ، إضافة إلى تقليل فرص النشاط التجاري العربي القديم ، مع ما يسببه هذان العاملان في تاريخ تجارة القوافل .

---

١ ـ لطفي عبد الوهاب ـ المصدر السابق ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

٢ ـ نفس المصدر : ص ٣٠٥ .

وقبل ختام حديثنا عن تجارة القوافل نجد ضرورة الإحاطة بالآثار الحضارية التي نجمت عنها .

فمن المعلومات المؤكدة أن التجار المعينيين بلغوا مصر وجزيرة ديلوس في بحر إيجة[1] ، ويعني ذلك ضمناً أنهم وصلوا إلى هذين المركزين عن طريق سوريا ومدنها الساحلية .

وكان اليونان منذ عهد مؤرخهم هيرودتس (منتصف القرن الخامس ق . م .) على معرفة واسعة ببلاد العرب ومناطقها ومنتجاتها وتجارتها ، وقد أشار هيرودتس في مقاطع كثيرة من تاريخه إلى منتجات العربية الجنوبية[2] .

أما السبئيون فقد بلغت شهرتهم الآفاق ، وأشير إليهم في الكتابات الأشورية وفي العهد القديم وفي القرآن الكريم ، وغالباً ما إقترنت هذه الإشارات بتأكيدات صريحة على النشاط التجاري وقوافل التجارة السبأية .

ومن جانب آخر ، فإن كتابات المسند الواسعة الإنتشار في الجزيرة العربية وأطرافها . بخاصة في مناطق الخليج العربي وفي الورقاء وأبو الصلابيخ في العراق ، إنما تؤكد جميعها المديات الواسعة التي بلغها التجار العرب ، وإتجاهات قوافلهم التجارية وقد نقلت تجارة القوافل الشيء الكثير والمتعدد من السلع والمنتجات والبضائع من مكان لآخر ، حيث عرضنا لبعض ذلك في سابق حديثنا ، ومن دون شك ، فإن بعضاً من هذه المنتجات والسلع تنقل معها ، إضافة إلى مقومات صناعتها من حيث الأشكال والحجوم والزخارف والتقنية ، جانباً من الأجواء الفكرية أو العادات والتقاليد التي تحيطها ، فتترك أثرها في مناطق إستعمالها بمرور الوقت . فمثلاً قد تنتشر مع إستعمالات البخور أوان خاصة تصنع في أماكن

---

١ ــ جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج٢ ص ٧٦
لطفي عبد الوهاب : المصدر السابق ص ٣٠٧ .

2 - Herodotus: III, 107- 113.

معينة ، ومع إنتقالها ، تنتقل تدريجياً تقنية صناعتها وأشكالها وزخارفها ، وربما حرفييها .

ولكن الأهم من آثار إنتقال السلع والمنتجات في التفاعل الحضاري بين المراكز المختلفة ، يتمثل في إنتقال أولئك الذين يعملون في التجارة . فأصحاب التجارة وأصحاب الإبل والعاملون على نقل البضاعة وحماة القافلة ، يشكلون في الغالب ، وفي حالات القوافل الكبيرة ، عدداً لا يستهان به من الناس ، يذهبون مع القافلة التجارية إلى أماكن مختلفة . وبسبب طرائق البيع والشراء القديمة فإن أصحاب القافلة يضطرون للإنتظار مدة ليست بالقصيرة من الزمن في هذا المكان أو ذاك ، يحتكون بالناس المختلفين في لغاتهم ودياناتهم وعاداتهم وطرز حياتهم ، وعندها تتم عملية الأخذ والعطاء[1] وتتحول هذه الحالة عند تكرارها ، كما كان حال القرشيين في رحلة الشتاء والصيف ، إلى أساس للتفاعل الحضاري بين ثقافات تجار القوافل وبين ثقافات المراكز والمدن المختلفة التي يرحلون إليها . وبذلك نستطيع تصور مراكز الأسواق التجارية الرئيسية أشبه ببوتقة تنصهر فيها ثقافات وعادات جميع الذين يعملون فيها[2] .

وكان بسبب إحتواء قريش لواحد من أبرز أسواق العرب ، فقد مكّنها ذلك من أن تتبوأ في اللغة المكان الأعلى ، لأن لغات القبائل عامة ، يمنيها وعمانيها وشاميها وعراقيها ونجديها وتهاميها . . تطرق مسامعها على الدوام ، فتختار منها ما يحسن وتنفي ما يقبح وقامت على هذا الاصطفاء زمناً كافياً حتى خلصت لها هذه اللغة الممتازة ، وتهيأت لينزل بها القرآن الكريم[1] .

وكان بين القرشيين عدد لا يستهان به من العارفين بالقراءة والكتابة ، بسبب

---

١ ـ سعيد الأفغاني : المصدر السابق ص ١٧٧ .

٢ ـ محمد عبد القادر محمد : العلاقات المصرية العربية في العصور القديمة الصفحات ١٣ ـ ٣٧ دراسات تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الأول ـ الجزء الأول .

١ ـ الأفغاني : المصدر السابق ص١٢ .

إحتكاكهم الواسع بمراكز المعرفة المجاورة ، وحاجة التجارة وأمورها إلى الإلمام بالقراءة والكتابة .

وبسبب الإنفتاح الفكري الذي عاشه القرشيون ، فقد ظهر بينهم الأحناف الذين دعوا لأفكار توحيدية على الرغم من وجود الديانتين التوحيديتين اليهودية والنصرانية بين صفوفهم وعلى مقربة منهم . وأخيراً لعب التجار دوراً بارزاً في قيادة العمليات العسكرية للفتوحات الإسلامية ويذكر أن عمرو بن العاص الذي شجع الخليفة عمر كثيراً على فتح مصر ، كان من بين التجار العرب الذين سافروا إلى مصر عدة مرات ، لذلك كان عارفاً بأحوالها وشؤون ناسها أكثر من غيره من القرشيين[٢] .

وقد لعب أهل البتراء وديدان نفس الدور الذي تهيأ له القرشيون لاحقاً ، كوسطاء لتجارة واسعة وآثارها الحضارية مدياتها الشمالية سوريا وفلسطين ودلتا مصر وساحل آسيا الصغرى وإلى العراق والخليج العربي وجنوبي الجزيرة العربية من ناحية الجنوب والجنوب الشرقي[٣] .

ولنا في قول هيرودتس « أن بعض الآلهة إنتقلت إلى الفرس من اليونان عن طريق العرب والأشوريين »[١] دلالة هامة في هذا السياق .

وهكذا لعبت تجارة القوافل دوراً بارزاً في التفاعل الحضاري بين مراكز الحضارات القديمة ، مثلما عملت على توسيع الإتصالات بين العالم اليوناني والروماني وبين بلاد فارس ، وبينهم جميعاً وبين العرب . ولو ألقينا نظرة سريعة على آثار الحضر وتدمر والبتراء والحجر واليمن ، وكلها مراكز تجارية عربية قديمة ، ومحطات على طريق قوافلها ، لتوضح لنا عمق هذا التفاعل وأبعاده .

---

٢ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج١ ص٢٣٤ ، طبعة سابعة . القاهرة ـ ١٩٦٤ .
٣ ـ نفس المصدر ص ٦٣ .

1 - Herodotus: I, 131.

النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري

الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
جامعة بغداد / كلية الآداب

مع بداية الفتوحات الاسلامية تمكن التجار العرب من التوغل في مدن بلاد المغرب المختلفة ، ومن ثم في المراكز التجارية السودانية .[1] وفي خلال هذا التقدم كانت الصحراء هي الطريق الرئيس لعملية التوغل العربي التجاري إلى الجنوب . ويبدو أن هذا التوغل هو الذي هيأ المجال للعرب ليس فقط لممارسة تجارة الصحراء ، بل للإلتقاء والإختلاط مع بربر الصحراء والتأثير عليهم ، وحدث الأمر نفسه بالنسبة للسودانيين الزنوج . وفي هدا البحث سنحاول دراسة هذه الجوانب متخذين من الطريق الصحراوي الغربي[2] نموذجاً لذلك .

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٧ ، ٤١٢ ، ومن الجدير بالذكر أن التجار البربر كانوا قد سبقوا العرب في نشاطاتهم التجارية مع بلاد السودان الغربي ، كما استقروا مع العرب في ممارسة أعمالهم التجارية مع تلك المناطق ، ولكن بحثنا سيقتصر على التجار العرب فقط .

(٢) من المعروف أن هناك ثلاثة طرق رئيسية صحراوية تربط بلاد المغرب في الشمال ببلاد السودان في الجنوب عبر الصحراء الكبرى ، وهي :

١ ـ الطريق الشرقي : الذي يربط المغرب الأدنى (ليبيا وتونس) بالسودان الغربي (كوار وكانم) عبر صحراء فزان .

يربط الطريق الصحراوي الغربي التجاري بين بلاد المغرب الأقصى في الشمال وبلاد السودان الغربي في الجنوب عبر الصحراء الغربية . ولقد سُلك هذا الطريق من قبل الفاتحين العرب الأوائل ، والذي يبدو ، أن النشاط التجاري للعرب برز مع أولى العمليات العسكرية العربية عبر هذا الطريق فحملتعقبة بن نافع إلى المغرب الأقصى عام ٦٢ هـ / ٦٨٢ م ، التي كانت قد أوصلت العرب إلى مناطق وادي درعة (بدايات الصحراء الغربية) لأول مرة ، جلبت معها من هذه المناطق أعداداً كبيرة من الرقيق كما تشير إلى ذلك المصادر العربية الوسيطة[١] . ويمكن قول الشيء نفسه على حملات موسى بن نصير إلى مناطق السوس الأقصى ، التي جلبت كذلك أعداداً كبيرة من الرقيق[٢] .

مع ازدياد الطلب على الذهب والفضة من قبل الخلفاء الأمويين في القرن الثاني الهجري . ومن سوء الحظ أن رواية ابن الصغير، التي هي أقدم وأهم نص ازداد النشاط العسكري ـ التجاري العربي[٣] . ولكن يبدو واضحاً أن العرب الأوائل أدركوا أن مثل هذه الحملات سوف لا تؤمن لهم تدفق السلع الرئيسية مثل الذهب والعبيد بدون إدخال تحسينات أساسية في طريقة تنظيمها ، ولذلك بذلوا جهوداً كبيرة في هذا المجال . فعلى سبيل المثال ، أمر عبد الرحمن بن حبيب حاكم المغرب (١٣٠ ـ ١٣٨ / ٧٤٧ ـ ٧٥٥) ، بحفر ثلاث آبار جديدة للقوافل التجارية المارة في الطريق الذي يربط مناطق السوس (جنوبي المغرب الأقصى) بمدينة أودغست[٤] ـ المركز التجاري المشهور الواقع على الحافات الجنوبية للصحراء

---

٢ ـ الطريق الأوسط : يربط المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) بالسودان الأوسط (كوكو) عبر الصحراء الوسطى .

٣ ـ الطريق الغربي : يربط المغرب الأقصى (المملكة المغربية حالياً)بالسودان الغربي (غانة والتكرور ومناجم الذهب) عبر الصحراء الغربية .

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٢٧ ، الدباغ ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٥٠ ـ ١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٤٩ ، مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ١٩٤ .

(٣) انظر الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ص ٢٥٤ ـ ٥٥ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٥٢ .

(٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص ص ١٥٦ ـ ٧

على حدود بلاد السودان .

في خلال القرون الثلاثة التالية (في القرن الثاني إلى القرن الخامس للهجرة) . لعبت القوى السياسية في المغرب دوراً كبيراً في تشجيع تجارة القوافل الصحراوية للتجار العرب ـ المسلمين مع بلاد السودان الغربي . ومن بين تلك القوى نذكر الأسرة الرسمية الأباضية في تاهرت ، التي قامت بدور الوسيط لتجارة المشرق والمغرب من ناحية ، وتجارة الصحراء والسودان من ناحية أخرى . وقد ساعدها على ذلك ، ارتباط تاهرت بمدن المغرب المختلفة بواسطة طرق تجارية متعددة ، وأقامتها لعلاقات تجارية مع مسلمي الشرق[1] . على أن الشيء الأكثر أهمية لنا ، هو ارتباط تاهرت مع الممالك السودانية جنوبي الصحراء وعبر طرق التجارة الصحراوية ، ومنذ فترة مبكرة في العصور الإسلامية ترجع إلى القرن الثاني الهجري ،ومن سوء الحظ أن رواية ابن الصغير ، التي هي أقدم وأهم نص وصلنا عن العلاقة بين الممالك السودانية وأمارة تاهرت ، لم تشر صراحة إلى اسم أية واحدة من تلك الممالك السودانية التي ارتبطت تاهرت بعلاقة تجارية معها[2] . ولكن المستشرق لويسكي Lewiclci[3] يعتقد بأن اتصالات حكام تاهرت الأباضية لابد أن تكون مع الممالك القوية جداً في غرب أفريقيا ، وبخاصة مع مملكة غانة ، المعاصرة لمملكة تاهرت . غير أن قوة الرسميين الاباضية قد تحطمت في بداية القرن ٤هـ/ ١٠م وأن مراكزهم التجارية، وبضمنها تاهرت قد احتلت من قبل الفاطميين ، الأمر الذي أدى إلى انسحاب الآباضيين إلى أعماق الصحراء ، حيث وجدوا لهم مراكز تجارية جديدة ومهمة هناك وكان من أبرزها ورجلان ـ المركز التجاري المهم الواقع في بداية الطريق التجاري الصحراوي الأوسط .

أما خلال الحكم الفاطمي ق ٤ هـ / ١٠ م فيبدو أن المغرب مارس نشاطاً

---

(١) ابن الصيفر ، أخبار الأئمة الرسميين ، ص ١٣ ، أنظر ايضا البحنحاني ، تاهرت ، ص ٣٧ .

(٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٤٥ ، قداحة بن جعفر ، كتاب الخراج ، ص ص ٢٢٧ ـ ٨ .

(٣) Arab extevnal Sonrces (trans.) by M. Abrahawowicz (Warsaw, 1969), P.26.

تجارياً مهماً مع المشرق الإسلامي من جانب ، وفي تجارة الصحراء من جانب آخر . فعلى سبيل المثال نجد أن مدينة سجلماسة ـ المركز التجاري المهم في المغرب الأقصى والواقعة على الحافات الشمالية للطريق الصحراوي الغربي ـ مارست نشاطاً تجارياً مميزاً أيام الفاطميين . فالجغرافيون العرب أوردوا تفصيلات كثيرة عن الأهمية التجارية لهذه المدينة لكونها ترتبط من الناحية التجارية بمدن المغرب المختلفة[1] ، كما ترتبط بمناجم الذهب في بلاد السودان ، الأمر الذي جذب إليها الكثير من الغرباء من مختلف الأقطار[2] . ولعل المعلومات الدقيقة والمفصلة التي أوردها ابن حوقل عن النشاط التجاري لمدينة سجلماسة خير ما يوضح لنا ذلك فهو يقول :

« وكانت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة ، وسكانها من أهل العراق وتجار البصره والكوفة البغداديين ، الذين كانوا يقطنون ذلك الطريق ، فهم وأولادهم وتجاراتهم دائرة دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قل مايدانيها التجار في بلاد الإسلام »[3] . والواقع أن التجار العراقيين الذين استقروا في سجلماسة هم وعوائلهم ، كانوا قد وسعوا دائرة نشاطاتهم التجارية ، فمارسوا نشاطاً متميزاً مع ممالك السودان الغربي . ويتضح هذا من قول ابن حوقل بأن سجلماسة تتمتع بـ « تجارة منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان وأرباح متوافرة ورقاق متقاطرة وسيادة في الأفعال وحسن كمال في الأخلاق والأعمال يخرجون برسومهم عن دقة أهل المغرب في معاملاتهم . . . وقف عليهم بكثرة أسفارهم وطول تغربهم عن ديارهم »[4] . وهكذا يبدو أن سجلماسة أصبحت في القرن ٤ هـ / ١٠ م مستقراً تجارياً مهماً للتجار

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٦١ ، ص ص ٩٧ ـ ٩ .
(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣١ .
(٣) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٦١ .
(٤) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩٩ .

العرب ، الذين لا بـــد أن اختلطوا واندمجوا مع سكانها من البربر ، وعندئذ مارس الجميع التجارة مع بلاد السودان .

وشهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي هو الآخر قيام قوة سياسية مهمة ألا وهي الدولة المرابطية التي ساعدت على إزدهار التجارة وتنشيطها عبر الطريق الصحراوي الغربي ، وذلك لما وفرته من ظروف آمنة للتجارة عبر ذلك الطريق ، وعملها على تشجيع النشاطات التجارية ، كما سنوضح ذلك أدناه .

بعد هذا نعود لنصف الطريق التجاري الصحراوي الغربي ومحطات القوافل التي يمكن اعتبارها مراكز لقاء بين العرب وبربر صنهاجة الصحراويين. ويبدو في وصف الجغرافيين العرب أن الطريق الصحراوي الغربي الذي يربط مناطق المغرب الأقصى بالسودان الغربي يتفرع إلى فرعين : الأول يبدأ من سجلماسة في الشمال وينتهي باودغست في الجنوب ومنها إلى مدينة غانة السودانية، ويبلغ طول هـذا الطريق مسيرة عشرين يوماً حيث يمر بمناطق استقرار قبائل صنهاجة[1] . وتبدأ رحلة القوافل التجارية عادة من مدينة سجلماسة ، ثم تجتاز ثلاث مجموعات من الآبار ، حفرت من قبل الحاكم الأموي للمغرب عبد الرحمن بن حبيب[2] ، ثم تصل بعدها إلى منطقة تسمى وانزمين، حيث يجتمع فيها التجار للراحة والتـزود بالمـاء. أما سكان هذه المنطقة فهم من قبائل جزولة لمطة. وبالاتجاه نحو مدينة أودغست كانت القوافل التجارية تدخل إلى ديار بني وارث الفهاجيين .[3] ، ومن ثم تصل إلى مناطق الإرواء التي كانت تحت سيطرتهم ، ثم تسير القوافل في أراضي صنهاجة وتستقي من آبارها حتى تصل إلى اودغست .[4]

(١) البكري ، المصدر السابق ، ص ص ١٥٦ ـ ٧ ، أنظر أيضا W.D. Cooley, The Negro Land oF The Avabs, P. 17.

(٢) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٣) على الرغم من أن البكري يشير إلى وجود بني وارث الصنهاجيين في هذا الطريق لكنه لا يذكر أي

(٤) تفصيلات عن أصل هذه القبيلة . المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص ١٥٧ . .

البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

أما الفرع الآخر من الطريق الصحراوي الغربي ، فهو يبدأ من وادي درعة ثم يعود إلى ثلاثة آبار حُفرت على ما يبدو من قبل الأمويين ، وهذه الآبار هي بداية لما يسمى بـ « المجابة الكبرى » . ثم تدخل القوافل إلى مناطق مياه بني ينتسر الصنهاجيين حيث تتزود بالماء ، ومن هناك إلى قرية تسمى مُرّوكن لصنهاجة، وبعد مسيرة أربعة أيام تصل القوافل مدينة غانة .[1] ويروي لنا البكري وصفاً مطولاً لمسيرة القوافل التجارية بقوله :

« وتجتاز مجابة ماؤها ثمانية أيام وهي المجابة الكبرى وذلك الماء في بني ينتسر من صنهاجة . . وفي الآبار المذكورة مجابة ماؤها على أربعة أيام إلى (ايزل) وهو جبل في الصحراء إلى قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمتونة ظوا عن رحل في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام . . . وهم إلى بلاد السودان أقرب بينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل وليس يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً . . . ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكلة إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق »[2].

والذي يبدو من نص البكري أن مناطق قبائل لمتونة الصنهاجية كانت هي الأخرى محطات لوقوف قوافل التجارة الصحراوية في الطريق الغربي . غير أن في أكثر المحطات الصحراوية أهمية والتي كانت تسكنها قبائل لمتونة هي أزُقي ، وهي مدينة على الطريق ما بين سجلماسة وبلاد السودان[3] . وعن هذه المدينة يشير الإدريسي إلى أن كل القوافل التجارية القادمة من سجلماسة إلى السودان ـ أي غانة وسلى والتكرور ـ كانت تمر بهذه المدينة .[4] وبالنظر لأهمية هذه المدينة فقد

(١) البكري ، المصدر السابق . ص ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ ، أنظر أيضاً ، مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١١ ، ٢١٣ ، الادريس ، صفة أرض المغرب والأندلس ، ص ٣ ، ٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣ ، ٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦ ، الحميري ، الروض المعطار ، ص ٢٨ .

أصبحت مجمعاً لقبائل صنهاجة متعددة إذ نجد بالإضافة إلى لمتونة كلاً من مسوفة ولمطة .[1]

إن إلتقاء القبائل الصنهاجية المختلفة مع التجار العرب ـ المسلمين في المحطات التجارية التي أشرنا إليها في الطريق الصحراوي الغربي بفرعية . يدعونا إلى الإفتراض إلى أن هذا اللقاء قد أدى إلى اختلاط الصنهاجيين البربر بالعرب، وما تسبب عن ذلك من وجود مؤثرات عربية على صنهاجة . ولا يظهر التأثير العربي في البضائع التجارية التي حملوها إلى سكان الصحراء فقط، ولكن في نقل الدين الإسلامي ومبادئه إليهم وربما بعض ثقافتهم أيضاً . وتزودنا المصادر العربية الوسيطة بمعلومات كثيرة عن انتشار الاسلام بين قبائل صنهاجة، الصحراء بفضل التجار العرب ومنذ فترات مبكرة من تاريخ الاسلام ربما ترجع إلى القرن ٣ هـ / ٩ م على أقل تقدير .[2]

ويتبين لنا في وصف هذا الطريق ومحطاته التجارية الأسباب التي جعلته أكثر تفضيلاً على غيره من قبل التجار العرب . وترجع هذه الأهمية إلى كونه يربط ، وكما أشرنا سابقاً ، بين مركزين تجاريين مهمين هما السودان الغربي في الجنوب والمغرب الأقصى في الشمال ؟ أو بمعنى آخر أن المراكز التجارية السودانية التي تقع على النهاية الجنوبية لهذا الطريق كانت مجاورة لمصادر الذهب والرقيق[3] ، وهي عين السلع التي يحتاج لها المغرب والعالم الاسلامي في العصور الوسطى . أما على النهايات الشمالية للطريق الصحراوي الغربي فكانت تقع المراكز التجارية الغربية التي زودت السودان بكل البضائع والأطعمة المغربية ، بالإضافة إلى تلك التي

---

(١) الأدريسي ، المصدر السابق ، ص ٦ ، البكري ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ١٣٥ ، ابن بطوطة ، رحلة ، ص ٦٧٤ .

(٢) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٧١ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٧ .

(٣) ابن الفقيه الهمداني ، البلدان ، ص ٧٨ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٨٤ .

كانت ترد من المشرق ومناطق البحر المتوسط .[1]

ومن المحتمل تماماً أن مرور الطريق الصحراوي الغربي عبر مناجم الملح في الصحراء الغربية قد أعطت هذا الطريق أهمية تجارية إضافية ، وذلك لكون أن الملح كان أهم مادة تحمل إلى السودان بسبب ندرته هناك ، وحاجة السودانيين الماسة إليه ، بحيث أنه استبدل بالذهب .[2] وهناك أدلة في المصادر الجغرافية العربية الوسيطة تشير إلى وجود مناجم الملح في الصحراء الغربية . فمن الواضح من رواية البكري أن هناك منجمين للملح ، الأول كان موجوداً « على بعد يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوماً تحفر عنه الأرض ويسمى هذا المعدن تاتنتال وعليه حصن مبني بحجارة الملح . . . ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وساير السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة » .[3] وقد سمى ابن بطوطة (ق ٨ / ١٤ م) منجم الملح هذا باسم « تفازة »[4] ويبدو أنه كان مستقراً لعدد من القبائل الصنهاجية البربرية ، وربما بعض العرب والسودانيين ، وإلى ذلك يشير القزويني وابن بطوطه[5] بقولهما : أن قبائل مسوفة الصنهاجية كانت تسيطر على مناجم ملح تفازة ، وقد استخدم هؤلاء الرقيق لحفره وجمعه ، وكان الملح المستخرج منه يباع إلى التجار العرب ـ المسلمين القادمين إليه من الشمال سنوياً[6] ، حيث يحملونه إلى غانة والمناطق السودانية جنوباً .[7] أما منجم الملح الثاني فيقع على شاطىء البحر

(١) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ ـ ٩ ، ١٧٣ ، الأدريسي ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .
(٢) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، أبو حامد الأندلسي ، تحفة الألباب ، مخطوط الخزانة العامة في الرباط ، رقم ١٦٠٦ ، ورقة ٨ .
(٣) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص ١٧١ .
(٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٧٤ .
(٥) القزويني ، آثار البلاد ، ص ١٦ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٧٤ .
(٦) القزويني ، المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٧) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٧١ ، مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١٤ .

(المحيط الأطلسي) مسيرة ثلاثين يوماً من مدينة أودغست ، وفي المناطق التي تستقر فيها قبائل جدالة الصنهاجية البربرية وهو الذي يسميه البكري بـ « أوليل » . [1] ويحمل ملح هذا المنجم إلى مناطق التكرور وغانة وذلك من أجل استبداله بالذهب . [2]

إن اهتمام ورغبة التجار العرب الشماليين بتجارة الملح تدعونا إلى الإفتراض ، بأن هذا النشاط التجاري قد ساعد على تحويل مناجم الملح الصحراوية إلى مراكز لقاء بين التجار العرب وبين قبائل صنهاجة البربرية العاملة في استخراج الملح ، لا سيما مسوفة .

ولا بد من الإشارة إلى أن التسهيلات الكثيرة التي قدمها الصنهاجيون لسكان الصحراء الغربية وللقوافل التجارية المارة على طول هذا الطريق ، قد ذلّلت بعض صعوبات التجارة الصحراوية ، وقد شجع ذلك التجار العرب على زيادة أعمالهم ونشاطاتهم التجارية[3] . فقد تطلبت التجارة عبر الصحراء خبرة خاصة وطويلة ، وكانت قبائل صنهاجة الصحراوية ، ومن بينهم قبيلة مسوفة ، متخصصة في هذا المجال . فقد عمل هؤلاء كأدلاء وحماة للقوافل التجارية المارة في صحاريهم . فاستناداً لابن حوقل « فإن الطريق التجاري [بين سجلماسة واودغست] كانت تحت سيطرة قبائل مسوفة . [4] ويبدو أن محطات القوافل التجارية ومناطق الإرواء والتزود بالماء في الصحراء الغربية كانت تحت هيمنة قبائل صنهاجة ، الذين اعتادوا على تزويد الرحالة والتجار بالطعام والماء . [5] وقد فرض الصنهاجيون ، كما يشير ابن حوقل ، بعض الرسوم على القوافل التجارية مقابل الخدمات التي يقدموها

---

(١) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٧١ . الاستبصار ، ص ٢١٤ .

(٢) الأدريسي ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ٣٢ ، ابن سعيد ، الجغرافية ، ص ٩١ .

(٣) J.M. Lewis, Islamin Tvopical Africa, PP. 23-4.

(٤) صورة الأرض ، ص ١٠٢ .

(٥) البكري ، المصدر السابق ، ص ص ١٦٣ ـ ٤ ، ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص ٦٩٦ .

للتجار المارين عبر مناطق استقرارهم .[1] ويبدو أن قبائل صنهاجة الصحراء قد استفادت من الإيرادات التي تأتيها في الرسوم المذكورة في تعزيز حياتها الاقتصادية . ومن الطريف هنا الإشارة إلى حماية القوافل التجارية في القرون التالية . ففي القرن ٨ هـ / ١٤ م يسمي ابن بطوطة إدلاء القوافل التجارية الصحراوية باسم « التكشيف » ، ويذكر أنه لولا هؤلاء الرجال الذين لهم معرفة بالصحراء لكثرة ترددهم عليها لهلكت معظم القوافل ،[2] ويبدو أن معظمهم كانوا من قبيلة مسوفة .

ولا يخفى أن الطريق الصحراوي الغربي قد استخدم بشكل أكثر لأغراض تجارية خلال القرن ٥ هـ / ١١ م . ويعود السبب في ذلك ببساطة إلى أن كلاً من الطريقين التجاريين الصحراويين الآخرين ، الشرقي والأوسط، كانا قد تعطلا ، كلياً أو جزئياً ، بسبب الهجرة الهلالية العربية في منتصف القرن المذكور[3] ، وما رافقها من اضطراب سياسي واقتصادي في كثير من مناطق المغربين الأدنى والأوسط . وقد أدى ذلك كله إلى تعطيل النشاطات الاقتصادية ، ومنها التجارية ، وامتداد تأثيرها إلى تجارة القوافل الصحراوية[4] . وفي الوقت الذي ضعفت أو توقفت النشاطات التجارية على الطريقين الشرقي والأوسط فإن الطريق الغربي الذي ظل بعيداً عن متناول أيدي الهلاليين العرب ، قد استعمل بثقل كبير في هذه المرحلة في التجارة الصحراوية مع بلاد السودان .[5]

ويمكن القول أخيراً أن ظهور المرابطين الصنهاجيين كقوة جديدة في الصحراء الغربية قد ساعد أيضاً على توفير جو تجاري خالي من الفوضى والاضطراب

---

(١) صورة الأرض ، ص ١٠٢ .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٦٧٦ .

(٣) عن الهجرة الهلالية انظر : الأدريسي ، المصدر السابق ، ص ٩٥ ، ٣ ، ١٠ ، ١٠٧ ، ١١٢ .

(٤) M. Brett, IFrigiya as amarlcet For Saharan Tvade, **JAH,** X (1969), P. 361.

(٥) Ibid.

فنشطت الأعمال التجارية عبر هذا الطريق . أما تشجيعها للتجارة عبر الطريق المذكور فيمكن إيضاحه بالشكل التالي. إن علاقة صنهاجة الصحراء التجارية مع السودان الغربي ترجع إلى فترات بعيدة قبل وصول العرب إلى تلك المناطق، وقد استمر بعد ذلك أيضاً، والسبب يعود إلى أن حياة الصنهاجيين الاقتصادية كانت تعتمد اعتماداً كليا على هذه التجارة، وكان الاتحاد الصحراوي الذي أقامته قبائل صنهاجة الصحراء المختلفة (لمتونة ، جداله ، مسوفة) في القرن ٣ ـ ٤ هـ / ٩ ـ ١٠ م ، قد شكل لفرض حماية المصالح التجارية لهذه القبائل مع السودان الغربي كما يبدو[١]. وفي القرن ٥هـ/ ١١م ، وبعد قيام الصنهاجيين بتكوين كيان سياسي لهم في المغرب الأقصى (الدولة المرابطية) ، وسيطرتهم على طرق الصحراء الغربية وعلى المراكز التجارية السودانية الرئيسية[٢] ، كان لابد وأن تنشط الحركة التجارية عبر هذا الطريق .

ومن الجدير بالذكر أن التجار العرب بعد تغلغلهم في الصحراء الغربية واختلاطهم ببربرها الصنهاجيين كان هدفهم الرئيس الوصول إلى المراكز التجارية السودانية ، وكان لهم ذلك ، بل أن بعضهم استقر في مدن السودان يمارس أعماله التجارية ، فأصبحت تلك المدن بدورها مراكز لقاء بين العرب والسودانيين ، ويظهر أثر ذلك واضحاً في التأثير الاسلامي الحضاري في تلك المنطقة منذ القرن ٥ هـ / ١١ م على أقل تقدير .

فيما يخص وصول التجار العرب إلى مراكز التجارة السودانية ، نجد أن التجار العرب المنتشرين في المدن المغربية المختلفة، قد مارسوا نشاطاتهم التجارية مع بلاد السودان منذ فترة مبكرة في التاريخ الاسلامي[٣] . إلا أنهم ، ومنذ القرن

---

(١) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٢) البكري المصدر السابق ، ص ١٦٨ ، B. Davidson, Old AFrica redi scovered, PP. 85-8, Messier, The AlmoravidsWest Afrecan gold and gold currency oF the Nedi terranean basin, JESHO, xvlll (1977), P. 37.

(٣) T. Lewicki, West African Food, P. 7.

٤ هـ / ١٠ م أخذوا يشكلون وجوداً واضحاً في مراكز التجارة الجنوبية . ففي مدينة اودغست ، المركز التجاري المهم الواقع على الحافات الجنوبية للصحراء الغربية . فكما يخبرنا ابن حوقل[١] ، فقد كانت هناك جاليات تجارية من التجار العرب ، لاسيما العراقيين وقد استقروا في مدينة اودغست يديرون الأعمال التجارية كوكلاء أو وسطاء تجاريين ما بين الشمال والجنوب ، ومما يظهر دور هؤلاء الوكلاء وأثرهم في تطوير التجارة بين الشمال والجنوب ، لاسيما بين سجلماسة واودغست ، ما أشار إليه ابن حوقل من أنه شاهد صكاً لأحد مواطني سجلماسة التجار وهو مدين لتاجر في اودغست بمبلغ قدره ٤٢٠ ألف دينار .[٢]

وفي غضون القرن ٥هـ/ ١١م ، وبعد خضوع المراكز التجارية الرئيسة في السودان الغربي إلى السلطة المرابطية في الشمال، استطاع التجار العرب من زيادة نشاطاتهم التجارية مع السودان الغربي ،[٣] كما ازداد الوجود التجاري العربي في هذه المنطقة . ففي اودغست ، وكما يشير البكري ، نجد أن أهلها خليط من السكان كان القسم الأكبر منهم من التجار العرب القادمين إليها من مدن المغرب المختلفة ، بالاضافة إلى التجار البربر من قبائل متنوعة من زناتة ولواته ونفزاوة ، وجماعة اباضية من جبل نفوسة في تونس[٤] . والذي يبدو أن التجار العرب المتواجدين بين رعايا مدينة اودغست ، قد مارسوا أعمالاً تجارية نشيطة ، وبرزوا كعوائل غنية ذات مشاريع واسعة[٥] . كما أن تأثير الجاليات التجارية من العرب ـ المسلمين في اودغست في القرن ٥ هـ / ١١ م كان معروفاً بشكل خاص في توسيع نطاق التجارة من داخل وخارج هذا المركز ، وبناء على ذلك فقد أصبحت المدينة

---

(١) صورة الأرض ، ص ٦٠ ، ٩٩ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٦٠ ، ٩٩ .

(٣) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ ، مؤلف مجهول ، مفاخر البربر ، ص ٢ .

(٤) البكري ، المصدر السابق ، ص ص ١٥٨ ـ ٩ .Sewicki, Arab external Sources, PP. 52-3

(٣) البكري ، المصدر السابق ، ص ص ١٥٨ ـ ٩ .

مركزاً بارزاً لتوزيع البضائع الشمالية والجنوبية . فالذهب والرقيق والعاج والصمغ كان يصدر إلى الشمال(١) ، وكانت البضائع المجلوبة عوضاً عنها تتضمن الحبوب والتمور والنحاس والملابس بالإضافة إلى الملح الـذي شكل المادة الأساسية في التجارة المصدرة من الشمال إلى السودان الغربي(٢) .

إن استقرار التجار العرب والمسلمين في مدينة اودغست كان بدون شك عاملاً مساعداً في أن تصبح هذه المدينة مركز لقاء واختلاط بين العرب وغيرهم من الأقوام الأخرى كالبربر والسودانيين . وبرزت أولى نتائج هـذا التواجـد بإيجاد مؤسسات اسلامية في اودغست مثل المساجد ومراكز التعليم العـربية في القـرن ٥ هـ / ١١ م . (٣) وقد أدت هذه المؤسسات بدورها إلى تعزيز علاقات الاختلاط بين المجموعات السكانية المختلفة في داخل هذه المدينة التجارية .

وبازدياد تـوغل وانتشـار التجار العـرب في المراكـز التجـارية السـودانية المختلفة ، نتج عن ذلك نشوء عدة مستقرات تجارية اسلامية . فمن بـين تلك المراكز التجارية الناشئة في السودان الغربي ، كان هناك الحي الاسلامي في مدينة غانة ، تلك المدينة التي شهدت نشاط التجار العرب منـذ وقت مبكر(٤) ، وفي خلال القرن ٤ هـ / ١٠ م نجد أن التجار العرب كالعراقيين(٥) واليمانيين(٦) قد تواجدوا في غانه ، لاسيما أن هذه المدينة كانت المدخل الوحيد للوصول إلى مناجم الذهب الواقعة جنوبها(٧) . وفي القرن ٥ هـ / ١١ م استمـر الوجـود التجاري

---

(١) المصدر نفسه ، مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص ٢١٦ .
(٢) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، Lewiclci, West AFrican Food, P. 39.
(٣) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(٤) ابن خلدون ، تاريخ ج ٦ ص ٤١٢ .
(٥) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٦٠ .
(٦) ابن الفقيه الهمداني ، المصدر السابق ، ص ٥١ .
(٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ص ٤ ص ١٨٢ .

العربي في مدينة غانة في الازدياد[1] ، ولعل من أوضح نتائج هذا التواجد هو ازدياد حجم وقيمة التجارة في غانة إضافة إلى نمو الاتصالات التجارية ما بين غانة من جهة ومناطق المغرب الأقصى من جهة أخرى .

ولهذا فإن من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن التجار العرب والمسلمين المستقرين في مدينة غانة استطاعوا أن يجدوا لهم مجتمعات خاصة بهم وفي مناطق سكنية مستقلة . ففي القرن ٥ هـ / ١١ م واستناداً إلى البكري فإن « مدينة غانه مدينتان سهليتان أحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً ولهم الأئمة والمؤذنون وفيها فقهاء وحملة علم . . . ومدينة الملك على بعد ستة أميال من هذه المدينة وتسمى الغابة . . . وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربةمن مجلس حكم الملك » .[2] كما أن هناك معلومات مماثلة عن مدينة غانة قد زودنا بها الادريسي ق ٦ هـ / ١٢ م . فقد لاحظ أن مدينة غانة كانت لا تزال مؤلفة من قسمين أحدهما للتجار المسلمين والأخرى للملك ، كما أشار إلى سعة هذه المدينة وكثرة أعداد التجار القادمين إليها من المناطق المحيطة بها ومن المغرب الأقصى .[3]

وفي تكرور وسلى (جنوب غرب نهر السنغال) ، كما هو الحال في مراكز السودان الغربي الأخرى ، تواجد التجار العرب والمسلمون فيها منذ فترات مبكرة[4] ، وكانت النتيجة المباشرة والمهمة لهذا التواجد هو اسلام حاكم التكرور وسكانها قبل القرن ٥ هـ / ١١ م ، وكذلك الحال بالنسبة لمدينة سلى [5] . والذي

(١) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، الأدريسي ، المصدر السابق ، ص ٦ ، أبو بكر احمد بن هارون ، روضة الأزهار في عجائب الأقطار ، مخطوط الخزانية العامة في الرباط برقم ك ٢٣٨١ ، ورقة ١٩٦ ب .

(٢) الشماطي ، السير ، ص ٤٥٦ ، الأدريسي ، المصدر السابق ، ص ٦ .

(٣) الأدريسي ، المصدر السابق ، ص ٦ .

(٤) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٢ ـ ٣ .

يبدو أن اسلام التكرور وسلي كان بفعل الصلات التجارية الوثيقة بينها وبين أباضية جبل نفوسة تلك الصلات التي أدت إلى وجود جالية تجارية أباضية في التكرور وكان لها الفضل في أسلام وارجابي (ت ٤٣٢ / ١٠٤٠م) حاكمها وسكانها . وهنا يجب التأكيد على أن نمو واتساع مستقرات المسلمين العرب والنشاطات التجارية لهم في السودان الغربي ، يرجع بشكل أساسي إلى العلاقات الطيبة التي نشأت بين التجار العرب ـ المسلمين والطبقة الحاكمة في السودان الغربي ، الذين أدركوا الفائدة الاقتصادية القصوى التي يمكن الحصول عليها من تواجد أولئك التجار هناك[٢] وتوثيقاً للعلاقة الودية هذه ، فإن الحكام السودانيين ، كملك غانه كان قد عين بعض التجار العرب في بعض المناصب الادارية العليا في البلاط السوداني[٣] .

وفي خلال القرن ٥ هـ / ١١ م استمر التجار العرب ـ المسلمون بتوسيع اتصالاتهم التجارية مع السودان الغربي إلى مناطق الذهب . ففي زمن البكري نجد أن نشاطاتهم امتدت إلى مناجم الذهب في غياروا ويرسني وسامة وكوغة وهلل[٤] . وهناك إشارة طريفة عن حاكم المدينة الأخيره هلل عند البكري ، حيث يشير إلى اسلامه هو وقومه على يد أحد التجار الغرباء[٥] . ويؤكد الادريسي الذي كتب من بعد البكري حقيقة التواجد التجاري العربي في مناطق حقول الذهب والتي يسميها « ونجارة » جنوبي غانة[٦] .

وهكذا فإن وجود التجار العرب في المراكز التجارية في السودان الغربي يعتبر حقيقة لا جدال فيها . وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكننا الافتراض بأن توغل التجار

---

(١) الشماطي ، السير ، ص ١٧٢ ، ٢٧٣ ، ٤٠٦ ـ ٧ . الاستبصار ، ص ٢١٧ .
(٢) انظر البكري ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٧ ـ ٩ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ، الشماطي ، المصدر السابق ، ص ص ٤٥٦ ـ ٧ .
(٦) الأدريسي ، المصدر السابق ، ص ٨ ـ ٢٩ .

العرب والمسلمين المكثف في السودان الغربي لا بد أن يؤدي إلى حدوث عمليات اختلاط وتزاوج بين العرب والزنوج في مراكز التجارة السودانية ، كما أدى إلى قيام النشاطات التجارية الواسعة بين المراكز التجارية في الشمال والمراكز التجارية في الجنوب .

مصادر البحث

١ ـ المصادر العربية :

ابن أبي زرع ، علي بن عبد الله الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (أبالا ، ١٨٤٣) .

ابن بطوطة ، محمد بن ابراهيم ، تحفة النظار في غرائب الاعصار وعجائب الأسفار رحلة ابن بطوطة (بيروت ، ١٩٦٠)

ابن حوقل ابو القاسم محمد بن علي كتابه صورة الأرض تحقيق J.H.lcrameS (ليدن ، ١٩٣٨)

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبروديوان المبتدأ والخبر (بيروت ، ١٩٦٧ ـ ٦٨) .

ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبـار الأندلس والمغـرب (بيروت ، ١٩٦٧) ابن الفقيه الهمداني ، احمد بن محمد ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دي غويه (ليدن ، ١٨٨٥) .

ابو الفدا ، اسماعيل بن علي ، كتاب تقـويم البلدان ، تحقيق M.G.De Slane (باريس ، ١٨٤٠) .

الادريسي ، محمد بن عبد العزيز ، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (صفة المغـرب وأرض السودان ومصـر والأندلس) تحقيق دوزي R-Oozy ودي غـويه M.J.de. Goeje (امستردام ، ١٩٦٩) .

البكري ، ابو عبيد بن عبد العزيز ، كتاب المسالك والممالك ، تحقيق دي سلين M.G De slane (الجزائر ، ١٨٥٧) .

الشماخي ، أبو العباس احمد بن سعيد بن عبد الواحد ، كتاب السير (الجزائر ، بدون تاريخ) .

القزويني ، زكريا بن احمد ، كتاب آثار البلاد وأخبار العباد مؤلف مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الامصار تحقيق سعد زغلول عبد الحميد (الاسكندرية ١٩٥٨) .

ياقوت الحموي ، كتاب معجم البلدان (بيروت ، ١٩٥٥ ـ ٥٩) .

٢ ـ المصادر الانكليزية :

Brett, M. "Ifriqiya as amarket for saharan trade from the tenth to twelth century A.D." **Journal of African History,** Vol. X (1969), pp. 347-64.

Cooley, W.D., The Negroland of the Arabs (London, 1966).

Davidson, Basil, Old African rediscovered (London, 19569).

DLewicki, T., Arab external sources for the history of Africa to the south of Sahara (trans.) by M. Abrahamowicz (Warsaw, 1969).

Idem, West African food in the Middle Ages (Cambridge, 1974).

Messier, Ronald A., "The Almovavids: West African gold and gold currency of the Mediterranean Basin," **Journal of the Economic and Social History of the Orient,** Vol. XVII (1974), pp. 31-47.

تجارة القوافل في العصر الوسيط
ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى

الدكتور ـ إبراهيم فخار
جامعة وهران ـ الجزائر

إن أهم ما تميز به مغرب العصر الوسيط هو ظاهرتان بارزتان كل منهما على طرفي نقيض من الأخرى .

أولاً : أن المغرب في العصر الوسيط لم يعرف على مستوى الدول والحكومات أي إستقرار سياسي أو وحدة جماعية حققت الإنسجام والتكامل لشعوب المنطقة : فمنذ ظهور الفاطميين على ساحة المغرب وهو إلى القرن ١٥ يعاني عدم إستقرار القبائل إلى الهجرات المتتالية حتى صعب على المؤرخين أن يضبطوا توزيعا جغرافيا علميا للقبائل التي كانت تتحرك في جميع الإتجاهات .

أما الظاهرة الثانية التي تمس صميم الحياة الإجتماعية والإقتصادية في المغرب الوسيط فهي ظاهرة تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في إتجاه بلاد السودان أو نحو جزر المتوسط عبر الموانيء والسواحل المغربية .

وإذا جاز لنا إستعمال كلمة العصر الذهبي في تاريخ المغرب الوسيط فهي تنطبق على الجانبين الإقتصادي والإجتماعي اللذين عرفا إزدهارا وتطورا وحركة نشيطة تحققت بها الوحدة الإقتصادية والفكرية على مستوى شعوب وسكان الصحراء والسودان عامة .

لقد كان هناك تكامل بين عنصرين أساسيين وهما العامل الإقتصادي والإجتماعي اللذان قامت حركة تجارة القوافل بتحقيقه .

خضعت الصحراء والجبال والوديان والسهول إلى إرادة الجماعات التي عرفت كيف تطوع وتستغل هذه الفيافي : فإعتنوا بالواحات وشقوا الطرقات وحفروا الآبار ووضعوا العلامات والأبراج وأتقنوا معرفة الجو وتقلبات الزوابع الرملية كما حافظوا على الرأس المال الأولى في هذه الصحراء الكبرى وهو الجمل ، بحيث لم تفتهم صغيرة أو كبيرة إلا وتفطنوا لها وتغلبوا عليها ، حتى أننا وبفضلهم نلمس أن الواقع الجغرافي للمغرب وسير الأحداث التاريخية حوله يقدمان دلائل وشواهد قوية على أن التجارة عبر الصحراء وواحاتها وقصورها كان لها الدور الهام في دعم العلاقات وربط الصلات بين سكان الجبال والواحات وسكان المدن الكبرى في سواحل المتوسط وفي دواخل بلاد السودان .

وهذا الإحتكاك المباشر بين الشعوب عن طريق التجارة يقتضي بالضرورة عليّ بمعرفة اللهجات واللغات التي يتعامل مع أبنائها ، كما يستلزم التعرف وإحترام عادات وتقاليد الأطراف المتعاملة فيما بينها .

والذي ينطلق مع قافلة من تخوم الصحراء في المغرب الأقصى يجد نفسه في صحبة تجار من طرابلس ونفوسه وفزان وقسصطالية والهجار جمعهتم كلهم أهداف واحدة وآمال مشتركة .

إن الذي تحقق عن طريق القوافل التجارية عبر الصحراء من وحدة في التفكير وإنسجام في العمل لم يتحقق عن طريق السياسة وحدها .

لهذا وجب علينا ونحن نسعى إلى تقارب شعوب القارة السمراء أن نضع في إعتبارنا عنصرين :

١ ــ العامل الإقتصادي والعنصر البشري اللذان أثبت التاريخ على مختلف عصوره

جدواهما في تحقيق التقارب .

٢ ـ إلى أي مدى يمكن أن يتحكم تاريخ التجارة عبر الصحراء ، في دعم الروابط التاريخية المعاصرة ، والعلاقة التي يمكن إقامتها بين الشعوب على ضوء نتائج ما تقدمه الدراسات في هذا المجال العلمي الهام .

وقد أخذ معهد البحوث والدراسات العربية بالمنهج العلمي والمنطق العملي في النظر الى المشاكل الأجتماعية والإقتصادية وبهذا تكون المنظمة قد لفتت أنظار الباحثين إلى الحلقة المفقودة في المباحثات القائمة بين الشمال والجنوب .

عندما أخذت علما بالموضوع لهذا البحث، راودتني عدة أسئلة، ولعل أهمها وأبرزها ، هو لماذا لم تحاول أو تفكر أية هيأة علمية دراسة التاريخ الإقتصادي والإجتماعي لصحاري المغرب الوسيط ؟ وهل إهتم الدارسون بدراسة الصحراء وتاريخها الحضاري الذي أقامت دعائمه القوافل التجارية لا بين أقطار المغرب فحسب إنما أيضا مع شعوب وبلاد السودان عامة .

أعترف أنني ترددت بعض الوقت . . . ثم إقتنعت بضرورة المساهمة نظراً لأهمية البادرة العلمية التي إتخذتها المنظمة ونظراً لإحياء موضوع طالما إستنزف طاقة الباحثين الغربيين ولم يلق العناية والرعاية من طرف المغاربة والسودان .

وعلى ضوء هذه المعطيات الأولية والتقدم السريع أبادر إلى تركيز الإهتمام على محور هذا البحث المتعلق بتاريخ تجارة القوافل ودور التجار الليبيين والمغاربة في حضارة الصحراء الكبرى .

تحتل ليبيا العصر الوسيط مركز الصدارة في تاريخ العلاقات التاريخية . لا بين أقطار المغرب والمشرق وبلاد السودان فحسب ، إنما إستطاعت أيضا بحكم موقعها الجغرافي الممتاز ومهارة تجارها وإستقرارهم النفسي أن تلعب دورا حضاريا هائلا بين أقطار السودان وجزر المتوسط مثل جزيرة كريت وجنوة ومالطة

وإن الذي جعل ليبيا تتمتع بهذه الميزة هو :

أولا : شبكات الطرق المتعددة التي تربطها بالصحراء الكبرى وبلاد السودان .

ثانيا : الساحل الليبي العظيم الممتد بموانئه من حدود مصر شرقا إلى حدود تونس غرباً .

ثالثا : واحاتها المنتشرة بقصورها وعواصمها عبر صحراء فزان ، وهذا مثل أوجلة زويلة ودان مرزوق وهون وسكنه والكفرة وغيرها . . . إذ تمثل هذه الواحات في مجموعها ـ مثل واحات الجنوب التونسي وصحراء الجزائر والمغرب ـ محطات تجميع وتوزيع للقوافل التجارية وملتقى لتبادل البضائع والإشعاع على أقطار السودان .

رابعا :ولا يمكن أن تستوفي الإستراتيجية الإقتصادية فعاليتها ما في ليبيا العصر الوسيط لولا جبل نفوسه ومدنه الشهيرة الذي إرتبط عضويا بتاريخ تجارة القوافل ، بحيث لعب هو الأخر دوراً لا يقل أهمية عن دور طرابلس ومصراته وسرت وفزان في دعم العلاقات التجارية وإزدهارها مع إطار المغرب وصحاريه إلا أننا لابد من أن نشير هنا إلى أن جميع ما كتب حول جبل نفوسه وقراه ومدنه لم يستوف الجوانب الفكرية والنهضة العلمية التي عرفها الجيل في العصر الوسيط . هذا فضلا عن الجانب الإقتصادي الذي كانت من أهم سماته تجارة القوافل التي تنطلق من طرابلس في إتجاه السودان عبر مدينة جادو بالجبل الشرقي إلى غدامس .

(جبل نفوسه وعلاقاته بتجارة القوافل)

إن الكتاب القدامى من مؤرخين وجغرافيين على إختلاف مللهم ونحلهم يجعلون جبل نفوسه في الأهمية الإقتصادية والثقافية مثل غيره من المناطق التي كانت مركزاً لتجارة القوافل والإشعاع الحضري في العصر الوسيط ، إذ إستطاعت كل من جادو عاصمة الجبل وشروس أم قرى نفوسه أن توطد علاقاتها التجارية

والعلمية مع زويلة وصحراوات فزان كما أحكمت صلاتها مع الجنوب التونسي قسطيلية وبلاد الجريد إلى وارجلان وتادمكه وفاو وتومبوكتو تتفق جميع النصوص المتعلقة بالتاريخ الإقتصادي للجبل على أنه ينقسم جغرافياً إلى ناحيتين أو منطقتين ناحية شرقية وأخرى غربية ، فهذه الأخيرةتحمل إسم « إميناج وناحيته » في مقابل الناحية الشرقية التي وردت لها عدة تسميات وهي جادو وجهة جادو وأحيانا أخرى (الجهة الشرقية) فقط .

ولكي نتعرف على دور بعض المراكز التجارية في جبل نفوسة وعلاقاتها بتجارة القوافل مع أقطار السودان ، لابد لنا من التعرض ولو بإيجاز إلى الناحيتين .

٢) تقسيم جبل نفوسه إلى ناحيتين :-

حسب معلومتنا الأولية حول هذا التقسيم ، نلاحظ أن أهل نفوسه كانوا منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي يعتمدون هذا التقسيم ، إذ نجد (الشماخي) الذي يترجم لشخصيات ليبية من الجبل يضع العديد منهم مع رجال الطبقةالثالثة أو الرابعة وينسبهم إلى إحدى الناحيتين المشار إليهما ، ونقرأ أيضا في كتابه السير عبارة « شروش » أم قرى نفوسه وجادوا مدينتهم .

وفي مسالك أبو عبيد البكري الذي ينقل عن محمد بن يوسف بن الوراق نقرأ ما يلي : « شروس أم كل قرى جبل نفوسه ، أما جاود فهي تقع في وسط المنطقة العامرة بين زمورو بني شاديت » التي تسكن قرب نفوسه .

أما الأدريسي الذي يكتب في القرن الثاني عشر الميلادي فهو يذكر على أنه « توجد بالجبل مدينتان ، ككل واحدة منهما احداهما شروس وهي تقع في جبل نفوسه » ويسكت الادريسي لسبب مع أن هذه الأخيرة كانت في القرن ١٣ = السادس هجري علاقاتها التجارية مع بلاد السودان الشرقي والأوسط .

الناحية الغربية (أميناج ونواحيه)

سبقت الإشارة إلى أن الناحية الغربية من الجبل تحمل إسم أميناج ونواحية

وتقع هذه الناحية من جهة الشرق على حدود جادو ونواحية ، وتضم ما بين خطي الطول ١١ و ١٢ في إتجاه الغرب « أربع مقاطعات أو ما يسمى بالمديريات وهي :

١) الرحيبات التي تبدأ شمال غربي تمزده ثم إيجطال .
٢) الجراية
٣) كباو
٤) لحا أمد
٥) نالوت .

في أقصى الغرب التي تنتهي عندها قرية تواغت أو تويفت عند الشماخي ، وتحمل اليوم إسم أولاد محمود أو أت محمود الواقعة جنوب شرقي نالوت بحوالي ١٨ كلم .

وعلى مسيرة يوم من تواغت أو تويفت عند الشماخي ، وتحمل اليوم إسم أولاد محمود أو أت محمود الواقعة جنوب شرقي نالوت بحوالي ١٨ كلم .

وعلى مسيرة يوم من نالوت نحو الغرب تصادفنا أقصى نقطة في غرب جبل نفوسه وهي قرية وزان التي تعتبر الحد الفاصل ونقطة انتهاء الجبل بالنسبة للقوافل المتجهة من طرابلس إلى غدامس وبلاد التكرور عبر جادو وشروس .

أصل تسمية أميناج :

يرجع أصل هذه التسمية إلى كون الناحية الغربية من الجبل تمثل إرتفاعا تدريجيا من نالوت غرب بنحو ٦٠٠ متر إلى غريان شرقا بنحو ٧٠٠ متر ، وتعني الكلمة البربرية أميناج ، بالأعلى أو الفوقي أو العلو والارتفاع ، وفي اللهجة المحلية اليوم للعديد من أقطار المغرب نجدها للدلالة على السطح . وفي النصوص أنج للمفرد وجمعه أجنوان أو أنجوج ، ويعتقد كاتبه (جبل نفوسه) أن الإسم قبل أن يطلق على الناحية كلها كان في أعلى الجبل ، اندثرت ، ثم عممت التسمية على المنطقة كلها والتي تضم ما بين قرية ومدينة حوالي ثلاثين اسما .

وهناك إحتمال آخر وتفسير ضعيف لهذه التسمية وهو أن الناحية الغربية للجبل مرتفعة بالنسبة لسهل جفارة المجاور والدافع على سفح جبل نفوسه ، بحيث لا يبلغ إرتفاعه أكثر من ٣٢٠ إلى ٣٥٢ متر ، وتذكر المصادر أن طريق القوافل التجارية التي كانت تنطلق من جراطة زوارة ، إلى غدامس كانت تخترق الناحية الغربية لجبل نفوسه ، ويرجع هذا إلى العهد الروماني عندما كانت جراطة إحدى المقاطعات الخمس الهامة في ليبيا .

وهذا يعني أن القوافل كانت تتجه من جراطة إلى غدامس عبر سهل الجفارة أميناج تاركة طريق طرابلس لقوافل جادو .

شروس عاصمة الناحية الغربية للجبل وصلتها بالسودان :

أشرنا في فقرة سابقة إلى أن إبن الوراق وهو صدد الحديث عن مدن جبل نفوسه : « شروس أم قرى نفوسه » وهي بحكم موقعها الإستراتيجي في بطن وادي شروس من أهم المدن المحصنة تحصينا طبيعيا حيث تحيط بها الجبال من جميع الجهات ، وهي تبعد عن طرابلس بمسيرة خمسة أيام .

وكانت في أول العصر الوسيط عندما فتحها عمرو بن العاص أكثر مدن الجبل عمرانا وأكبرها أسواقا كما كانت محطة رحال قوافل التجارة إلى السودان .

وابن حوقل الذي يكتب بعد إبن الوراق بقليل يجعل مدينة شروس « إحدى أهم مدن الجبل ولها منبرها » .

ونقرأ لصاحب الاستبصار في القرن٦ هـ ١٢ ميلادي « شروس من أكبر المدن الهامة ولها آثار ، ويؤيد الشماخي الذي استخدم كل المصادر السابقة لعهده ما أورده ابن الوراق من أن المدينة كانت في القرن الرابع الهجري ١٠ ميلادي عاصمة الحاكم ابي عمر ميمون بن محمد، وكانت إحدى المحطات للقوافل التي تصل من بلاد السودان ، وبالتحديد حسب النص بلاد التكرور بالسودان الغربي

قبل أن تصل إلى هدفها النهائي بطرابلس التي تبعد عن مدينة شروس بمسيرة خمسة أيام .

ويشير في كتابه (جبل نفوسه) ص ٢٨٩ بأنه لازال يصادفنا إلى اليوم في ضواحي شروس ممر ضيق للقوافل التي تتجه نحو غدامس ، ويسمى هذا الممر « طريق السودان » .

وتحمل شروس الأثرية اليوم اسم أحد علمائها في القرن (٣هـ/ ٩م) وهو أبو معروف ويار بن جواد ، وتطلق عليها الأجيال المتأخرة اسم (أبو معروف) أو بو معروف .

تقع آثار هذه العاصمة على الوادي الكبير الذي يحمل اسم وادي شروس . ويقارن الاستاذان دبوا آثار مدينة شروس من حيث سعة مساحتها بمدينة جادو القديمة من الناحية الشرقية من الجبل . ولا زالت بعض المعالم الأثرية لهذه المدينة بارزة ، ولعل أهمها وأبرزها مسجد أبي معروف القائم بمناراته ، ونقشت على بعض أحجاره المنحوته ـ حسب رواية دبوا والشيخ معمر ـ آيات من القرآن بالخط الكوفي ، ويذكر الجغرافي الأثري دبوا الذي قام بعمليات حفرية في المنطقة بأنه لا زال بالقرب من هذا المسجد قصر وعلى الجانب الأيسر منه يقع السوق ثم الحي السكني والتجاري لليهود الذين كان لهم دور نشيط في حركة التجارة بليبيا منذ القرن السادس عشر الميلادي ١٥٤٩ م .

ولقد عثر في آثار شروس على بعض الأحجار التي نقش عليها بعض الأسماء ويشير بأسى في كتابه « مشاهد جبل نفوسة » بأنه من بين الأسماء المستعملة للأسر في ليبيا العصر الوسيط ، نجد اسم سروس وزروسي التي هي نسبة إلى شروس بالسين أو الزين بالشين ، ووردت هذه الملاحظة أيضا في الجزء ١٤ ص ٤٦٩ من الوثائق المغربية .

وقد كتب صاحب الاستبصار في القرن ١٢/ الميلادي اسم شروس بحرف السين هو الآخر (سروس) .

جادو ونواحيه عاصمة النامية الشرقية في الجبل :

يرجع تاريخ جادو الحالية إلى أربعة قرون فقط ، حيث تضم هذه الناحية في العصر الحديث ثلاث مقاطعات وهي فساطو والرجبان ثم الزنتان . أما التاريخ القديم لجادو القديمة فهو يعود إلى عهود ما قبل الإسلام حين كانت ترتبط بطرابلس وتربطها الطرق الرئيسية المؤدية إلى فزان والسودان عبر صبراته ولبده ، وتشير اللغة الليبية القديمة في القرن السادس الميلادي ٥٤٩م إلى وجود اسم المدينة .

أما علاقة جادو بتجارة القوافل في العصر الوسيط ، فهي تصعد إلى نهاية القرن ٢ الهجري الثامن ميلادي حيث يذكر الدرجيني في طبقاته قصة لأبي عثمان المزاتي الدجى مع قافلة من تجار جادو متوجهين إلى السودان . وفي القرن التاسع الميلادي كانت جادو عند جميع المؤرخين العاصمة السياسية والإدارية لكل جبل نفوسه ، كما كانت حسب أبو عبيد البكري مدينة عظيمة وتحتوي على أسواق وجالية كبيرة من اليهود ، ويضيف إلى هذه المعلومات بأن القوافل التي تنطلق من طرابلس في اتجاه زويله وفزان تمر عبر مدينة جادو التي كان سكانها يتكلمون إلى جانب اللغة العربية والبربرية اللغة الكانامية ، وهذا راجع في الأصل إلى وجود جماعات سودانية من كانم استقرت في القرن ٩ الميلادي بمدينة اجناون الواقعة أسفل جادو في طريق القوافل القادمة من السودان ، وتعني كلمة اجنون في اللغة السودانية الأسود ويقال أنها اقناون ومفردة اقناو ونسبته اقناوي ، وعندما عربت الكلمة في لهجات المغرب الوسيط ، أصبحت في المغرب الأقصى افنون أكنون وكنون ، ولا زالت كلة الفناوي مستعملة في جنوب المغرب الأقصى إلى يومنا هذا . وفي جزائر العصر الوسيط وإلى اليوم احتفظت كثير من الأسر باسم جنون وثنون وثنونه للمؤنث .

وتذكر جميع كتب السير ، تراجم للعديد من الشخصيات التي كانت في اجناون بجبل نفوسه والتي ترجع إلى أصول سودانية .

وفي الحقيقة نستطيع القول بأنه منذ تاريخ أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني ، ازدهرت جادو واسترجعت طريق القوافل القديمة الرابطة بين طرابلس وزويله وكانيم .

وآخر عهدنا بمدينة جادو واجناون والجزيرة بجبل نفوسه تشير النصوص إلى أن التدهور الاقتصادي وخراب جادو يعود في الأساس إلى هجمات ابن غانيه الميورقي في مطلع القرن ١٣ ميلادية حيث أتى على جميع معالم العمران وطرق التجارة ومحطات القوافل التجارية في جميع أقطار المغرب مثل وارجلان التي ضربها وهدم أسوارها ، ومثل الجزيرة التي أحرق من بساتين الزيتون فيها نحو ١٢ ألف شجرة ولم يغادر جادو إلا بعد أن صالحه أهلها بألف ألف دينار مكررة أي مليونين من الدنانير .

فـــزان :

وإذا كان جبل نفوسه كما رأينا يحيط جغرافيا بمنطقة طرابلس وجرانه ويفصل بينها وبين الصحراوات الجنوبية في فزان وما وراءها فإن ما اشتهرت به المراكز التجارية وتمكنت من التغلب عليه القوافل في صحراء ليبيا العصر الوسيط فهو إقليم فزان الذي يمثل بواحاته بروزاً في الصحراء الكبرى التي تحيط به من جهة الشرق والغرب والجنوب ، وتعتبر تيمو هي الحدود الجنوبية في فزان في مقابل الجبال السوداء والتي تحدها من الشمال الشرقي قرب واحة سكنه بينما تقع هضبة التاسيلي في المركز الجنوبي الغربي منه . ومن حسن الحظ أن المؤرخين والجغرافيين الأوائل وحتى الرحالة المتأخرين رغم اختلافهم حول تحديد عواصم ومدن الصحراء الليبية ، يسعفونا بمعلومات تكاد تكون قريبة من الصحة على تفاوت ما بينهم من فارق الزمن .

فرحلات العبدري والتيجاني والعياش تورد جميعها ـ بالإضافة إلى ماجاء من إشارات الحسن بن الوزان وابن خلدون بأن أقليم فزان يرتبط مع الصحراء

الكبرى إلى السودان بشبكة من الطرق على غاية من الأهمية بحيث سهلت على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري ، وأحكمت الرحلة والربط بين صحراوات المغرب وليبيا إلى مصر وبلاد السودان الشرقي والأوسط والغربي .

كما أن هذا الأقليم الذي يعتبر امتداداً طبيعيا للشريط الصحراوي يضم مجموعة من الواحات، كان لسكانها دور ايجابي في استقبال القوافل وتوفير المياه ومبادلتهم بالبضائع المحلية وإرشاد القافلة عند مغادرتها الواحة إلى بضعة أميال ، ودافع هذا التعامل العرفي بين القوافل وسكان هذه الواحات هو الاسترزاق والكسب مقابل خدمات صغيرة لا تدخل في عرف مفهوم التجارة مع القافلة ذاتها ، ويرجع السبب النفسي لهذا السلوك الاجتماعي هو أن المقيمين بهذه الواحات يمثلون طبقة اليد العاملة في الحقل الفلاحي ولا يمثلون طبقة الملاك لهذه الواحات ، إذ أن هؤلاء الأخيرين يتخذون المدن وعواصم الواحات مراكز لإقامتهم ولتصريف رؤوس أموالهم مع القوافل والمتاجرة ، ثم استثمار أرباحهم في الواحات نفسها .

وتبرز على رأس قائمة الواحات الهامة في صحراء فزان واحة زويلة مرزق ودان ،اوجلة ،الكفرة ، وهون، والميزة التي تميزت بها هذه الواحات المنتشرة عبر الصحراء الكبرى هي ـ كما ذكر ابن خلدون « أن كل واحد من هذه الواحات وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار » .

وكلمة الوطن هنا في نص ابن خلدون تعني الأقاليم التي تسكنه قبائل عديدة ويضم مجموعة من الواحات أو القصور التي لها قصبة أي (مركز إداري) وعاصمة للأقليم . ويمكن أن نشير هنا إلى أن اقليم فزان تفرد بظاهرة عدم استقرار العواصم الصحراوية حيث لعبت الأحداث التاريخية أي السياسية دوراً هاماً في هذا التغيير الذي أثر من ناحية على تقلص الحدود الصحراوية الى دواخل ليبيا ومن ناحية أخرى أثر أيضا على مجى القوافل التجارية التي كانت خاضعة هي بدورها الى

حد كبير للمساومات والاعتبارات السياسية ، وأشير هنا إلى احتلال فرنسا لواحة بيلما التي هي طريق القوافل ، كما تم الاتفاق بينها وبين ايطاليا على طريق القوافل الذي يخترق غدامس إلى السودان الأوسط أو السودان الشرقي ، ولما كانت فرنسا تحتل بعض الأراضي الليبية باسم القبائل الفرنسية على الحدود بين تونس وليبيا نشب خلاف دبلوماسي بين الحكومتين الفرنسية والعثمانية .

وعند تتبعنا للتطور والترتيب الزمني للأحداث التاريخية التي مرت بها عواصم الواحات في ليبيا ، نلاحظ أن القوافل التجارية في علاقاتها بين الشمال والسودان عبر الصحراءالكبرى كانت على مر العصور تدخل ضمن أهداف التغيير الاستراتيجي لهذه المدن والمراكز التجارية الهامة ، فالعداوات المستحكمة بين قبائل وامبراطور سوكتو مثلا جعلت تجارة القوافل وإن لم نقل تتوقف وتتعطل ، تلاقي صعوبات في العلاقات التجارية بين طرابلس وبورنو ، وكذا تاريخ القوافل التجارية بين المغرب والشرق كان يتطور أو يتدهور حسب العلاقات السياسية بين دول العالم الإسلامي في العصر الوسيط ، وهذا منذ العهد الفاطمي إلى ظهور دولة المماليك بمصر .

زويلة في القرن العاشر وعلاقتها بتجارة القوافل :

عرفت الصحراء الليبية عدة عواصم تجارية اشتهرت بنشاطها وعلاقاتها مع السودان الشرقي والأوسط إلى السودان الغربي ، وهذا بفضل عاملين أساسيين أولهما مدن الصحراء التي حظيت بها مثل اجدابية اوجلة وزويلة ومرزوق وثاني هذين العاملية تعدد طرق القوافل وشبكة المواصلات التي تخترق ليبيا من طرابلس شمالا إلى جنوبا ومن وسط الصحراء حيث تتفرع الطرق شرقاً وغرباً .

فكانت طرابلس وجبل نفوسه يمثلان نقطة انطلاق القوافل عند الذهاب ونقطة الإلتقاء عند الرجوع ، هذا من غير أن نهمل الإشارة إلى بعض الموانىء الليبية مثل سرت ومصراته والخمس التي كانت تقوم بدور الوسيط بين تجارة القوافل

عبر الصحراء وجزر شرق البحر الأبيض .

وتأتي مدينة زويلة في مقدمة هذه المدن الصحراوية التي عرفت ازدهاراً في صحراء ليبيا العصر الوسيط ، فمنذ القرن ١٠ الميلادي إلى الثاني عشر منه اشتهرت زويلة بقبيلة هوارة التي أسست دولة بني الخطاب والتي يسميها ابن خلدون « زويلة بن الخطاب » . وأحيانا يقول « ملوك زويلة » .

ولم تشتهر هذه المدينة بجلودها مثل شهرتها بتجارة العبيد ، حيث كانت مركزاً لهذه التجارة المستوردة من كوار وكانيم ، كما كانت محط رحال جميع القوافل التي تقصدها من طرابلس وجادو أو من اجدابية واوجلة ومرزوق ودارفور وسنار غرب النيل الأزرق .

ولقد كان تخصص القوافل التي تقصد زويلة ـ مركزاً على نقل العبيد والعاج وهذا على أساس عدة اعتبارات .

اولا : إن تجارة العبيد بالنسبة للقوافل التي تقصد زويلة تمثل التجارة الأكثر رواجا مصر والقاهرة وطرابلس وبالتالي فهي الأوفر ربحاً .

ثانيا : خط القوافل المصرية القادمة عبر واحة سيوه ومن دار فور غرب النيل الأبيض يمثل بالنسبة للقوافل الليبية القاهرة زويلة أكبر منافس لها في السوق الداخلي لما تحمله القوافل المصرية معها من المشرق والتي لا تزاحم بضائعها في أسواق كانيم وكوار إلا البضائع المجلوبة من الأندلس وفاس وتلمسان ، أما الدروع البيضاء التي اشتهرت بها فيما بين اوجلة واجدابية ، وكذا الجلود التي عرفت بها زويلة ، لم تكن تمثل البضاعة الرئيسة التي تدر أرباحاً على القوافل وحتى بالنسبة للمنتوج من التمور لم تكن تصل مثلا في واحة جادو الواقعة بين أهجار والتبستي ضمن ما تنتجه واحات وارجلان ، وهذا ما جعل تجارة القوافل مع زويلة من القرنين الحادي عشر والثاني عشر تركز اهتمامها على تجارة العبيد، عكس القوافل الليبيين الذين يسلكون طريق غدامس وغات نحو السودان الأوسط والغربي فهم يعتمدون على

أهمية الخط التجاري من حيث تنوع البضائع وتعدد شبكاته التي تجمع القوافل من جميع أقطار المغرب ، وهذا يعني أن خط القوافل الذي ينطلق من طرابلس محاذيا للحمادة الحمراء في اتجاه غدامس هو أكثر أهمية من خط طرابلس مزدة مرزوق وزويلة ثم كانيم ، ولو أن الطريق التجارية التي تربط طرابلس بتيبو فكووار عبرا مرزوق وقطرون وتيجري تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية بالنسبة لتجارة القوافل في العصر الوسيط ، لهذا كانت زويلة بمثابة محطة لتجارة القوافل أكثر منها مراكزا استراتيجية اقتصادية .

ثالثا : وإضافة إلى ما مضى ، نلاحظ أن المدة التي تقطعها القافلة من طرابلس وجادو في الجبل إلى كوار عبر زويلة هي مسيرة شهر حسب الويساني الذي ذكر رحلة عبد الحميد الفزاني إلى السودان وجعل المسافة بين جبل نفوسه وكوار غبر زويلة مدة شهر ، أما البكري فهو يجعل المسافة من جادوا إلى زويلة مسيرةأربعة عشر يوماً ومن زويلة إلى كوار ١٥ يوماً فيكون الفرق بين الوسياني والبكري يوماً واحداً .

أما المدة التي تقطعها القوافل من زويلة إلى كانيم فهي أربعون يوماً فيكون المجموع الإجمالي لأيام الرحلة من طرابلس وجادو إلى كانيم عبر زويلة مدة أربعة وخمسين يوماً على رواية البكري و ٥٥ يوماً على رواية الوسياني .

ومجموع هذه الاعتبارات هي التي جعلت مدينة زويلة في رأينا لا تصمد لخطوط المنافسة الكبرى بحيث يتحول مركز الشغل التجاري من عاصمة بن الخطاب في القرن ١٢ إلى واحة مرزوق وتصبح عاصمة لفزان ، ويذكر ابن خلدون « أن مدينة زويلة انتقل أهلوها وسكانها إلى فزان من بلاد الصحراء واستوطنوها » .

ونشير أخيراً إلى أن موضوع العلاقات التجارية بين زويلة ومصر الفاطمية ثم الأيوبية غير مدروس دراسة وافية ، وكل الذي تمكن الإشارة إليه أن وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بدر الجمالي أمر في عهده ببناء باب زويلة في القاهرة ، وأما

مصر الأيوبية فقد قدم منها قره قوش ليخرب مدينة زويلة في صحراء فزان مستهدفاً المراكز الحيوية في ليبيا مثل شنترية وطرابلس وزويلة لتكون حسب عبارة ابن خلودن « معقلاً لصلاح الـدين يتحصن فيه من مـطالبة نـور الدين محمـود ابن زنكي » وصادف هذا الهجوم الذي أثر على تجارة القوافل في صحراوات ليبيا ؟ هجوم آخر من جزر المتوسط والمتمثل في غارات ابن غانيه الميورقي الذي احتل جميع الواحات المغربية التي اقتطع نخلها وأعمل فيها الحرق ثم اتجه إلى واحات توزر وقفصة إلى أن وصل طرابلس ليلتقي فيها مع قره قوش ، ولما عقد المـوحدون عـدة اتفاقيـات تجارية مع جمهورية ايطاليا استهدف اليورقي المراكز التجارية في صحراوات تونس ثم طرابلس وجبل نفوسه مشدداً بذلك الخناق على الموحدين ومسيطراً على سواحل ليبيا وصحراوات المغرب .

أما في عهد ابن مرين فقد عرفت تجارة القوافل تطوراً جديداً وذلك عن طريق العلاقات الدبلوماسية بين سلاطين المغرب وسلاطين بلاد السودان أي أن تجارة القوافل في القرنين ١٣ و ١٤ تبنتها الدول بعد أن كانت خاضعة للتجمعات القبلية والأسر والجماعات ففي عهد السلطان منسا موسى يذكر د / عبد القادر زبادية بأن أحمال القوافل التي تجهز سنوياً إلى مالي من منطقة وارجلان بلغت اثنى عشر الفـاً ولا نستبعد أن هذا العدد الضخم من عدد الأحمال يمثل في الحقيقة جميع القوافل الوافدة من طرابلس ونفوسه في اتجاه غدامس وار جـلان وعندها تفترق القوافل . إما إلى تاد مكت عبر صحراء الجزائر والهجار ، وإما إلى فاو وتمبوكتو وأودغشت وهذا ما أشار إليه ابن خلدون من أن عدد القوافل التي تخترق الهجار كانت تصل أحيانا إلى اثني عشر الف جمل .

ويرجع هذا الازدهار الملحوظ في حركة تجارة القوافل إلى المراسلات والوفود والمهاداة التي كانت قائمة بين السلطان أبي الحسن المريني والسلطان منسا موسى .

وفي مقابل العلاقات الرسمية القائمة بين بن مرين ومالي ، نجد أن مملكة

كانيم احتفظت بعلاقاتها التجارية الواسعة مع ليبيا عبر صحراء فزان وبيلماية كما أوفدت هذه المملكة إلى تونس الحفصية بعثة كانا ميتة معها هدية« وصلت ـ حسب تعبير ابن خلدون ـ من ملك كانيم وهو صاحب برنو قبلة طرابلس »

هذا ما استطعنا جمعه في وقت قصير عن تجارة القوافل في العصر الوسيط عبر ليبيا وصحراواتها ، أما صلته بالموضوع . فإني أعتقد أنه ـ بحكم صلة هذا الأقليم بليبيا ـ لابد من الإشارة إليه ولو في إيجاز .

نفزاوة وتجارة القوافل في العصر الوسيط

تعارف الجغرافيون على أن أقليم نفزاوة هو المنطقة التي تمتد ما بين صحراء ليبيا وصحراء الجزائر وهي الأقليم المعروف تارة باسم قصطالية وبلاد الجريد وتارة أخرى باسم بلاد التمر وبلاد النخيل ، ويذكر المؤرخون من مدنه الشهيرة نقطة وتوزر وقابس وقفصه ، غير أن التعريف الأكثر دقة لهذا الأقليم فهو :

الواحةالواقعة بين شط الجربه وشط الغرسه ، وهو أي الأقليم يقع ما بين توزر ونقطة وتفيوس والحامة حيث تلتقي في الأخير مع وادي سوف وصحراء الجزائر الكبرى .

ولكن إذا أخذنا بتعبيرات الرحالة والمؤرخين وجغرافي العصر الوسيط نجد أن عبارة بلاد الجريه أو بلاد التمر وبلاد الرمل لا تشتمل في حقيقة الأمر على أقليم قصطالية، بل تشمل كل الشريط الصحراوي الذي يمتد من السوس الأقصى غرب إلى فزان وودان غرب .

ويندرج في هذا الشريط الذي استغلته القوافل ـ كما سنرى ـ تارودانت وسجلماسة وصحراوات الجزائر إلى نهاية الودائم بلاد قصطالية التي تنتهي عند صحراء ليبيا .

وهذا ما ذهب إليه المؤرخ ابن خلدون وهو يتكلم عن هذا الأقليم حيث يقول : « ثم بلاد الجريد قبلة تونس وهي : نقطة وتوزر وقفصه وبلاد نفزاوه وتسمى كلها بلاد قصطلية ، ثم قابس قبلة سوسه ثم فزان وودن قبلة طرابلس قصور متعددة ذات نخل وأنهار .

وإذا كان مؤرخو المغرب الوسيط قد اختلفوا فيما بينهم وهم يتحدثون عن أقاليم المغرب وواحاته ، فغموضهم وهم يتكلمون عن بلاد السودان أعمق وأشد ، ويتفق جميعهم على التسميات التالية : بلاد الذهب أو بلاد التبر وما وراء الرمل وأحياناً غانة ، دون تحديد للموطن الذي يشيرون إليه ، ويستوي فيه هذه القاعدة المؤرخون الأوائل أو اللاحقون فيما بعد .

فابن عبدالحكم (٢٥٧ ـ ٨٧١) يتكلم عن أول حملة قام بها عبيد الله إلى السوس جنوب المغرب ثم يعقب بقوله : « نحو أرض السودان » دون أن يبين المقصود بأرض السودان هي غانة ، علماً بأنها كانت موجودة في أيامه قبل ٨٧٠ م ، لأن الفزاري الفلكي الذي ذكر قبل القرن ٨ الميلادي عدة بلاد أفريقية ذكر منها أقليم غانة بلاد التبر .

وهذا أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني السدراتي مع شهرته بدقة الملاحظة وكثرة الأسفار، يسافر هو الآخر إلى قرب خط الاستواء في اخر القرن ١٢ الميلادي من غير أن يذكر الطريق التي سلكها والغرض من هذا السفر وتحديد المكان الذي وصل إليه بل يكتفي بالقول :

« وقد وصلت أنا بنفسي قرب خط الاستواء وليس بيني وبينه إلا مسيرة شهر وكاد أن يستوي الليل والنهار فيه ، والفرق بين أطول يوم في السنة وأقصره ساعة واحدة ، وسكانه يخافون من البيضان » .

ودقة التعبير بالأسلوب العلمي في لغة الورجلاني تسهل على الباحث الحديث معرفة المكان الذي وصل إليه المؤلف بكل دقة وسهولة .

ولعل من أهم المصادر الهامة في موضوع تجارة القوافل مع أقطار السودان هي كتب السير أو كتب الطبقات التي أهملت حتى الآن ، مع أنها عندما تترجم لشخصياتها ، لا تهتم بالحدث السياسي كحدث ، بل تلاحق من ترجم لهم في حياتهم المعيشية في المدن والأسواق والأزقة ، والمساكن الخاصة ، ومن خلالها نتعرف على الجانب الاجتماعي والحضاري .

لهذا سوف اعتمد في هذه الفقرة عن تجار نفزاوة على بعض كتب السير التي ترجمت للعديد من التجار الذين سافروا إلى بلاد السودان .

الطريق من نفزاوة إلى السودان الغربي :

أغلب التجار الذين يقطنون ويتعاملون مع السودان الغربي كانوا يتوجهون إما عن طريق توزر أو غدامس فصحراء الهجار ثم إلى فقاو وهذا الطريق هو أقرب بالنسبة لسكان واحات الجريد ولكنه قليل الفائدة للقوافل ، إذ ليست فيه محطات تجارية أخرى يبادل فيها التجار بضائعهم مع أسواق الصحراء الكبرى ، وإن ما يحملونه معهم من البضائع التجارية وخصوصاً الأقمشة الحريرية المنسوجة في القيروان يفضلون بيعها في أسواق فقاو .

وفي نص لابن حوقل الذي زار أودغشت في القرن العاشر الميلادي ، وتحدث عن أسواقها وبساتينها ومساجدها قبل وصول المرابطين إليها ، قال « وكانت أودغشت تتاجر في الأقمشة الحريرية الموشاة التي يدفع ثمنها تبراً »

ولهذا السبب كانت هذه الطريق الأولى أقل أهمية من الطريق الثانية وهي التي تنطلق من توزر أو غدامس في اتجاه أودغشت وغانة وغيارو وكومبي صالح وتادمكت ، ولكن عبر وارجلان وسجلماسة ، سيما وأن التجار يقصدون هذه الأخيرةللتزود بالملح من مناجم تغزه لبيعه في سنغاي وتمبكتو .

ويتفق جميع المؤرخين على أن التجار البيض يستطيعون التحكم في التجارة

السودانية من الذهب والرقيق لما يحملونه معهم من الملح المطلوب بكثرة والنحاس والفواكه المجففة .

أمـا وأرجلان فـلأنها كانت من أهم العـواصم التجاريـة التي تلتقي فيها القوافل القادمة من تاهرت وتلمسان وفاس ، وقد وصف الأدريسي في القرن الثاني عشر وارجلان بقوله : « وارجلان مدينة فيها قبائل مشرفون وتجار أغنياء يتحولون في بلاد السودان إلى غانة فيخرجون منها التبر ويضربون في بلادهم سكة باسمهم أي باسم بلدهم » .

ولهذا سلك تجار القوافل في بلاد الجريد الطريق الثانية كما سيتضح لنا هذا من خلال استعراض بعض النماذج كأمثلة .

١) ففي كتاب السير لابي الربيع سليمان بن عبد السلام الويساني (٧هـ =١٣) م يذكر ان أبا محمد عبد الله اللسوراني يسكن وادي ريغ « سافر منه إلى بـلاد السودان وجعل تجارته كلها صامت يحملها على جمل ، ومعه حضري يعني من سكان المدن جعل تجارته عبيدا ، فكان أبو محمد لا تعب عليه ولا نصب اذا ارتحل الناس ركب جمله وإذا نزل ضرب خيمته ويستريح ، وكان الحضري يتعب وينصب في الخدم والرقيق ، هزلت هذه وجاعت هذه ومـرضت هذه وضرب العرق المدمر هذه ، فإذا نزلوا أشتغلوا في حوائجهم والحضري متعب مغتم ، فينظر إلى أبي محمد* قاعدا في الظل وماله صرة مرة ولا تعب معه ، فيقول الحضري .

سبحان الذي أراح عبد الله من هذا البلاد

وذكر السلاوي الناصري أن التاجر المغربي إذا سافر إلى غانه بثلاثين جملا رجع منها بثلاثة جمال أو جملين ، واحد لركـوبه ، والثـاني للماء ، وأن ثمن احمال

* [ولد أبو محمد في برقة في النصف الأول من القرن (٥ هجرية = ١١م) وهاجر وهو ابن ١٧ سنة الى وادي ريح واستقر أجلو] .

الثلاثين جملا يوضع فيها من التبر ما يملأ مزودا واحد وبمقارنة النصين نفهم أن أبا محمد اللسوراني سافر بثلاثين جملا إلى غانه ورجع على جمل واحد ، وأما الحضري الذي كان برفقة القافلة وأبي محمد فقد رجع بالرقيق والخدم .

٢) أبو عمران موسى الويساني الحامي سافر من الحامه عن طريق وارجلان إلى مدينة غيارو قرب مدينة قابس على نهر السنغال ، وقد وجد أبو عمران هذا معارضة شديدة من الشيخ أبي عبد الله محمد على هذا السفر البعيد ، وقال له أبو عبدالله : لقد مات قبلك في غانه فلحون بن إسحاق فخسرناه وذهب بماله وعلمه : ورغم هذه المعارضة ذهب أبو عمران إلى غيارو ، وورد في كتاب سير المشائخ (المؤلف مجهول كتب في تونس القرن ١٢م) ولما وصل أبو عمران وجد الناس عراة فلزم بيته وقل خروجه حتى مات هو الآخر » .

٣) كتب الشماخي في سيره هذه القصه التي نوردها كما هي مع اعتماد النص الأصلي الذي نقل عنه الشماخي وهو كتاب السير المشار إليه سابقا .
« . . . . . وذكر شيوخي ان رجلا من بني واسين يقال له تملى وكان مقلا في أول أمره وهو من أهل القصور . . . فجعل يسافر إلى تادمكت فبلغ بها مالا كثيراً . . . فجعل يبعث من تادمكت كل سنة ستة عشر كيسا كل كيس فيه خمسمائه دينار وكانت من جلود بقر مكتوب عل كل واحد منها هذا مال الله يبعث بها إلى أبي عمران موسى بن مدرين والد هارون الحامي الوسياني رحمه الله يفرقها على أهل ولايته إلى أن كتب إليه أبو عمران مال الله كثير واهلى . . .
وسافر اليه يخلف بن تمصكويت المدوني حتى وصل تادمكت فأدخله تملي على بيوت ماله فقال له إن كنت تأخذ مال الله أغنيك وعقبك فقال يخلف : لا فقال تملى : ما علمتني سخيا ، فأعطاه دينارا ورجع يخلف من عنده ، وكان يحدث عن بيت ماله. . . . رأيت فيها الكيوس مرسومة ما شبهتها إلا إلى الجراء وتراكم بعضها بعضا ممتلئة كلها بالذهب مكتوب على كل كيس منها هذا مال الله وينتهي النص بالحمد لله رب العالمين . وقد ذكر أبن حوقل أنه شاهد في

أودغشت على حافة الصحراء صكا قيمته ٤٢ ألف دينار كتب عليه « على ذمة التاجر السجلماسي اسحاق إبراهيم بن عبدالله » .

وجملة هذه النصوص وهي كثيرة تساعدنا على معرفة مدى اهتمام التجار المغاربة بالسودان ومدى إرتباط حياتهم الأجتماعية والأقتصادية بتجارة القوافل في العصر الوسيط .

أهم مراجع البحث ومصادره

١) ابن عبد الحكم	فتوح مصر والمغرب والاندلس
٢) ابن خلدون	الجزء ٦. ط بيروت
٣) أبو عبيد البكري	المسالك والمسالك
٤) الادريسي	نزهة المشتاق في إختراق الأفاق
	الجزء الخاص بالمغرب ط لندن ١٨٦٤
٥) العبدري	
٦) الشجاني	الرحـــلات
٧) العياشـــــي	
٨) أبو العباس أحمد الشماخي	السـير
٩) أبو الربيع سليمان الوسياني	السيـر
١٠) أبو يعقوب يوسف الورجلاني	الدليل لأهل العقول
١١) السلاوي الناصري	الأستقصاء في أخبار المغرب الأقصى

مراجع أجنبية :

١٢) باسي (روني)	مشاهد جبل نفوسه بالفرنسية
١٣) دبوا (ج)	جبل نفوسه
١٤) طدوز لفنكي	دراسات عن أباضية شمال أفريقيا
١٥) موتيلانسكي	جبل نفوسه

تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي

الدكتور الشيخ الامين عوض الله
المملكة العربية السعودية

المقدمة

لعبت الصحراء الكبرى في تاريخ السودان الغربي*(١) ، مالم يلعبه المحيط الأطلسي من الادوار الحضارية العامة ، فقد كانت طرق القوافل الصحراوية إلى

---

* (١) يطلق إسم السودان على جميع الأقاليم شبه الصحراوية من أفريقية التي أنتشر فيها الإسم ، ويمتد جنوبي الصحراء الكبرى ومصر ، أي من المحيط الأطلنطي في الغرب إلى البحر الأحمر في الشرق ، وتساير حدودها الجنوبية بصفة خاصة خط عرض ١٠ شمالاً ، ، ، وتنقسم هذه الأقاليم إلى ثلاثة أقسام : ـ

١) السودان الغربي ، ويشمل حوض نهر السنغال ، ونهر جامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا ، والحوض الأوسط لنهر النيجر .

٢) السودان الأوسط ، ويشمل حوض تشاد .

٣) السودان الشرقي ، ويشمل الحوض الأعلى والاوسط لنهر النيل (محمد بن عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، الحاشية ص ١٣٢ ، تحقيق خليل عساكر ومصطفى مسعد ، والعلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي للشيخ الأمين ص : ٤١ .

السودان الغربي بمثابة معابر انتقلت من خلالها الحضارة الاسلامية من المغرب إلى السودان الغربي .

ولم تكن الصحراء في يوم من الأيام تشكل عائقا دون الإتصال الحضاري المثمر بين الأقليمين ، وكانت الأسس المباشرة لهذا الإتصال هي التجارة وتبادل السلع ، وعن طريقها إنتقلت المؤثرات الحضارية بشكل واسع*(٢) .

تعاقب على المغرب عدة دول كان لها دور بارز في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس والسودان الغربي .

فقد قامت دولة الإدارسة (١٧٢ ـ ٣٧٥هـ)*(٣) على أكتاف بربر المغرب الأقصى الذين بايعوا إدريس بن عبد الله ، وقد وحد الأدارسة البلاد وأقاموا بها حكومة مستقرة وأسسوا مدينة فاس ، كما قضوا على فتنة الخوارج ، ونشروا الإسلام ، وغدت مدينة فاس مركزا هاما لنشر الثقافة الإسلامية بين البربر ، وطبعوا البلاد بطابع حضاري إسلامي مغربي*(٤) .

وقام الأدارسة بجهود طيبة أدت إلى إنتشار الإسلام بين الملثمين*(٥) ، وقد أدى ذلك إلى قيام حلف قوي يجمع الملثمين جميعهم بزعامة لمتونة ، وكان هذا

---

* (٢) الحسن الوزان (ليو الأفريقي) وصف أفريقية ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ص ٣٧ ، وعبد القادر زياديه : مملكة سنغاي في عهد الاسيفيين ، ص ٢١٠ .

(٣) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ج ١

(٤) الشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ص ٣٠

(٥) الملثمون : الذين يستخدمون اللثام لتغطية وجوههم ، وهم الطوارق وموطهنم أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان وبعضهم لا يعرف الحرث ولا الزراعة ، وإنما أموالهم ارغنام وعيشهم اللحم واللبن ، يقول أحد الشعراء في مدح اللثام :

قوم لهم شرف العلا من حمير ... وإذا إنتموا صنهاجة ، فهم هم

لما حووا أحراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم فتلثموا

كان الملثون على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام في القرن الثالث الهجري (الناصري : الاستقصي لأخبار دول المغرب الأقصى ج٢ ص٣ ، ٤ ، وابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣٧٣)

التوحيد في ظل الإسلام نذير موجة من التوسع صوب الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربي*(٦) وتأكد إسلام الطوارق في القرن الثالث الهجري .

وكان دور الطوارق أو الملثمين شبيها بدور العرب في النوبة في السودان ، أو دور الإعفار والدناقل والجالا في شرق أفريقية ، إذ قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، وهم الذين حملوا لواء الإسلام إلى هذه الجهات وكانوا العامل التوجيهي لتاريخه وثقافته*(٧) .

وكان يقابل هؤلاء الملثمين جماعات من الزنوج إتصلت بهم وتعاملت معهم وتعرضت لازعاجهم أحيانا أو لدعوتهم المسالمة أحيانا أخرى ، ودخلت معهم في معاملات ومبادلات .

كانت مملكة غانه* تهدد تجارة السودان تهديدا خطيرا ، هذه التجارة التي كانت مصدر يسر وغنى للقبائل الصنهاجية الضاربة في الصحراء ، وعلى ساحل المحيط ، لذلك تم نوع من التحالف بين قبائل لمتونة ، وجدالة ، ومسوفة بفضل الجهود التي بذلتها قبيلة لمتونة القوية التي كانت تحتكر زعامة صنهاجة الجنوب منذ وقت بعيد ، ويبدو أن أهداف هذا الحلف كانت مدافعة ملك غانة في الجنوب والسيطرة على تجارة السودان إلى الغرب ، وإسترداد ما فقد الحلف من تجارة

---

* (٦) حسن علي : دولة الادارسة ، رسالة ماجستير بدار العلوم بالقاهرة ، ص ٢٧٧ ، والشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ص ٣١ .

* (٧) حسن أحمد محمود : « المرحلة الأفريقية في تاريخ المرابطين » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤م ، ١٩٦٥م صفحات ١١١ ـ ١١٨ .

* غانة : يقول عنها ياقوت الحموي : « غانة كلمة عجمية لا أعرف لها مشاركا من العربية وهي مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب ، متصلة ببلاد السودان » معجم البلدان ج ٤ مادة غانة ، ويقول البكري : وغانة سمة لملوكهم وإسم البلد أوكار » أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١٧٤ .

ونفوذ*[٨] .

إنتقلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة ، وقد قدر لجدالة هذه القبيلة القوية الفتية ـ أن تتبنى الحركة الدينية التي إنتهت بقيام دولة المرابطين .

ويبدو أن يحيى بن ابراهيم ـ زعيم جدالة ـ قد إرتاد أسواق المغرب الأقصى متاجرا أو زائرا ، فأحس بالبون الشاسع بين البيئتين : بيئة المغرب الأقصى الزاخرة بالحياة العقلية الرفيعة ، وبيئة الصحراء التي يخيم عليها الجهل ، فآثر أن يأخذ عالما يعلم أفراد قبيلته ، فقصد القيروان ، *[٩] وإنتدب له أبو عمران الفاسي : الشيخ عبد الله بن ياسين .

وكان عبد الله بن ياسين من صناع التاريخ ، فقد أخذ يبث الدعوة الإسلامية على مذهب المالكية ، ولكنه لم يلبث أن وجد أن سياسة الوعظ لا تجدي ، فآوى إلى رباط في جزيرة نائية في مصب السنغال ، وعاش عيشة الزهد والتقشف ، وتسارعت إليه الصفوة ، ثم زاد أتباعه من المرابطين ، وعكفوا على الرياضة الروحية والبدنية ، وتعليم الإسلام الصحيح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا بالسنتهم ، ولكن بأيديهم وأسلحتهم لإصلاح حال الطوارق وجمع شملهم*[١٠] .

نجح المرابطون في القرن الحادي عشر الميلادي في إزالة أكبر عقبة كانت تحول دون تقدم الإسلام جنوبا ، فاضمحلت على أيديهم مملكة غانة الوثنية ، ثم إعتنق ملوكها الإسلام ، وأخلصوا له ، وعملوا على نشره بوسائلهم ، وتحولت

---

* (٨) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، والشيخ الامين عوض الله : المرجع نفسه ص ٣٢ .
* (٩) الشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ص ٣٢ .
* (١٠) حسن أحمد محمود : « المرحلة الأفريقية في تاريخ المرابطين » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤م ، ١٩٦٥م صفحات ١١١ ـ ١١٨ .

غالبية شعب غانة إلى الإسلام*(١١) .

استطاع دعاة المرابطين أن ينشروا الإسلام على ضفاف السنغال والنيجر ، فتم في عهد المرابطين تأسيس مدينة تنبكت ، وإمتداد الإسلام إلى جني ، وغدت هاتان المدينتان السودانيتان ، أعظم مركزين للثقافة الإسلامية*(١٢) .

وجاء نهاية مملكة غانة في القرن الثالث عشر*(١٣) الميلادي (السابع الهجري) ، عندما إحتلتها الماندنجو* .

وفي عام ١٢٤٠م (٦٣٨هـ) نجح ماري جاطة في تدمير ما بقي من كومبي صالح عاصمة غانة ، وبذلك إنتهت امبراطورية غانه ، وقام ماري جاطة بتأسيس مملكة مالي .

وبعد مملكة مالي ، قامت مملكة سنغي في السودان الغربي ، كما خلف الموحدون المرابطين في المغرب ، والمرينيون ومن ثم الإشراف السعديون ، ونشأت علاقات بين المغرب والسودان الغربي عبر الصحراء الكبرى .

ونتناول في بحثنا هذا تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر ، فنتحدث عن الطريق التجارية وأهميتها ، وعن المراكز التجارية ، وعن السلع التجارية ، وأساليب التعامل ، والأسعار ، والمكاييل والمقاييس ، والموازين ، وعن المراكز الثقافية ، وعن الآثار الحضارية للتجارة بين المغرب والسودان الغربي .

---

* (١١) مصطفى مسعد : « الإسلام وحركات العذلان الإصلاحية في غرب أفريقية ، مجلة أم درمان الإسلامية ، العدد الأول ، ١٣٨٨هـ ، صفحات ١٢١ ـ ١٥٠ .
* (١٢) مصطفى مسعد : المرجع السابق ، والشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ص ٣٤ .
* (١٣) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٥٤ .
* الماندنجو : المتكلمون بلغة الماندي ، والمؤرخون العرب يخلعون عليهم لقب ميل ، ويسميهم الحوصة بالونجارا Wangara (حسن أحمد محمود : « دور العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقية المجلة التاريخية ، المصرية ، المجلد ١٤ ، ١٩٦٨م صفحات ٤٥ ـ ١٠٨) .
* راجع خريطة الطرق التجارية ملحق رقم ١ ، ٢

الطرق التجارية وأهميتها

تعتبر العلاقات الإقتصادية بين المغرب والسودان الغربي أقوى الروابط في تاريخ الإتصال بين هذين الإقليمين ، وتعتبر الطرق أهم وسيلة لهذا الإتصال ، فلنعرض للطرق التي تعتبر أهم هذه العناصر .

هناك عدة طرق* تربط بين شمال أفريقية وغربها عموما ، والطرق*(١٤) المشهورة هي :

١ ــ من سجلماسة إلى والاتا ـ تنبكت ـ جني ـ جاو .
٢ ــ من تلمسان إلى توات ـ تنبكت .
٣ ــ من تكرث وورقلة إلى جاو ، يتصل هذا الطريق بالموانيء الجزائرية في الشمال*(١٥) .
٤ ــ من واحة الجرير في جنوب تونس إلى ورقلة ـ سوق ـ غدامس
٥ ــ من طرابلس الغرب على الساحل الليبي ، إلى غدامس ، ويمر فرع منه بفزان وينتهي إلى بورنو وجاو .
٦ ــ من مصر إلى واحدة سيوه ـ زاويله ـ تادمكه ـ جاو تنبكت*(١٦) .

وقد إختلف المؤرخون والباحثون في بدايات هذه الطرق ونهاياتها ، كما ركز بعضهم على أهمية بعضها دون غيرها ، ولنعرض لذكر آراء بعض المؤرخين عن

---

* (١٤) إبن بطوطة : الرحلة صفحات ٦٧٣ ـ ٦٨٢ ، وإبن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ٩١ ، وعبد القادر زيادية : المرجع نفسه ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، والشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ، ص ١٢٥ .
* (١٥) عبد القادر زبادية : المرجع نفسه ، ص ٢١٤ .
* (١٦) Fage, J.D.: A" Introduction to the History of West Africa. P. 22

هـذه الطرق علهـا تعيننا في تبصـر هذه الـطرق ، التي كـانت وسيلة الإتصـال الإقتصادي ، والثقافي ، والسياسي في آن واحد معا .

يقول البكري : إن الماء متوفر في الصحراء ويوجد على مسيرة يومين أو ثلاثة من وادي درعه إلى وادي تارجا ، ومن جبل إدراد مجابة ماؤها على ثمانية أيام ، وهي المجابة الكبرى*(١٧) .

ويتضح من حديث البكري وفرة المياه في الصحراء الكبرى ، وهنا يؤكد لنا أن السفر عبر الصحراء الكبرى لم يكن أمراً شاقـا وصعبا ، ولم تكن الصحـراء الكبرى فيافي بلا ماء وعشب ، ولكنه يتوفر في أحيان كثيرة ، بل توفرت فيها المياه السطحية ، ولم تتعد أعماقها في أحيان كثيرة عدة أمتار ، كما أن بها عيونـا ومياه جارية ، والبعد بين البئر والأخرى لا يتعدى اليومين أو الثلاثة ، وثمانية أيام على الأكثر* .

ويؤكد إبن خلدون في تاريخه : وجود آبار إرتوازية بالصحراء بقوله : « وفي البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غربية في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى ، وتطوي جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جومها ، ثم تصعد الفعلة ، ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها عن الماء فينبعث صاعدا فيفعم البئر ، ثم يجري على وجه الأرض واديا »*(١٨) .

ويتحدث إبن بطوطة عن مشكلة المياه فيقول أقاموا في تغازه عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق ، وهي أكثر المواضع ذباباً ، ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء

---

* (١٧) أبو عبيد البكري : المرجع نفسه ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

* في أثناء زيارتي لتمبكتو في يناير ١٩٧٥م التقيت بتاجر مراكشي يدعى مربي بن بشير ، وقد سبق أن سافر مع القوافل من المغرب إلى السودان في الأربعينات عدة مرات وقد أكد لي هذه الحقيقة .

* (١٨) إبن خلدون : المصدر نفسه ج ٧ ، ص ١١٩ .

التي بعدها ، وهي مسيرة عشرة أيام لاماء فيها إلا في النادر ، ويقول إنهم وجدوا ماء كثيرا في غدران أبقاها المطر ، فشربوا منها وغسلوا ثيابهم*(١٩) .

ويقول السليماني : « . . . فمن سجلماسة إلى جبل أرفوه مرحلة وهي جبل موات لا عمارة فيه وبه بئر ماؤها نافع للأمراض الجلدية ، ومنه إلى الإحساء بلاد رملية قريبة الماء يحضر فيها ويوجد الماء تحت الرمال على ذراع ونحوها كانت منازل لزناته . »*(٢٠)

وعن الطرق التجارية الهامة يقول بارث « . . كانت للتجارة الخارجية خاصة ، ثلاثة طرق عظيمة : الطريق المحازي للنهر من الجنوب الغربي والذي تحمل فيه التجارةالمجلوبةمن عدة مناطق ، وطريقان آخران من الشمال ، أحدهما من المغرب والآخر من فدامس*(٢١) .

ويرى بوفيل*(٢٢) أن أهم هذه الطرق هو الطريق الممتد من تغازة إلى تنبكت ، وهو الطريق الذي أشتهر بتجارة الذهب ، ولم يزل أهم الطرق من ناحية الثقافة حتى القرن التاسع عشر ، وكان خراب سجلماسة في السنين الأخيرة قد حرم هذا الطريق من ثغوره التاريخية الشمالية ، فحلت مكانها إلى حد ما مدينة أبوام المجاورة ولكن أغلب التجار تركوا تافيللت ، واتجه بعضهم إلى عين صلاح عاصمة توات ، وقد سافر التجار من وادي وأبوام عبر عكا التي ورثت أعمال سجلماسة على طول الطريق القديم عبر تغازة وتاوديني إلى تنبكت على . . . فبدلا من الإتجاه غربا إلى تاوديني ثم والاتا . . . تتبع الطريق الخط المباشر عبر وادان .

ويقدر إبن خلدون*(٢٣) أنه في بداية القرن الخامس عشر أصبح الطريق

---

* (١٩) إبن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .
* (٢٠) محمد بن الأعرج السليماني : « زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ » مخطوطة مصورة بالخزانة العامة بالرباط ، ج١ ، ص ٣٨٢ .
* (٢١) Barth. H. Travels & Discoveries in North & Central African Vol. III P. 358
* (٢٢) Bovill, E. W.: The Golden Trade of the Moors., P. 235.
* (٢٣) المرجع نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٨

القديم الذي يمتد من ناحية السوس إلى والاتن « والاتا » قد أهمل نتيجة لإعتداءات الأعراب من البادية السوسية على سابلتها ، فتركوا تلك الطريق ، ونهجوا الطريق إلى السودان من أعلى تمنطيت (توات) .

وبسقوط غانا على يد المرابطين إنتهت أهميتها كمركز تجاري ، وفي عام ١٢٢٤م تحول التجار المسلمون بعيدا جهة الشمال الغربي إلى والاتا ، وفي عام ١٢٤٠م تحطمت غانا نهائيا ، وتغير الميزان الإقتصادي وانحرف جهة الشرق إلى منحنى النيجر الأوسط ، وأصبحت جني ، وتنبكت ، وجاو مراكز تجارة الاستيراد والتصدير ، وخلف ملوك مالي ، ومن ثم ملوك سنغي ، ملوك غانة في الإستفادة من ذلك التحول*(٢٤) .

وإكتسبت طرق الشرق أهميتها بقيام سلطنتي كانم وبرنو ، كما أن إنهيار سلطنة سنغي وقيام ممالك الهوسا نشط الطريق الشرقي وجعله أكثر أهمية من الطرق الغربية ، وأصبحت كانو هي المركز الرئيس الذي تنتهي عنده الطرق التجارية بدلا من تنبكت .

وبعد الإحتلال الأوربي لسواحل أفريقيا الغربية ، انحرف جانب كبير من التجارة ناحية الجنوب نحو الساحل ، وأصبح القرنان السابع عشر والثامن عشر يمثلان فترة تدهور إقتصادي بالنسبة للمناطق المسيطرة في وسط النيجر*(٢٥) .

وأدى سقوط مملكة سنغي على يد السعديين إلى إنهيار تجارة الصحراء بين المغرب والسودان الغربي وساعد في تنشيط تجارة الساحل مع الأوربيين كبديل للطرق الصحراوية مع المغرب .

---

* (٢٤)
Ajayi & Ian Espie: A Thousand years of West African History (West African Trade A.D. 1000-1800) by Christofer Fife P. 239

* (٢٥) Ibid. P. 241

المراكز التجارية

أ ــ المراكز المغربية :

١) سجلماسة : تعتبر سجلماسة مركزا تجاريا هاما ومنها تسير القوافل إلى تغازه ، وقد ذكر عنها إبن حوقل*(٢٦) بأنها كانت مركزا تجاريا هاما ، وبها أرباح متوافرة ، ورفاق متقاطرة وأهلها قوم سراء مياسير ، وأبنيتها كأبنية الكوفة .

وحافظت سجلماسة على وضعها العام لعدة قرون ، فبينما ذكر ابن حوقل أهميتها التجارية في القرن العاشر ، نجد أن البكري قد ذكرها كذلك في القرن الحادي عشر ، ووصفها المقدسي*(٢٧) بأنها صحيحة الهواء ، كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان ، كثيرة الغرباء ، وبها معادن الذهب والفضة .

ويقول عنها إبن بطوطة*(٢٨) أنها من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب ، وهي تشبه مدينة البصرة في كثرة التمر ، ويقول : إن المسافة بينها وبين تغازة خمسة وعشرين يوما .

٢) تغازة : يصفها لنا أبن بطوطة بأنها قرية لا خير فيها ، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقفها من جلود الجمال ، وبها معدن الملح ، يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخمة متركبة يحمل الجمل منها

---

* (٢٦) كتاب صورة الأرض ، ص ٩٩
* (٢٧) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٣٢
* (٢٨) المصدر نفسه ، طبعة دار صادر ـ دار بيروت ص ٦٧٣ .

لوحين ، ويضيف إبن بطوطة : أن قرية تغازة على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر*(٢٩) .

وكانت تغازة تابعة لقبيلة سوفة ، وبسبب إهتمام السودانيين عادة بمعدن الملح ، فقد قام أهالي سنغي بإحتلالها في عهد الحاج اسكيا محمد سلطان سنغي*(٣٠) .

وفي عهد السعديين قام المغاربة بإحتلال تغازة وضموها لمملكتهم ، وفرضوا عليها زكاة المعدن كما يذكر لنا الفشتالي*(٣١) .

ويبدو من حديث إبن بطوطة: أن تجار السودان كانوا يصلون إلى تغازة ليحملوا منها الملح إلى السودان ، كما كان التجار المغاربة يأخذون منها الملح كذلك إلى السودان ، وفي بعض الأحيان يقوم السودانيون بحمل الملح على ظهر أبلهم مقابل أجرة قد تبلغ قيمتها ثلاثة أمثال قيمة الكمية المحمولة من الملح يدفعها لهم التجار المغاربة ، إذ يتناول التاجر حملة جمل من كل أربعة جمال ، على حين يتناول صاحب الجمال حمولة الجمال الثلاثة ، مما يؤكد صعوبة الرحلة ، وتكلفة الترحيل الباهظة .

٣) تكدا : إشتهرت تكدا بإنتاج النحاس الذي يستخرج من مناجمها ويحمل إلى بلاد السودان ، ويسبك في بعض الأحيان وتصك منه العملة ، ومن تكدا تسير القوافل إلى برنو ، حيث تجلب الجواري والعبيد والثياب ، وتصدر منها السلع إلى المغرب*(٣٢) .

والنحاس الذي يعدن في تكدا ، يحمله التجار إلى سلطنة مالي ، حيث يقوم

---

* (٢٩) المصدر السابق ، ص ٧٦٤
* (٣٠) (١٤٩٣ - ١٥٢٨م) ٨٩٩ - ٩٣٥هـ
* (٣١) عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفاء ، ص ٥٢
* (٣٢) ابن بطوطة : المصدر نفسه : ص ٢٠٩

أهلها بحمله إلى مناطق الذهب لإستبداله بما يعادل ثلثي وزن النحاس ذهبا خالصا*(٣٣) .

٤) توات : وهي من المراكز التجارية الهامة ، وقد ذكرها إبن خلدون وأشاد بعمرانها ، وقال فيها : « فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة ، وتسمى وطن توات ، وفيه قصور متعددة تناهز المئتين ، آخذة من الغرب إلى الشرق ، وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت ، وهو بلد متبحر في العمران ، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد »*(٣٤) .

وذكر توات ليو الأفريقي حيث يقول : « . . . تحتوي توات على أربعة آلاف عائلة . . . وبها تربة خصبة لزراعة الحبوب والشعير . . . ويزرعون قصب السكر بكميات وفيرة تكفي حاجتهم ، ويصدرون الباقي لتجار المغرب ، وفاس ، ولبلاد السودان ، وعندهم كمية كبيرة من التمر ، ولا يستعملون أية عملة بجانب الذهب الذي يستخرج من أرضهم ذاتها »*(٣٥)

وتعتبر توات مركز إنعاش لتجار القوافل ، إذ تقع في واحة غنية ، وتزود التجار بالغذاء والماء العذب ، وتوفر الكلأ لجمالهم ، كما يتم بها تغيير الجمال والادلاء ، وغالبا ما يقوم تجار السودان ، وتجار الساحل الشمالي بعرض بضاعتهم بها » .(٣٦)

٥) غدامس : كانت غدامس مركزا تجاريا هاما ، وتتفرع منها عدة طرق تجارية ، وتصل إليها القوافل القادمة من طرابلس وجنوب تونس والجزائر ،

---

* (٣٣) ابن فضل الله العمري : مخطوطة مسالك الأبصار ، الخزانة العامة بالرباط رقم D 2642 ورقة ١٩٢ .

* (٣٤) ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٧ ، ١٨

* (٣٥) Leo Africanus: The History & Description of Africa. Vol. III.P. 250

* (٣٦) Adu Boahen. A: Britain, Sahara, & West Africa P. 114

وتتجمع فيها ، وبعض هذه القوافل يسافر غربا عن طريق توات ، ومنها إلى تنبكت ، وبعضها يسافر مباشرة إلى غات وكانو ، والفرع الثالث يتجه إتجاها جنوبيا غربيا إلى مرزوق ومنها إلى بورنو*(٣٧) .

وزارها الرحالة لين Laing عام ١٨٢٥م ، ودهش بطريقة تجارها في أجواء محاسباتهم التي تتمشى مع الأساليب الحسابية الحديثة ، فقد كانوا يحسبون تكلفة البضاعة للأقطار المتعددة ، وتكلفة الضرائب ويضعون في إعتبارهم المخاطر التي تتعرض لها بضائعهم ، كما يضعون نسبة مئوية لما ستجنيه تجارتهم ، ولهم فواتير حسابية ، كما يقومون بعقد عقود شفاهية »*(٣٨) .

وعلى الرغم من أن الرحالة لين قد زار غدامس في القرن التاسع عشر إلا أن التقاليد التجارية تستمر لعدة قرون ، ونستشف من حديث لين : الوعي المبكر الذي كان يتمتع به تجار غدامس ، ولعل هذا ينطبق على كل التجار في المغرب ، فالتقاليد التجارية عرف متبادل يتعارف عليه الناس في هذه الأقاليم .

٦) مرزوق : إشتهرت مرزوق كمركز تجاري لبلاد البرنو ، غير أن بارث*(٣٩) ذكر أن لها صلة ببلاد توات ، وغدامس ، وأن صلتها بالسودان الغربي أكثر من صلتها بإقليم برنو .

وقد ظلت مرزوق كما كانت منذ القدم ، وحتى القرن الثامن عشر المركز الرئيسي لإنعاش قوافل التجارة القادمة من غدامس وطرابلس إلى بلاد الهوسا وبرنو ، والمركز الرئيسي لتجارة الرقيق في الصحراء*(٤٠) .

---

* (٣٧) Ibid, P. 113
* (٣٨) Ibid. P. 133
* (٣٩) Barth, H. Vol. I op. Cit. P. 151
* (٤٠) Ibid, p. 115

ب ــ المراكز السودانية :

١ ــ يني أو نياني : كانت عاصمة لمملكة مالي ، وتستمد المدينة أهميتها من موقعها بالقرب من مناجم الذهب ، وبزوال مملكة مالي نجد أهميتها قد انتهت ، وعند زيارة الحسن الوزان « ليو الافريقي » لها في القرن السادس عشر ، لم تكن سوى قرية تسمى مالي ، ويصفها ليو بقوله : « كانت هناك قرية كبيرة تحتوي على ستة آلاف عائلة أو أكثر وتسمى مالي ، وكانت تسمى بها المملكة كلها ، وهي مقر إقامة الملك والمنطقة تنتج كثيراً من القمح واللحم والقطن ، ويوجد كثير من الصنّاع بها ، والتجارة في جميع الأمكنة ، والملك يرحب بجميع الغرباء في كرم ، وكان السكان أثرياء . . »*(٤١)

٢ ــ تنبكت : كانت تنبكت مركزاً تجارياً غي عهد سلطنتي مالي وسنغي ، بيد أنها ازدهرت في عهد سلطنة سنغي واكتسبت أهميتها من موقعها الممتاز في منحنى النيجر ، فأصبحت أقرب محطة للقوافل التجارية القادمة من المغرب ، كما أن موقعها على النيجر جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان . *(٤٢)

وجاء ازدهار تنبكت أساساً من تجارة المرور ولا سيما تجارة الذهب والملح ، وكانت تقوم بعرض منتجات السودان لتجار المغرب ، وتستقبل في نفس الوقت تاجر المغرب ، وتقوم بتصديرها إلى مناطق السودان الداخلية .

ويبدو من وصف الحسن الوزان لمدينة تنبكت ، حين زيارته لها في أوائل القرن السادس عشر ، أن الكتب والمخطوطات كانت ترد إليها من بلاد المغرب ، وتباع بأثمان مرتفعة جداً ، تفوق أسعار السلع الأخرى *(٤٣) ، وذكر الحسن

(٤١) Leo Africanus: Op. Cit. P. 825

(٤٢) الشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ، ص ١٣٧

(٤٣) Leo Africanus: Op. Cit. Vol. IIIP. 825

* غاو ـ كاو ـ كوغه

الوزان أن بها دكاكين كثيرة لصناعة وتجارة الأقمشة التيلية والقطنية ، كما ويجلب إليها التجار المغاربة الأقمشة من أوروبا .

٣ ــ جاو * : وهي عاصمة سلطنة سنغي ، وورد ذكرها على لسان البكري ـ الجغرافي الأندلسي ـ في حوالي عام ١٠٦٧ م *(٤٤) كما ذكرها صاحب كتاب الاستبصار بقوله « وأهلها مسلمون . . . وأكثر ما يحمل إليها الملح والودع والنحاس المسبوك . . وحواليها معادن التبر ، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً . . » *(٤٥)

يتضح لنا مما سبق أن السلع التجارية الرئيسية هي الملح والودع والنحاس المسبوك ، أما الملح فكان يرد إليها من تغازة ، والودع يأتيها من الهند بواسطة التجار المغاربة ، والنحاس المسبوك من تكدا .

وتقع جاو على بعد أربعمائة ميل جنوب شرق تنبكت ، وبها تجار أثرياء ، وترد إليها الأقمشة من المغرب واوربا ، كما يوجد بالمدينة سوق للرقيق .

وفي عصر ازدهار الطرق الصحراوية بين المغرب والسودان الغربي ، كانت القوافل تصل إلى تنبكت ، ومنها تتجه إلى جاو ، غير أن ذلك تغيّر في آخر عهد مملكة سنغى بعد تدهور أحوالها ، وأصبحت الطرق الشرقية أكثر ازدهارا بسبب نمو ممالك الهوسا ، فكانت القوافل ترد إلى جاو ، ومنها إلى تنبكت .

وقت تم تأسيس جاو قبل دخول الإسلام إليها في أواخر القرن الثاني الهجري ، وقد انتشر الاسلام فيها عند تمام القرن السادس . *(٤٦)

٤ ــ جنى : كانت جنى مركزاً تجارياً هاماً ، وتأسست في القرن الثالث الهجري ،

(٤٤) Hun-Wick, J.O.: (Religion & State in the Songhay Empire) Islam in Tropical Africa, Ox-ford Press, L966, P. 139.

(٤٥) Bovill, E. W.: Op. Cit. P. 149

(٤٦) السعدي : تاريخ السودان ص ١٢ ، ومولاي أحمد بابير : جواهر الحسان في أخبار السودان « تحت الطبع » .

واشتهرت بتجارتي الملح والذهب *(٤٧) ، ويصفها السعدي بأنها سوق عظيمة ويلتقي فيها تجار الملح وتجار الذهب ، وكانت تزخر بالأموال وبالرجال *(٤٨) ، وهي ملتقى للطرق .

ويتم في مدينة جنى مبادلة الملح بالذهب ، وساعد موقعها الممتاز في منطقة محاطة بالمياه في تأمينها من غارات المعتدين ، ويشير الحسن الوزان إلى ثروتها الحيوانية والسمكية والزراعية ، ولا سيما القطن الذي يشتريه التجار المغاربة لتصديره إلى أوروبا ، مقابل أواني نحاسية وأسلحة وغيرها من السلع . *(٤٩)

وتستخدم القوارب في نقل الملح والسلع الأخرى من تنبكت إلى جنى وبالعكس ، وبذا غدت جنى صلة الوصل بين تجارة الذهب والملح .

السلع التجارية

أ ـ السلع المغربية :

١) الملح : يعتبر الملح من أهم السلع بالنسبة للسودانيين ، ولا تقل أهميته عن أهمية الذهب بالنسبة للمغاربة ، ولذلك لم يبالوا في مبادلته بالذهب وزناً بوزن .

ويؤكد بارث هذه الحقيقة عندما يتحدث عن تجارة تمبكتو ، ويذكر أن الملح

---

(٤٧) دائرة المعارف الاسلامية : مادة جنى

(٤٨) السعدي : المرجع نفسه ، ص ١١ ـ ١٢ .

(٤٩) مصطفى مسعد : (الحسن بن محمد الوزان « ليو الافريقي ») مجلة جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، العدد الأول ، ١٩٧٠ م ، ص ٥٠ .

والذهب أهم الأصناف المعروضة ، وأن الملح في بعض الأحيان كان أهم من الذهب نفسه *[٥٠]

ولم يمانع السودانيون منذ القدم في مبادلة الملح بنظيره من الذهب ، ويذكر العمري أن الملح معدوم في السودان ، وأنهم يبذلون نظير كل صبرة ملح مثلها من الذهب , *[٥١]

وتبدو أهمية الملح القصوى عند السودانيين من اتخاذه عملة شرائية ، ويذكر ابن بطوطة *[٥٢] أن السودانيين يتصارفون بالملح كما يتصارفون بالذهب ، ويقطعون الملح قطعا ويتبايعون بها .

ويعدن الملح في مدينة تغازه ، ويحمل على ظهور الجمال إلى السودان الغربي ، وعندما قام المغاربة بالسيطرة على تغازة في القرن السادس عشر ، قام السودانيون بفتح مناجم تاودين جنوب تغازه ، والتي أصبحت المورد الرئيس لأقطار وسط النيجر . *[٥٣]

وبعد وصول الملح إلى تنبكت ، يباع جزء منه بها ويحمل الجزء الباقي بالقوارب عن طريق النيجر إلى جنى ومنها يحمل على رؤوس الرجال إلى مناطق الذهب ليتم استبداله بهذا المعدن النفيس .

٢) النحاس : كان النحاس يعدن بخارج مدينة تكدا وبعد تعدينه يصب في شكل قضبان ، بعضها رفيع وبعضها سميك ، وتستخدم هذه القضبان كعملة شرائية ، فيشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم

---

(٥٠) Barth, H.: Op. Cit. Vol. III, P. 360

(٥١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، مخطوطة مصورة بالخزانة العامة بالرباط رقم D 2642 ورقة ١٩٣ .

(٥٢)

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

والذرة والسمن والقمح *(٥٤)

ويورد العمري شيئا عن معدن النحاس في رواية مستقاة من سلطان الي منسى موسى ، والتي يذكر فيها أن النحاس يبادل بالذهب وزن مثقال منه بثلثي مثقال من الذهب *(٥٥) .

وبجانب استخدام النحاس كعملة ، فقد استخدم في الزينة كما يورد لنا ياقوت الحموي في معجمه . *(٥٦)

٣) الودع : يعتبر الودع سلعة تجارية هامة ، بجانب استعماله كعملة تداولية ، وكان التجار المغاربة يجلبونه إلى السودان ، وعند احتلال الأوروبيين لسواحل أفريقية الغربية ، قاموا بجلب الودع من الهند على ظهر السفن مما شكل منافسة للتجار المغاربة في هذه السلعة الهامة . *(٥٧)

ويتخذ الودع كحلي شائعة الاستعمال في السودان الغربي بجانب استعماله كعملة ، ويؤكد لنا ذلك ابن فضل الله العمري *(٥٨)

٤) الأقمشة : كانت الأقمشة من أهم السلع التي ترد إلى السودان الغربي من المغرب ، ومن مصر وأوربا مع القوافل التجارية ، وقد ذكرها ابن بطوطة في مشاهداته . *(٥٩) كما أن السودانيين كانوا يقومون بصناعة النسيج ، ولكن الكميات التي ينسجونها لم تكن تكفي حاجة السوق المحلية .

٥) الحلى الزجاجية والعطور : وهي عبارة عن حبات تستعمل سبحاً أو عقوداً

---

(٥٤) Ajayi & Crowder: Op. P. 238

(٥٥) ابن فضل الله العمري : المصدر نفسه ، ورقة ١٩٢ .

(٥٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة تبر .

(٥٧) الشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ص ١٤٩ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ورقة ١٩٠ .

(٥٩) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، ص ٢١٠ .

للزينة ، ويشير ابن بطوطة في رحلته إلى العطور والحلى الزجاجية بقـوله : « والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا آداماً ولا دينارا ولا درهما ، إنما يحمل قـطع الملح ، وحلى الـزجاج الـذي يسميه النـاس النـظم ، وبعض السلع العطرية ، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفـل والمصطكي *(٦٠) ويقـوم التجار بشراء المواد الغذائية من نساء القرى مقابل هذه السلع » .

٦) الكتب : تعتبر الكتب من أهم أصناف التجارة في السودان الغربي، وأثمانها مرتفعة ، ويجني التجار منها فوائد عظيمة ، وكانت هذه الكتب تأتي من المشرق والمغرب ، ونشأت في السودان حرفة الوراقين ، كما قام السودانيون بتأليف بعض الكتب الهامة ، وكانت تجارة الكتب تفوق أي عمل تجاري آخر .

وقد ساعد الثراء الذي حققته مملكتا مالي وسنغى في أيام ازدهارهما من مبادلة السلع الأوروبية بالذهب الذي كانت تنتجه بلادهم بوفرة .

ب ـ السلع السودانية :

١) الذهب : ظل ذهب السودان الغربي سراً مكتوماً زهاء ألفي عـام ، بيد أن العرب كانوا يعرفون مواضعه منذ وقت بعيد ، وذكر لنا ابن حوقل ـ الذي عاش في القرن الرابع الهجري : ذهب السودان الغربي ، وكيف أن التجار المغاربة كانوا يبادلون الملح بالذهب *(٦١) .

ويصف ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي الذهب في تغازة بقوله : « وقرية تغازى على حقارتها يتعامل معها بالقناطير المقنطرة من التبر » *(٦٢) مما يؤكد لنا وفرة ذهب السودان .

---

(٦٠) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

(٦١) ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص ١٠١ .

(٦٢) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، ص ١٩١ .

كان الذهب يحمل على رؤوس الرجل من مناطق إنتاجه إى جنى ، ومنها بالقوارب إلى تنبكت ، ومن تنبكت ينقل على ظهور الجمال إلى المغرب وهناك ربما يضرب عملة للتداول المحلي ، أو يعاد تصديره إلى أوروبا وقد كانت سجلماسة المركز الرئيس في الشمال لتجارة الذهب *[٦٣] .

ويعتبر السودان الغربي منذ القرن الثامن الميلادي وحتى اكتشاف امريكا المصدر الرئيسي لتمويل العالم بالذهب[٦٤] .

ولعبت تجارة الذهب دوراً كبيراً في نمو العلاقات بين المغرب والسودان الغربي لعدة قرون ، وساعدت على ازدياد اتصال شعوبهما وانتشار الاسلام والحضارة الاسلامية في بلاد السودان الغربي ، غير أن الصراع على الذهب أدى إلى تحطيم سلطنة سنغى بواسطة السعديين في عام ١٥٩٠ م ، كما ساعد الذهب في تنشيط حركة الكشوف الجغرافية في غرب أفريقية ، وإلى استعماره فيما بعد بواسطة الأوروبيين .

٢) الرقيق : يعتبر الرقيق من السلع السودانية الهامة ، ويأتي في الدرجة الثانية بعد الذهب ، وكان يصدر إلى المغرب ومنها إلى بعض البلاد العربية وإلى أوروبا ، وبعد اكتشاف الأمريكتين زاد إقبال الأوروبيين على طلب الرقيق لاستخدامهم كأيدي عاملة في الزراعة والتعدين ونشأت بذلك تجارة رابحة ، وهكذا بدأت الحروب المحلية تكثر وتتزايد ، وبعد أن كان طابعها الطمع في قطيع من الماشية ، أصبح طابعها اقتياد قطيع من البشر ؟! *[٦٥]

ولم يقتصر استخدام الرقيق على المغرب وتركيا ومصر واسبانيا وأوروبا

---

(٦٣) Ajayi & Lan Espie: Op. Cit. P. 237

(٦٤) Mauny, R. A.: (The Question of Ghana) Africa, Journal of the Int. African Inst. London, Vol. 24, P. 200.

(٦٥) محمد عبد الفتاح ابراهيم : أفريقية ، ص ١٣٦ .

المسيحية ، بل استخدمه السودانيون كذلك ، فقد كان القادرون يملكون أعداداً ضخمة من العبيد يستخدمونهم في أعمالهم الخاصة .

٣) لقد جلبت بذرة القطن إلى السودان الغربي من شمال أفريقية ، وكان بعض الناس يقومون بغزله ، على حين اختص آخرون بنسجه ، وكان القطن يستخدم كوسيلة لشراء بضائع المغرب المجلوبة للسودان بطريقة المقايضة ، كما شهد بذلك الحسن الوزان أثناء رحلته إلى جني *(٦٦) .

٤) الفول السوداني : استعمل الفول السوداني في المبادلة بشراء الملح ، واشتهر السودان بانتاج الفول وتخصصه فيه ، حتى سميّ باسمه ، وهو يزرع في السودان الكبير كله .

٥) الكولا : كان السودان يصدر الكولا للصحراء والمغرب وتعتبر الكولا من المنتجات الرئيسة للسودان الغربي ، وكانت حبوب الكولا* احدى ثلاث سلع تجارية ، اعتادت اختراق الأقليم الشمالي الغربي من أفريقية ومن غانة إلى شواطىء البحر المتوسط *(٦٧)

٦) العاج : يعتبر العاج من الصادرات الهامة للسودان الغربي ويذكر بوفيل أن بعض التجار كانوا يقيمون في والاتا لجمع العاج الذي يرد من السودان الغربي ، ويصدرونه إلى المغرب *(٦٨) ومنه إلى أوروبا في الغالب .

---

(٦٦) Leo Africanus: Op. Cit. Vol. III, P. 805, 844

* حبوب الكولا : يطلق عليها أهل السودان الغربي (الجورو) ويأكلونها باستمرار .

(٦٧) Murdock, G.: Africa: Its People & their Culture History. P. 129

(٦٨) Bovill, E. W.: Op. Cit. P. 105

أساليب التعامل

بدأت أساليب التعامل في التجارة بين المغرب والسودان الغربي بالمبادلة والتجارة الصامتة ، وقد ذكرها هيرودوت والجغرافيون العرب من بعده ، وبعد نهاية التجارة الصامتة ظلت المبادلة قائمة *(٦٩) حتى عهد سلطنتي مالي وسنغى .

وكان الملح يبادل بالذهب وزنا بوزن في عهد مملكة غانة وسلطنة مالي ، وعندما يقل ورود التجار كانت المبادلة تتم بوزن من الملح مقابل وزنين من الذهب حسب رواية الغرناطي *(٧٠)

واستخدم الودع كوسيلة شرائية *(٧١) ، وكان الودع يجلب من المحيط الهندي على أيدي التجار المغاربة والمصريين ، وبعد احتلال الأوروبيين لسواحل أفريقيا الغربية عملوا على جلب الودع عن طريق الساحل ، فنافسوا التجار المغاربة مما أدى إلى وفرته وبالتالي انخفض سعره ، ويذكر ليو الأفريقي أن أربعمائة ودعة تعادل أوقية من الذهب *(٧٢) وظل الودع عملةمعترفاًبها حتى القرن التاسع عشر عند زيارة الرحالة بارث للسودان الغربي *(٧٣) .

واستخدمت قطع القماش القطنية (الشكيات) ، كما اسخدم الذرة أو حلق النحاس كأسلوب من أساليب التعامل كما يؤكد لنا البكري في القرن الحادي عشر الميلادي *(٧٤)

---

(٦٩) Adu Boahen, A: Britain, Sahara & Western Sudan P. 130

(٧٠) محمد عبد الرحيم الغرناطي : تحفة الألباب ، صفحات ٤١ ـ ٤٢ .

(٧١) ابن فضل الله العمري : المصدر نفسه ، ورقة ١٩٠ .

(٧٢) ليو الأفريقي : المصدر نفسه صفحات ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٧٣) Barth, H: Op. cit. Vol. III P. 292

(٧٤) أبو عبيدة البكري : المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .

وكان الملح يقطع قطعا صغيرة ويتصارف به أهل السودان ، كما يتصارفون بالذهب حسب رواية ابن بطوطة *(٧٥)

ويستخدم الذهب ـ دونما طابع عليه أو كتابة ـ كعملة شرائية في السودان الغربي والمغرب معاً حسب رواية الحسن الوزان *(٧٦)

واستخدمت الصكوك كوسيلة من وسائل التعامل في تجارة المغرب والسودان الغربي ، ويشير ابن حوقل إلى صك من الصكوك قيمته ٤٢٠٠٠ دينار شاهده بنفسه *(٧٧) .

الأسعار

كانت الأسعار تتغير من وقت لآخر حسب ظروف العرض والطلب ، فبينما كان سعر الذهب يعادل وزنه ملحاً في عهد مملكتي غانه ومالي ، نجد أنه في عهد مملكة سنغي انخفض هذا السعر لوفرة الملح ولسيطرة مملكة سنغي على مناجمه .

أما أسعار الرقيق فقد كانت أكثر اضطراباً ، فقد اشترى ابن بطوطة جارية بخمسة وعشرين ديناراً في منتصف القرن الرابع عشر ، وقال أن ثمنها مرتفع جداً ، وذكر مالفانت أنه في القرن الخامس عشر كان سعر العبد في توات في المتوسط يساوي أوقيتين ذهب *(٧٨) .

أماالخيول فقد كانت أغلى السلع ، وكانت تبادل بالعبيد في أغلب الأحيان ،

---

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

(٧٦) مالفانت (لادو نسيير) باريس ١٩٢٥ م ج ١ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ ، اقتبس عبد القادر زيادية في كتابه (مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين) ص ٢٠٢ .

(٧٧) عبد القادر زبادية : المرجع نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٧٨) المرجع السابق : ص ٢٠٤ .

أما أثمانها بالذهب فقد كانت تساوي أربعين مثقالاً ، وقد تصل إلى المائة *[79] .

وقد تراوحت أسعار الجمال بين أربعة وسبعة مثاقيل وتراوحت أسعار الأبقار بين مثقالين ونصف وثلاثة مثاقيل ونصف . *[80]

وقد ذكر صاحب الفناش أنه في عام ١٥٩٤ م كان التمر يباع في تنبكت كل عشر تمرات من تمر بسكره بخمس ودعات *[81]

أما القمح فكان يباع في تكدا في أواخر القرن الرابع عشر كل عشرين مدا بأوقية ذهب ، وكذلك كان سعر كل من الزبيب والفواكه المجففة *[82]

وكانت أسعار السيوف تتراوح بين ثلاث وأربع أوقيات في عهد سلطنة سنغي ، على حين كان ثمنها في بلدان المغرب لا يتجاوز ثلث الأوقية الواحدة *[83]

المقاييس والمكاييل والموازين

١ ـ المقاييس :

أ) الشبر : ويساوي الامتداد بين الخنصر والابهام حين تكون الكف مبسوطة ، وقد قدره موني *[84] بـ ٢١,٥ سم تقريبا .

ب) الذراع : وهو الامتداد بين عقد المرفق ونهاية الوسطى ، ويساوي

---

(٧٩) نقولا زيادة : المرجع نفسه صفحات ٥٤ ـ ٥٧ .

(٨٠) عبد القادر زيادية : المرجع نفسه ص ٢٠٤ .

(٨١) محمود كعت : المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

(٨٢) عبد القادر زيادية : المرجع نفسه ، ص ٢٦٣ .

(٨٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

(٨٤) موني : كشف جغرافي ، ص ٤١٢ ، نقلاً عن زيادية : المرجع نفسه ص ١٩٨ .

حوالي ٥٠ سم تقريباً ، وكان الذراع والشبر يستعملان لقياس الأقمشة والحيطان والحقول .

جـ) الميل : ويستعمل في قياس المسافات .

د) الفرسخ : وتقاس به المسافات الطويلة ويساوي ثلاثة أميال .

هـ) البريد : كان يساوي المسافة التي تعادل سير ساعة بالحصان المسرع .

وقد ذكرت هذه المقاييس في كتابات السعدى ومحمود كعت وأحمد بابا .

٢ ــ المكاييل :

أ) المد : وكان يساوي ملء الكفين ، وقدره مونى بما يعادل ٠,٧٥ س ل بالتقريب . *(٨٥)

ب) الصاع : وهو يساوي أربعة أضعاف المد ، أي ما يعادل ثلاثة لترات تقريبا .

جـ) القنطار : وقد قدر بدائرة المعارف الاسلامية بمائة رطل *(٨٦) .

د) المودى : وهو يساوي ما يحمله الرجل من حبوب أو غيرها في كيس كان يتخذ من الجلد .

٣ ــ الموازين :

أ) المثقال : وكان يساوي وزن ٧٢ حبة من حبات القمح المتوسطة الحجم ، ويقدر الوزن الكامل للمثقال بحوالي أربعة جرامات *(٨٧)

ب) الدرهم : وهو يساوي سبعة أعشار الدينار .

جـ) الدينار : وهو يساوي أربعين درهما .

---

(٨٥) مونى : كشف جغرافي ، ص ٤١٢ ، اقتبسه زيادية : المرجع نفسه ص ٢٠١ .

(٨٦) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة قنطار .

(٨٧) أنظر عبد القادر زيادية المرجع نفسه ، صفحات ١٩٨ ـ ٢٠١ .

د) الأوقية : وهي تساوي ٢٧,٥ جراما .

وكانت المعايير المستعملة إما من النحاس أو الحجر أو الرصاص أو الزجاج ، وقد وجدت عينات منها في جاو *(٨٨)

الآثار الحضارية للتجارة بين المغرب والسودان الغربي

أ) انتشار الاسلام في السودان الغربي :

قام المرابطون بنشر الاسلام في مملكة غانة في القرن الخامس الهجري وعلى أيديهم سقطت هذه الدولة ، ودخل عبد الله بن ياسين زعيمهم ، عاصمتها أودغشت وحالفه التكرور في هذا الجهاد بعد أن حسن إسلامهم *(٨٩) .

وعلى يد أبي بكر بن عمر ـ الأمير الشرعي للمرابطين ـ سقطت غانة نهائية ، وتمكن من ضمها إلى دولة المرابطين بعد جهاد دام خمسة عشر سنة ، واستشهد أبو بكر بن عمر في أرض المعركة *(٩٠)

وبعد الاستيلاء على غانة انفسح المجال أمام الطوارق لمزيد من الهجرات والاندفاعات صوب الجنوب ، وتركت هذه الحركات أثراً عظيماً في انتشار الاسلام بين أهل البلاد الأصليين ، وهكذا أسلم في عصر سيادة المرابطين السنغى والماندى والتكرور والسريد والحوصا وغيرهم *(٩١)

---

(٨٨) مونى : المرجع نفسه ، اقتبسه زيادية : المرجع نفسه ص ٢٠١ .

(٨٩) حسن أحمد محمود : (المرحلة الأفريقية في تاريخ المرابطين) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ صفحات ١١١ ـ ١١٨ .

(٩٠) المرجع السابق صفحات ١١١ ـ ١١٨ .

(٩١) المرجع السابق ، صفحات ١١١ ـ ١١٨ .

ب) دور التجار في نشر الاسلام والحضارة الاسلامية :

كان التجار يترددون على المراكز التجارية في السودان الغربي ، وعند قيامهم بعرض متاجرهم ـ أثناء إقامتهم بهذه المراكز ـ كانوا يحتكون بالسودانيين ، ونتيجة لهذا الاحتكاك انتشر الاسلام ، وتأثر بهم السودانيون وأخذوا عنهم أسلوب حياتهم ، وتأثرو بثقافتهم الاسلامية .

وكانت القوافل التجارية تحمل معها إلى السودان عدة آلاف من البشر سنوياً ، مما جعل أثر تجارة القوافل في السودان الغربي ملموساً . وقام التجار بتعميق العلاقات الثقافية ، فأنشأوا المدارس لتعليم القرآن ، وأقاموا المساجد ، وإلى جانب مزاولتهم للنشاط الاقتصادي ، فإنهم مارسوا نشاطاً تعليمياً كذلك *(٩٢)

فالتاجر سواءا كان من العرب أو من البول (Pul) أم من الماندجو ، يجمع بين الدعوة وبيع سلعته ، وإن مهمته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الاسلام ، وتنفي عنه كلما يحتمل أن يتهم به من دوافع شريرة ، وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه ، وانتظام أوقات صلاته وعبادته ، التي يبدو فيها كأنه يخاطب كائنا خفيفا ، وإن ما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين ، الذين يبدي لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في إمدادهم بمزاياه ومعارفه السامية ، ومن ثم انتشر الاسلام في غرب أفريقية على الأخص حول الطرق الرئيسية التي تخترق البلاد *(٩٣) مما يؤكد الدور الكبير الذي قامت به تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي .

وبجانب نشرهم للاسلام ، قام التجار بنشر اللغة العربية فهي لغة القرآن ،

(٩٢) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقية ، ص ٥٧ .

(٩٣) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة صفحات ٣٣ ، ٤٣ ، ٤٤ .

ولكي يتعلم الداخل في الاسلام العبادات لا بد له من تعلم اللغة العربية ، كما أن التجار كانوا يستعملون اللغة العربية في معاملاتهم مع الأهالي ، فانتقلت نتيجة لذلك أسماء الأوزان والمقاييس والمكاييل إلى اللغات المحلية *(٩٤) .

واختلط التجار بالأهالي في السودان الغربي ، فتزوجوا منهم ، وخلفوا بذلك أسراً إسلامية ، كما ازداد احتكاكهم بالمجتمعات السودانية وكان هذا الإختلاط والتزاوج من أهم عوامل نجاح إنتشار الاسلام ، وبه تفوق المسلمون بنشر دينهم الاسلامي على النصارى الذين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالمجتمعات الزنجية .

جـ) نظم الحكم :

لقد تم الامتزاج الكامل بين التقاليد الاسلامية الوافدة من المغرب ، وبين التقاليد الزنجية المحلية ، وتمت الملائمة بين هذين العنصرين ، وظهرت تقاليد إسلامية أفريقية .

تتضح هذه الحقيقة من دراسة ما رواه الرحالة والجغرافيون الذين زاروا السودان الغربي مثل : ابن بطوطة ، أو ما ذكره القلقشندي الذي عرض لنماذج من الحياة ، ولصور من نظم الحكم اقتبسها من الكتاب الذين سبقوه ، أو من أهل تلك البلاد الذين عاصروه .

وتظهر لنا هذه الصور من إشارات كثيرة وردت في ما كتبه مؤرخون سودانيون مثل : السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان أو محمود كعت صاحب كتاب الفتاش . هذه الروايات المتعلقة بنظم الحكم ، وبعض أوجه الحياة الاجتماعية ، تشعرك كأنك في مجتمع أفريقي صميم اكتسب الصفة الاسلامية ، وهذه طبيعة الاسلام في أي بلد حل فيه .

---

(٩٤) الشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ، ص ١٨٨ .

فالقلقشندي يتحدث عن تقاليد البلاط في سلطنة ملي ، فيعطينا صورة أفريقية خالصة ، وابن بطوطة يؤكد في وصفه ما ذكره القلقشندي .

ونلمح من رواية السعدي عن سلاطين سنغى وحياتهم ، مواكبهم ، وعاداتهم ، واحتفالاتهم واحترام الناس لهم ما يوحي بأن ما رواه ابن بطوطة عن أهل ملي شاع عند أهل سنغى ، وعند غيرهم من شعوب غرب أفريقية *(٩٥)

ومع هذا كله تحس من حياة الملوك والرعية : أن هناك ثمة مظاهر إسلامية صرفة أو عربية خالصة .

كذلك تلمحُ في هذا المجتمع الطابع المعروف عند المتبعين لمذهب الإمام مالك من التزمت والشدة في الدين وتمسك الفقهاء بالتقاليد وعزوفهم عن مصاحبة السلطان وتولي الوظائف ، ثم تغلغلهم في صميم الحياة وتمتعهم بالزعامة الدينية الشعبية ، نفس الصورة التي نلحظها في المغرب الإسلامي *(٩٦) .

ثم تقدير السلاطين لهؤلاء الفقهاء واحترامهم ، يزورونهم في بيوتهم ويستفتونهم ، ويأتمرون بأمرهم ، وجرت العادة على أن من يلجأ إلى المسجد أو دار الفقيه أو الخطيب أمن من العقاب ، ولم يجرؤ أحد على التعرض له بسوء *(٩٧)

ويتشبه أهل السودان الغربي في لباسهم بأهل المغرب يرتدون عمائم بحنك مثل المغرب ، وملبسهم شبيه بلبس المغاربة . . جباب ودارريع بلا تفريج ، وهم في ركوبهم كأنهم العرب *(٩٨) .

---

(٩٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٢٨٣ .
(٩٦) حسن أحمد محمود : « دور العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقية » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٤ عام ١٩٦٨ م . صفحات ٤٥ ـ ١٠٨ .
(٩٧)
(٩٨) القلقشندي : المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٩٨ .

د) الدعاة والمعلمون :

المعروف أن دولة المرابطين اعتمدت في قيامها على فقيه مالكي هو عبد الله ابن ياسين، ومن ثم احتل الفقهاء عموماً مركزاً مرموقاً في الدولة ، وقام أولئك الفقهاء ـ الذين يغمرهم الحماس ـ بدور بارز في نشر الإسلام والثقافة الاسلامية في السودان الغربي .

وقد استقبل الدعاة أينما ساروا استقبالاً طيبا ، وحظوا بنصيب وافر من التقدير والاحترام ، وأقاموا في دور الضيافة التي أقامتها القبائل في قرى غرب أفريقية ، وكانوا يعاملون بكل مظاهر الاحترام *(٩٩)

لقد تخرج هؤلاء الدعاة في مدارس القيروان ، وفاس ، وطرابلس ، والقاهرة ، وبعد إكمال دراساتهم ، أصبحوا دعاة بين أهالي بلادهم الأصلية ، وكان تأثيرهم كبيراً في بلادهم ، وقد سبق أن مهد لهم التجار الطريق ، فلا يرتاب فيهم الأهالي ، وهكذا يقومون بنشر الثقافة الإسلامية .

ولقد نجح الإسلام في الانتشار في السودان الغربي نجاحاً محلوظاً ، لأن الداعي المسلم كان يعمل بمبدأ التآخي والمساواة مع المسلمين الجدد ، ولم يكن يتعصب للونه ولا لجنسه ، وقد نجح الإسلام في الانتشار لأنه لم يكن هناك إحساس باحتقار الأسود أو بإشعاره أنه من طبقة دنيا كما كان الحال بالنسبة لأساليب المبشرين المسيحيين .

كان كل مسلم تقريبا يقوم بدور الداعية لدينه ، فلم تكن هناك طبقة رجال الدين كما كان الحال في العالم المسيحي ، بل المسلمون يقومون في بعض الأحيان بشراء الرقيق ثم عتقهم وإعادتهم إلى أوطانهم لكي يقوموا بنشر الإسلام بينهم *(١٠٠)

---

(٩٩) حسن ابراهيم حسن : المرجع نفسه ، ص ٤٣ .

(١٠٠) حسن ابراهيم حسن : المرجع نفسه ص ١٦ .

هـ) المراكز الثقافية :

١) المراكز المغربية :

أ) فاس : تأسست مدينة فاس عام ٧٢٦ م (١٩٢ هـ) وقد أسسها الأدارسة ، وتأسست جامعة القرويين بفاس عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، ولم تلبث حتى ذاعت شهرتها وأمست من أقدم جامعات العالم ، وقصدها طلاب العلم من المغرب والأندلس وأفريقية لتلقي علوم التفسير والحديث والفقه والأصول ، وعلم الآله والفلك والطب والهندسة ، وعلوم العربية من لغة وشعر وأدب . *(١٠١)

ولما اضمحلت مدينتا القيروان وقرطبة ، استقبلت مدينة فاس الفارين من علمائها وغيرهم ، ففي خلال الحروب التنصيرية في الأندلس ، هاجرت ثمانية آلاف أسرة من مسلمي الأندلس إلى مدينة فاس .

وأخذت مدينة فاس تفقد أهميتها مع الزمن غير أن مكتبتها ظلت تحوي ٣٦,٠٠٠ مجلد في جميع أنواع المعارف كما يشهد بذلك (ERPENIUS) التي زارها في عام ١٦١٣م*(١٠٢).

٢) مراكش : كانت مدينة مراكش مركزاً من مراكز العلم المشهورة في المغرب الأقصى ، وقد قصدها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الاسلامي عامة ، والسودان الغربي خاصة .

ولما نفي علماء مملكة سنغى إلى المغرب الأقصى ، نزلوا مراكش ، وقاموا بالتدريس بها ، وكان من أبرز علماء سنغى : الفقيه أحمد بابا التنبكتي ، فكانت حلقة الدرس التي يعقدها بجامع الشرفاء بمراكش من أكبر الحلقات ، وتتلمذ على يديه قضاة المغرب وعلماؤها ، ناهيك عن طلابها ويمكن القول أن مراكش

---

(١٠١) محمد المنتصر الكتاني : فاس عاصمة الأدارسة ورسائل خرى ص ٤٩ .

(١٠٢) Budgett Meakin: The Land of the Moors, P. 243

أصبحت بوتقة للعلم اختلط فيها علماء المغرب بعلماء السودان الغربي وانتجوا لنا ثقافة وعلماً مشتركاً أخذ يشع على المغرب والسودان الغربي في آن معـاً *(١٠٣)

ب) المراكز السودانية :

١) تنبكت : تأسست مدينة تنبكت على نهر النيجـر عام ١١٠٠ م ، وكـانت تنبكت مدينة إسلامية منذ نشأتها « ما دنستها عبادة الأوثان . وما سجد على أديمها قط لغير الرحمن » .

قامت تنبكت بدور ثقافي بارز في السـودان الغربي وارتبط تـاريخ الثقـافة الاسلامية في السودان الغربي بهذه المدينة ، بدأت يـوم ولدت المـدينة ، واشتـد ساعدها باتساع أفق المدينة وتطورها .

كانت تنبكت بحق مركز الحياة الثقافية ، وقلب الحركة الفكرية النابض ، اجتمع فيها العلماء من كل جنس ولون : المغاربة ، الأندلسيون ، المصـريون ، الحجازيون ، ووفد إليها الناس من كافة بقاع غرب أفريقية من السنغال والنيجر ، ومن أمارات الحوصا ، وبرنو وكاثم والسودان *(١٠٤)

وأقـامت كل هذه الـطوائف بتنبكت ، وتعلم بهـا العـديـد من الفقهـاء والعلماء ، وألفت بها العديد من المؤلفات وكان جامعها الشهير ـ جامع سنكري ـ يشبه من وجوه كثيرة ، الجامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية . *(١٠٥)

وأصبحت تنبك سوقا نافعة يؤمها التجار ، ولم يلبث العلماء أن اقتفوا أثر التجار ، فكانوا يفدون إليها من مصر ، ودامس ، وفاس ، والسوس وغيرها ،

---

(١٠٣) الشيخ الأمين عوض الله : المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .
(١٠٤) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في أفريقية ، ص ٢٧٠ .
(١٠٥) حسن أحمد حمود : المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧١ .

واتصلت تنبكت ـ عاصمة السودان الغربي ـ بالقاهرة ، ورحل علماؤها إلى الأزهر ، وكانت لهم صلة بإمام مصر جلال الدين السيوطي *[١٠٦] وأمست مكانة تنبكت من الناحية الثقافية ـ لا تقل عن مكانة القيروان في أفريقية أو فاس في المغرب الأقصى ، أو قرطبة في الأندلس أو القاهرة في مصر . *[١٠٧]

لقد قامت بين تنبكت وبين جامعات المغرب الاسلامي علاقات وثيقة إذ تدين تنبكت في ثقافتها وحضارتها إلى المغرب ، فكانت على اتصال وثيق غير منقطع بمراكش ، وتونس ، والجزائر ، وغادمس ، وطرابلس . كان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تنبكت ، كما كان علماء تنبكت كثيراً ما يقيمون بفاس أو مراكش يعملون ويتعلمون *[١٠٨]

وظلت تنبكت منارة للعمل زهاء قرنين من الزمان : من القرن الرابع عشر إلى بداية القرن السابع عشر .

٢) جنى : وهي من المراكز الاسلامية الهامة في السودان الغربي ، وتمتعت جنى بموقع استراتيجي ممتاز وسط المياه ، ما جنبها تسلط (الفاتحين) ، كما أتاح لها هذا الموقع ازدهاراً ونمواً مطردا .

ويتضح لنا من رواية السعدي أنه تم تأسيس مدينة جنى في القرن الثاني من الهجرة وأن أهلها أسلموا بتمام القرن السادس الهجري بتأثير من التجار والعلماء المسلمين الذين كانوا يفدون إليها بكثرة *[١٠٩] .

وزخرت مدينة جنى بالعلماء ، وانتقلوا إليها من بلاد المغرب ومن تنبكت ،

---

(١٠٦) عبد الرحمن السعدي : المصدر السابق نفسه ، ص ٣٢ .

(١٠٧) حسن أحمد محمود : المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .

(١٠٨) عبد الرحمن السعدي : المصدر نفسه ، صفحات ٣٩ ـ ٦١ .

(١٠٩) السعدي : المصدر نفسه ، صفحات ١١ ـ ١٢ .

وكان العلماء يدرسون في مساجدها من منتصف الليل إلى صلاة الفجر *[110] .

كانت جنى تحتل المرتبة الثانية في الميدان الثقافي بعد تنبكت ، وحظيت المدينة باحترام سلاطين سنغى ، فكلما مر جيشهم بها فإنهم كانوا يلاقون قاضيها ويقدمون لـه الهدايـا أو يساعـدونـه عـلى بنـاء مـأوى لـطلاب العلم أو بنـاء مسجـد من المساجد *[111] .

---

(١١٠) السعدي : المصدر نفسه ، ص ١٣ .

(١١١) المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

المصادر المراجع

/ المخطوطات :

١) ابن فضل الله العمري : « مسالك الابصار في ممالك الأمصار » مخطوطة مصورة بالخزانة العامة بالرباط رقم ٦٤٢ .

٢) محمد بن الاعرج السليماني : « زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ » ، مخطوطة مصورة بالخزانة العامة بالرباط ج ١ رقم د ٣٦٥٧ .

ب / المصادر :

١) ابن بطوطة : ١ / رحلة ابن بطوطة : المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٦٤م .

٢ / رحلة ابن بطوطة : دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦٤ .

٢) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ، القسم الاول ، الطبعة الثانية ، طبعة بريل ، مدينة ليدن ١٩٣٨م

٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩م .

٤) ابو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، مكتبة المثنى بغداد .

٥) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ١٣٣٩هـ .

٦) دائرة المعارف الاسلامية .

٧) السعدى (عبد الرحمن) : تاريخ السودان ، نشر هوداس وتلميذه بنوه ، طبعة باريس ١٩٦٤م .
٨) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مكتبة خياط ، بيروت ـ لبنان ، بدون تاريخ .
٩) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، طبعة جولى ١٩٤٩م .
١٠) عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفاء في اخبار ملوك الشرفاء ، تحقيق عبد الله جنون ، نشر جامعة محمد الخامس بالرباط ، طبعة المطبعة المهدية بتطوان ١٩٦٤م .
١١) محمود كعت التنبكتي : تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس ، نشر هوداس وتلميذه بنوه ، طبعة باريس ١٩٦٤م .
١٢) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
١٣) الغرناطي (محمد بن عبد الرحيم) : تحفة الالباب ، الجمعية الاسيوية ، يوليو سبتمبر ١٩٢٥م .
١٤) الناصري : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، نشر دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٥٥م .
١٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ـ بيروت ١٩٥٦م

جـ / المراجع :

١) باسيل ديفيدسون : افريقيا القديمة تكتشف من جديد ، ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول ، الدار القومية للطباعة والنشر ،
٢) توماس ارنولد : الدعوة إلى الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٧ م .

٣) حسن ابراهيم حسن : إنتشار الاسلام والعروبة .

٤) حسن أحمد محمود : أ/ قيام دولة المرابطين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ م .

ب/ الاسلام والثقافة العربية في افريقية القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٣ م .

٥) زامباور / معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ج١ ، إخراج زكي محمد حسن ، وحسن أحمد محمود ، مطبعة فؤاد الأول ، ١٩٥١م .

٦) الشيخ الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، نشر دار المجمع العلمي بجده ١٩٧٩م .

٧) عبدالقادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ، بدون تاريخ .

٨) محمد عبدالفتاح ابراهيم : افريقية ، نشر دار الطباعة الحديثة .

٩) محمد المنتصر الكتاني : فاس عاصمة الادارسة ورسائل اخرى ، دار ادريس للترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .

د) المراجع الأوربية :

1. Abu Boohen, A: Britain, The Sahara & Western Sudan (1788-1861) Clarendon Press 1964.

2. Ajayi & Lan Espie: A Thousand years of West African History, Ibadan Univ. Press 1965. (West African Trade A.A. 1000-1800) by Christopher Fyfe.

3. Ajaya & Crowder: History of West Africa, Vol. 1 (The Early states of Western Sudan), by Levtzion, N.

4. Barth, H., Travels & Discoveries in North & Central Africa, Vol. I, II, III, Frank Cass & Co. Ltd. 1965.

5. Budget Meakin: The Land of the Moors, New York: The Mac. Comp. 1901.

6. Bovill, E, W.: The Golden Trade of the Moors, Oxford Univ. Press, 1968.

7. Fage, J.D.: An Introduction to the History of West Africa, Cambridge Univ. Press 1959.

8. Hunwick, J.O.: (Religion & State) in the songhay Empire Islam in Tropical Africa, Oxford Univ. Press 1966.

9. Leo Africanus: The History & Description of Africa, Vol.I, II, III, Done into English by John Pory, Edited by Robert Brown, London.

هـ / الدوريات والرسائل :

١) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥م (المرحلة الافريقية في تاريخ المرابطين) د. حسن أحمد محمود ، صفحات ١١١ ـ ١١٨

٢) مجلة جامعة ام درمان الاسلامية ، العدد الأول ١٣٨٨هـ ، (الاسلام وحركات الفولان الإصلاحية في غرب أفريقية) ، د. مصطفى محمد مسعد ، صفحات ١٢١ ـ ١٥٠ .

٣) مجلة جامعة القاهرة فرع الخرطوم الأمريكية ، بيروت ١٩٦٧م (المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي) ، نقولا زيادة ، صفحات ٢٩ ـ ٩٤

٤) كتاب العيد/ الجامعة الاميركية/ بيروت ١٩٦٧ (المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي) نقولا زيادة/ صفحات ٢٩ ـ ٩٤ .

٥) حسن علي : دولة الادارسة ، رسالة ماجستير بدار العلوم بالقاهرة .

٦) Africa: Journal of the International Afr. Inst. London, Vol. 24, 1954 (The Question of Ghana) Mauny, R.A.

"طريق درب الأربعين"
بين سلطنة دارفور الاسلامية
ومصر العثمانية ودوره الحضاري

د. أحمد ابراهيم دياب
أستاذ التاريخ المشارك بجامعة أم درمان الاسلامية
والخبير في معهد البحوث والدراسات العربية

مقــــدمة :

كثيرا ما كنا نسمع عبارات لم تزل تتردد في شيء من الخفوت « ان أفريقيا قارة لا تاريخ لها ، وأن الافريقيين لم يشاركوا بنصيب في التراث الحضاري بشكل عام »[1] . وهذه العبارات لا تخلو من الغرض المستتر ، والذي تفضحه مزاعم كيبلنج بأن الرجل الاسود عبء على الرجل الأبيض ، وأن الغرب غرب والشرق شرق وهما لا يلتقيان[2] . ومثل هذه العبارات التي لم تخدم سوى فكرة تفوق الرجل الأبيض ، وضرورة فرض مفاهيمه ومعتقداته وأساليب حياته على سواه من الشعوب . . . . هذا ما قام به البيض فعلاً تجاه شعوب العالم الأخرى عامة ونحو الشعب الأفريقي خاصة في مطلع القرن الماضي . . وهذا ما حاولوا أن يغرسوه ويعمقوه في نفوس الأفارقه ، بشتى السبل ، من خديعه ومكر وتزييف للحقائق ،

---

١) دنيس وليم : الحضارات الافريقية ص ٥ ـ ترجمة الدار القومية للنشر ـ القاهرة .
٢ ـ أحمد سويلم العمري :ـ التفرقة العنصرية ص ٢٤ ـ دار الثقافة والارشاد القومي ـ القاهرة ١٩٦٤

وتشويه للتاريخ الأفريقي الذي عانى الواناً من التحامل الواضح ، وصنوفاً من التعاطف الأجوف البعيد عن الروح العلمية .

وعلى الضمائر الحرة وحدها يقع عبء تقويم ذلك الأعوجاج بإجراء دراسات علمية موضوعية هدفها الحقيقة العلمية المجردة . . . والشباب الأفريقي مطالب بالمبادرة بالبحث ، وبتسليط الضوء على الجيد والموضوعي مما تم نشره من البحوث بمختلف اللغات في هذا المجال .

وفي الصفحات التالية محاولة أرجو لها التوفيق ، فطرق تجارة القوافل هي المضمون الذي تحويه هذه الدارسة ، ولكن لمعالجة هذا المضمون في المجال المختار ، وهو « درب الأربعين » كطريق تجاري للقوافل ، لابد لنا من وقفة قصيرة نحاول أن نلم فيها إلمامه سريعة بالمجد الأفريقي التليد ، هذا المجد المتمثل في التنظيمات والمجتمعات والممالك والحضارة الافريقية الضاربة جذورها في العمق التاريخي والأصالة الحقة ، لنخلص من ثم إلى المؤثرات التي عاقت نمو هذه الحضارة ، فذبلت وأمحت ، ووقعت أرضها فريسة للاستعمار الأوربي الذي أستنزف ما شاء له ان يستنزف من مواردها البكر ، حتى هب العملاق الأفريقي مجاهدا مناضلا من أجل حريته فتحقق له معظم ما أراد ، وهو لا يزال يكافح من أجل تحقيق كل ما يريد ونضاله في هذه المرحلة ذو طبيعة مزدوجة ، فهو يسعى إلى تحرير آخر شبر من أفريقيا وفي نفس الوقت يسعى إلى توحيد أهداف الشعب الأفريقي ومشاعره وآماله وقد حقق من ذلك الشيء الكثير ويرتجى منه أن يحقق الكثير في المستقبل .

وإذا كان الأمر كذلك فجدير بنا أن نتساءل كما فعل بازل دفيدسون من قبل ، لماذا وجد الأوربيون منذ مائة عام ـ أفريقيا ـ قارة بدائية متوحشة بينما كان بناؤها الحضاري بناءً متيناً ، فلماذا انهار ذلك البناء واختفى ؟ ولماذا توقف نمو هذا البناء الحضاري ؟[٣] .

---

٣ ـ باسيل ديفيدس : أفريقيا القديمة تكتشف من جديد هي ١٢٠ (مترجم)

قبل أن نجيب على هذا السؤال لابد أن نقر بأن حالة أفريقيا البدائية تلك هي حالة نسبية وإنها ظاهرة إجتماعية لا عرقية . . . فالعقل الأفريقي الذي أهتدى إلى صهر الحديد قبل أن يهتدي إليه الأوربيون ، كما يشهد بذلك علماء الغرب أنفسهم[٤] . كان في وسعه أن يهتدي إلى صناعة البخار والكهرباء وغيرها . . لولا ظروف بعينها حالت بينه وبين ذلك[٥] ، أهمها إنعزال أفريقيا عن التيارات الحضارية الحديثة والذي لعبت فيه الحروب التي اجج نارها الأوربيون بين أبناء القارة الواحدة دورا أساسيا وذلك بتسخير وتسليط الأقوياء منهم لأقتناص الضعاف من بني جلدتهم لاسترقاقهم والاتجار فيهم : كان ذلك سببا آخر من أسباب تزعزع المجتمعات الافريقية وبالتالي سببا في انهيار البناء الحضاري .

ثم جاء بعد ذلك التكالب الأوربي المحموم عقب مؤتمر برلين ليمزق أوصال الكيان الافريقي، فكانت تلك المزاعم الواهية والادعاءات المغرضة بأن أفريقيا قارة بلا تاريخ لتتولى أوربا الوصاية عليها ، وما شعار إدخال الحضارة في أفريقيا إلا ترجمة عملية لتلك الوصاية فكان الاستعمار الأوربي بمراحله الثلاث .

سلطنة دارفور الاسلامية :

شهد القرن السابع عشر الميلادي قيام سلطنة إسلامية في أقليم دارفور عرفت باسم سلطنة دار فور . وقد احتلت هذه السلطنة مكانا مرموقا بين الممالك الاسلامية في بلاد السودان الغربي والاوسط والشرقي . أي في المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقا حتى المحيط الاطلسي غربا وبين الصحراء الكبرى في الشمال والغابات الاستوائية في الجنوب ، وكانت تشمل سلطنات وممالك الفونج وكردفان ونقلي ودارفور ووداي وباجرمى والكانم أو برنو وممالك الهوسا ومالي وسنغاي والتكرور .

---

٤ ــ مجلة الخرطوم : عدد أكتوبر ١٩٦٥ ص ٤١ ـ ٤٦

٥ ــ دنيس وليم : المرجع السابق ص ٧ـ٨

أما صفات الاقليم الجغرافية الذي قامت فيه سلطنة دارفور فهي في الشمال عند الصحراء الليبية التي تمتد إلى البحر المتوسط في مساحات غير ذات ماء أو زرع تمثل حاجزا منيعا لأمتداد سلطنة الفور شمالا ماعدا بعض الواحات التي أستطاع الفور الوصول إليها وبسط نفوذهم عليها في بعض الاحايين لحماية القوافل التجارية . أما في جنوبي دارفور فهناك حاجز من نوع آخر وهو بحر العرب حيث منطقة تقسيم المياه وهذه المنطقة منعت الفور من الأنتشار جنوبا لاسباب صحية ، أما من الناحية الشرقية ففيها سلسلة عريضة من التلال الرملية التي تسمى محليا بالقوز « وجمعها اقواز أو قيزان » مما جعلها حاجزا بينها وبين جارتها كردفان . أما الجهة الغربية من السلطنة فهي مفتوحة ولا توجد فيها حواجز جغرافية ولا فروق جوية أو نباتية مثل وادي وبجرمي ومنطقة تشاد ، بل خضعت حدود دارفور من تلك الناحية لامتداد وتقلص أما لعوامل سياسية أو قبلية .[٦]

وينقسم أقليم دارفور من حيث التضاريس إلى ثلاثة أقسام : فالجنوب منطقة رعوية كثيرة الأمطار ، وقوام حياة أهلها تربية الماشية . وفي الوسط منطقة جبلية أقل مطرا بالقياس للمنطقة الجنوبية وتقوم حياة أهلها على الزراعة . أما الشمال فيمتاز بالبراري والسهوب التي تتخللها تلال وأودية ذات أشجار وأعشاب وأهلها من البدو وأشباه البدو ، وقوام حياة هؤلاء الجمل ولعل أبرز ظاهرة طبيعية في أقليم دارفور ، هي سلسلة جبال أشهرها جبل مرة ، وهذه تخترق المنطقة من الشمال إلى الجنوب وتصل قمتها في الجنوب إلى عشرة آلاف قدم .[٧]

ويتصف أقليم دارفور بصفات بشرية خاصة وذلك لتعدد سلالاته واختلاف ثقافات سكانه ، ذلك أن هذا الأقليم تتنازعه سلالات بشرية مختلفة بعضها قديم ، وبعضها الآخر مهاجر إليه من الشمال أو من الشرق أو من الغرب ، مما

---

٦ — Lampen, G.D.: "History of Danfur", SNR XXXI, Pat II pp.177-178

7 ——Ibid: op. cit., page 178 and Aikell, A.J.: "The History of Danfur", SNR XXXII Part I, Page 38

أدى إلى تعقيده جنسياً وثقافياً ، ولو أنه شملت جميع سلالاته تقريبا الثقافة العربية والديانة الاسلامية . غير أن تأثر سلالاته بالثقافة العربية والديانة الاسلامية يختلف عمقا وسطحيةمن سلالة إلى اخرى ويبدو ذلك واضحا إذا علمنا أن الاقليم يشتمل على نحو ثماني عشرة سلالة غير عربية(٨) ، تتحدث اثنتي عشرة لهجة مختلفة ، بالاضافة إلى اللغة العربية التي تعرفها الغالبية العظمى من سكان دارفور(٩)

وعلى هذا يمكن تقسيم سكان دارفور الحاليين إلى مجموعتين :

١ ـ المجموعة غير العربية والتي تضم فضلا عن الفور ـ اهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المنطقة الوسطى الجبلية ـ المساليت والارنجا والقمر في الغرب ، والزغاوة والقرعان والبديات في الشمال والميدوب في الشمال الشرقي والبرتي والبرقد في الشرق والداجو والبيقو في الجنوب الشرقي والفلاتا في الجنوب والتنجر في الوسط .(١٠)

٢ ـ أما المجموعة العربية فإنها سكنت السهول وتضم الهبانية والرزيقات والمسيرية والتعايبشة وبني هلبه والمعاليا في الجنوب ، والحمر في الشرق والزيادية في الشمال والماهرية والمحاميد وبني حسين في الغرب(١١) .

أما عن تاريخ سلطنة دارفور وقيامها فما زال الغموض يكتنفها وذلك لقلة ما كتب عنها من جانب ولقلة الآثار التي تركتها من جانب آخر وهناك عامل طول الزمن حتى حلت الأساطير محل الروايات ، ولكن بمقارنة هذه الروايات الشفوية التي حفظها أهل البلاد جيلا عن جيل وتمحيصها على ضوء نتائج الحفريات وما سجله الرحالة الذين زاروا البلاد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وصل الباحثون إلى بعض الحقائق عن تاريخ هذه السلطنة .

---

8 — Mac Michael, H.A.: History of the Arabs in the Sudan vol.1, Page 52

9 — Arkell, A.J.: Op. cit. Page 51

١٠ ـ محمد عوض محمد : السودان الشمالي سكانه وقبائله ص ٢٣٨

11 — Mac Michael: op. cit. page 52

وأولئك الرواد الذين زاروا أقليم دارفور سلكوا طريقين صحراويين : طريق دارفور / الكفره طرابلس ودرب الاربعين ، وظل هذان الطريقان وسيلة الاتصال الحضاري والتجاري والحج ، فيما بين دارفور ومصر وطرابلس عبر الأجيال والعصور حتى وقتنا الحاضر حيث حلت السيارات مكان الجمال في طرابلس ـ الكفرة ـ دارفور والذي يستغرق بين أربعة وخمسة أيام ، ومازال طريق الأربعين إلى مصر مستعملا للأبل .

وأول رحالة زار المنطقة هو الرحالة الانجليزي بروان BROWN,W.G[12] الذي وصل الفاشر عاصمة درافور في عهد السلطان عبد الرحمن ، وقد سلك بروان في رحلته إلى دارفور طريق درب الأربعين من أسيوط إلى الفاشر ، وظل في دارفور نحو ثلاث سنوات ، من يوليو ١٧٩٣ إلى مارس ١٧٩٦ وقد أرتاب السلطان في نواياه باعتباره أوربيا مسيحيا ، فلم يسمح له بالتجول في البلاد أو جمع معلومات عنها ، ولذا جاءت المعلومات التي أوردها في كتاب « رحلات في أفريقيا ومصر وسوريا » . . سطحية يشوبها الاضطراب وعدم العمق ماعدا بعض النواحي الأقتصادية في ذلك الحين .

وبعده وفي عام ١٨٠٣ زار دارفور رحالة عرب هو محمد بن عمر التونسي الذي سلك في رحلته طريق درب الأربعين من الفسطاط إلى دارفور[١٣] ، حيث كتب بتوسع والمام عن الأحوال الإجتماعية والاقتصادية والسياسية وذلك في كتابه « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان . [١٤]

وقد قام الرحالة هنري بارت HENRY BARTH[15] برحلته المعروفة من

---

12 — Browne, W.G.: Travels in Africa, Egypt and Syria.

١٣ ــ وصف الرحلة كما كتبها التونسي في تشحيذ الأذهان ص ٤١

١٤ ــ التونسي ، محمد بن عمر : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان تحقيق خليل عساكر ومحمد مصطفى مسعد ، القاهرة ١٩٦٥

15 — BARTH,H.: Travels and Discoveries in Northen and Central Africa, London 1857

طرابلس إلى بحيرة تشاد في الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٨٥٥ ، وقد زار خلال هذه المنطقة الواقعة بين تمبكتو وباجرمي ، ولم يقم بزيارة دارفور أو وداي ، ولكن المعلومات التي أوردها عن الاقليمين أعتمد فيها على بعض الروايات الشفوية التي نقلها عن أهل البلاد أنفسهم .

أما رحلة الرحالة الألماني جوستاف ناختيجالGUSTAV NACHTIGZL الى دارفور ، فقد كانت في عام ١٨٧٤ حيث وصل إلى دارفور عن طريق بحيرة تشاد وباجرمي ووداي . وقد مكث ناختيجال في الفاشر ستة أشهر تمكن خلالها من جمع روايات شفوية عن تاريخ المنطقة ، ولكن لم يسمح له بالتجول في انحاء البلاد ، فلزم الطريق الرئيسي الذي يصل دارفور بين الشرق والغرب وقد كتب ما جمعه في كتابه SAHARA UND SUDAN في ثلاثة اجزاء .

درب الأربعين :-

يمكننا أن نميز بين نوعين من التجارة : المحلية والخارجية فالتجارة المحلية هي التي تغطي إحتياجات السكان اليومية أو السنوية والتي تزرع أو تصنع محليا ، وكانت تقوم في مملكة دارفور على المقايضة لعدم وجود عملة رسمية للفور ، ولكنهم كانوا يستعملون المصنوعات القطنية والقطن والأختام المصنوعة من النحاس كوسائل للتبادل . وكان معظم ما يعرض في التجارة المحلية عبارة عن الدخن والذرة ، القطن ، البصل ، الخضروات ، الفواكه ، العرديب ، مصنوعات القطن اليدوية . أما المنسوجات القطنية الفاخرة والجواهر والأسلحة وغيرها مما يصنع في الخارج ، فإنها تستورد .

وقد أرتبط بهذا الاستيراد وجود تجارة خارجية لتغطي حاجيات الملوك وزعماء القبائل ولحماية المملكة أو السلطنة داخليا وخارجيا ، ومن ثم قامت التجارة

الخارجية على أساسين سياسي وأقتصادي . ومن هنا نشأت ثلاثة طرق ربطت سلطنة دارفور بالخارج .

الطريق الأول : ولعله أقدم هذه الطرق جميعها ، فهو الذي يبدأ من أقاصي بلاد السودان الغربية مارا ببورنو ووداي ثم دارفور ومملكة الفونج إلى البحر الأحمر وموانيه الغربية ، ثم إلى الحجاز وهو طريق الحج[١٦] .

والطريق الثاني : من دارفور إلى طرابلس وتونس عن طريق فزان أو عن طريق الكفرة ، ويسير طريق القافلة من دارفور عن طريق الواتي سارا ، الكفرة ثم واحة جالو ، ومن هناك إلى طرابلس أو تونس[١٧] .

أما الطريق الثالث وهو أهم الطرق بالنسبة للسلطنة ، فهو المعروف باسم درب الأربعين . أي طريق الأربعين يوماً ، وقد توقفت التجارة فيه مثلما توقفت في الطريقين السابقين طوال اواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، أي طوال فترة الوجود الاستعماري في منطقة بلاد السودان وشمال أفريقيا ، ولكن الحياة بدأت تعود تدريجيا إلى هذه الطرق سواء لتلك التي عبر الصحراء أم عبر القارة . وقد حاربت السلطات البريطانية النشاط التجاري في درب الأربعين بعد إستيلائها على دارفور في عام ١٩١٦ ، فبدأت في متابعة القوافل ومراقبتها ومصادرتها[١٨] . والسؤال لماذا لم تسر القوافل التجارية عن طريق النيل حيث الحياة والماء ؟ لماذا فضلوا الصحارى بمخاطرها العديدة ؟ .

لقد كان التجار يخشون النيل لأنه زاخر بالحياة ، ولأن القبائل التي تسكنه قد تتعرض لهم ولبضائعهم . وفي ذلك يقول براون في كتابه « رحلات في أفريقيا ومصر وسوريا بين عامي ١٧٩٢ ـ ١٧٩٨ » إن بلاد الدناقلة والمحس حتى سنار

16 — Umor Al Nagar: Pilgrimage Tradition in West Africa, Khatoum 1972, Page 106

17 — Browne: op. cit. Page 241

١٨ ـ الملحق خطاب المخابرات وخطاب مدير دارفور ١٩١٦

ظلت لأعوام طويلة مسرحا لاراقة الدماء والخراب لا تقوم فيها سلطة مستقرة إلا وتمزقها الخلافات الداخلية . . . »[١٩]

وفي طريق الأربعين كانت هناك مخاطر ايضا فكانوا يخافون الكبابيش وغيرهم من القبائل ، ولكن الصحراء كانت تحميهم وكان درب الأربعين ممتلأ بالقوافل التجارية ويروى براون عن القافلة التي سافر فيها من أسيوط إلى الفاشر إنه كانت تحمل بضائع قيمتها آنذاك ١١٥ ألف جنيه . وكان فيها ٥٠٠ جمل وهي قافلة متوسطة الحجم ، لأن القوافل تزيد حتى تبلغ الفي جمل في بعض الأحوال ، ولم يوضح لنا التونسي حجم القافلة التي سافر فيها .

والسؤال ماذا كانت تحمل القوافل وهي متجهة شمالا وماذا كانت تجلب من الشمال إلى الجنوب ؟

كانت تحمل العاج وقرن الخرتيت وريش النعام والصمغ والعرديب والابنوس بالإضافة إلى الجمال ، وتصر المصادر الأوربية على أن الرقيق من أهم ما تحمله القوافل ، ولكن التونسي وغيره من الروايات المحلية لم تقل مثل هذا وأنني أيضا أستبعده .

وتعود القوافل لدرافور محمله بالعنبر والخرز والاحجار الكريمة والفضة والحلي والأقمشة والسيوف والمرايا والكحل والأسلحة النارية والبن والحرير والأحذية والبهارات وورق الكتابة والصابون .

والمسافة من الفاشر إلى أسيوط ـ أي طول درب الأربعين تبلغ حوالي ١١١٧ ميل ، وقيل أن القوافل كانت تقطعها في أربعين يوما وهذه هي أيام السفر وحدها ، ولا تدخل فيها أيام الراحة . فإن الرحالة بروان يقول أن رحلته أستغرقت ٥٨ يوماً ، وقد استغرقت رحلة التونسي ٤٣ يوماً للسفر و٢٤ يوما للراحة

---

19 —— Brown: op. cit. Page 253

أي أن جملة الرحلة كانت ٦٧ يوما . وكان لابد للقوافل من أن تحمل معها العلف من مصر ليوصلها حتى واحة سليمة ، ومن سليمة حتى النطرون أو بئر الزغاوي ، وكذلك في طريق العودة من الفاشر . وقد كانت أسيوط في منتصف القرن السابع عشر المدينة الرئيسية في مصر الوسطى ، وكانت المركز الرئيسي للتجارة مع السودان وفيها كانت تجبى الضرائب على الوارد والصادر[٢٠] .

والرحلة تبدأ من أسيوط حيث يسير الطريق من شواطيء النيل مرتفعا إلى هضبة جيريه تتجه جنوبا وتظل تسير فيها تسعين (٩٠) ميلا لتهبط إلى واحة الخارجة ، وهي واحة منخفضة فيها آبار للمياه ويبلغ طولها مائة ميل وعرضها عشرون ميلا ، وهي من أقدم الواحات وقد تداولتها أيدي الفراعنة والفرس والرومان والمسيحيين ، وقد بلغت الذروة في عهد الرومان الذين استغلوا موارد المياه فيها . ومن الخارجة يتجه الطريق على الأراضي الصحراوية إلى « بئر المر » ومنها إلى « بئر أبو حسين » ، وفي كلتيهما لا نجد من آثار الحياة إلا بضعة آبار لا يزيد عمق الواحدة منها على ثلاثة أو أربعة أقدام ومياهها مالحة قليلا . أما « بئر كسبه » التي تصلها بعد مسيرة نصف يوم من « بئر أبو حسين » ، فهي « ميعه » فيها ماء عذب وسط مجموعة من أشجار الدوم . وعلى بعد ٢٥ ميلا تصل إلى « شب » أو « الشب » ، ومنها إلى « بئر ترفاوي » أبعد الآبار غربا ، وبعد ذلك تسير الرحلة يومين متتاليين قبل أن تصل إلى واحة سليمة وقبلها توجد قبة الشيخ أبو بكول . وفي سليمة توجد المياه العذبة وهي أعذب مياه طول الرحلة ، وسليمة هذه في أصلها على ما يقول بعضهم أنه اسم امرأة صاحبة مقهى كان يقوم على أرض الواحة ، ومن الأسم اخذت الواحة شهرتها ، وآخرون يقولون أنه اسم ملكة شجاعة نشرت الذعر في أرجاء المملكة النوبية ، والطريق من سليمة ينقسم إلى طريقين ؛ يتجه فرع إلى النيل حيث يصل إلى ارقو ، ثم من أرقو يعود ويلتقي مع الطريق الرئيسي في « بئر النطرون » . أما الطريق الرئيس فيسير من سليمة إلى « لقيا » على بعد

٢٠ ـ التونسي : تشحيذ الاذهان ص ٤٢

١٤٠ ميلا جنوبا ، ومنها إلى بئر النطرون وبعدها يقطع الطريق المنطقة الصحراوية حتى يصل إلى المركز التجاري لدرافور وهو مدينة « كوبي » KOBBEI التي فيها تنتهي الرحلة التي استمرت شهرين ، وينتشر في المدينة التجار يحملون بضائـع الشمال ويسألون عن خيرات السودان ليعودوا بها[٢١] .

هذا وقد ادى درب الأربعين بجانب التجارة دوره كطريق للحج فقد سافر عليه الحجاج سواء من دافوز أو من الدول المجاورة لدافور لمصر ومنها إلى مكة . كما أن سلطان دارفور كان يبعث سنوياً محمل دارفور الذي يتكون من قافلة تجارية كاملة تسير مع الحجاج لتباع ، ويرسل العائد مع المحمل المصري الرسمي الذي يرسل إلى مكة كمشاركة من دارفور في منصرفات الحرمين المكي والمدني .[٢٢]

---

٢١ ــ التونسي :ـ تشحيذ الأذهان ص ٤٧ ـ ٥٢ وصف الرحلة في الملحق

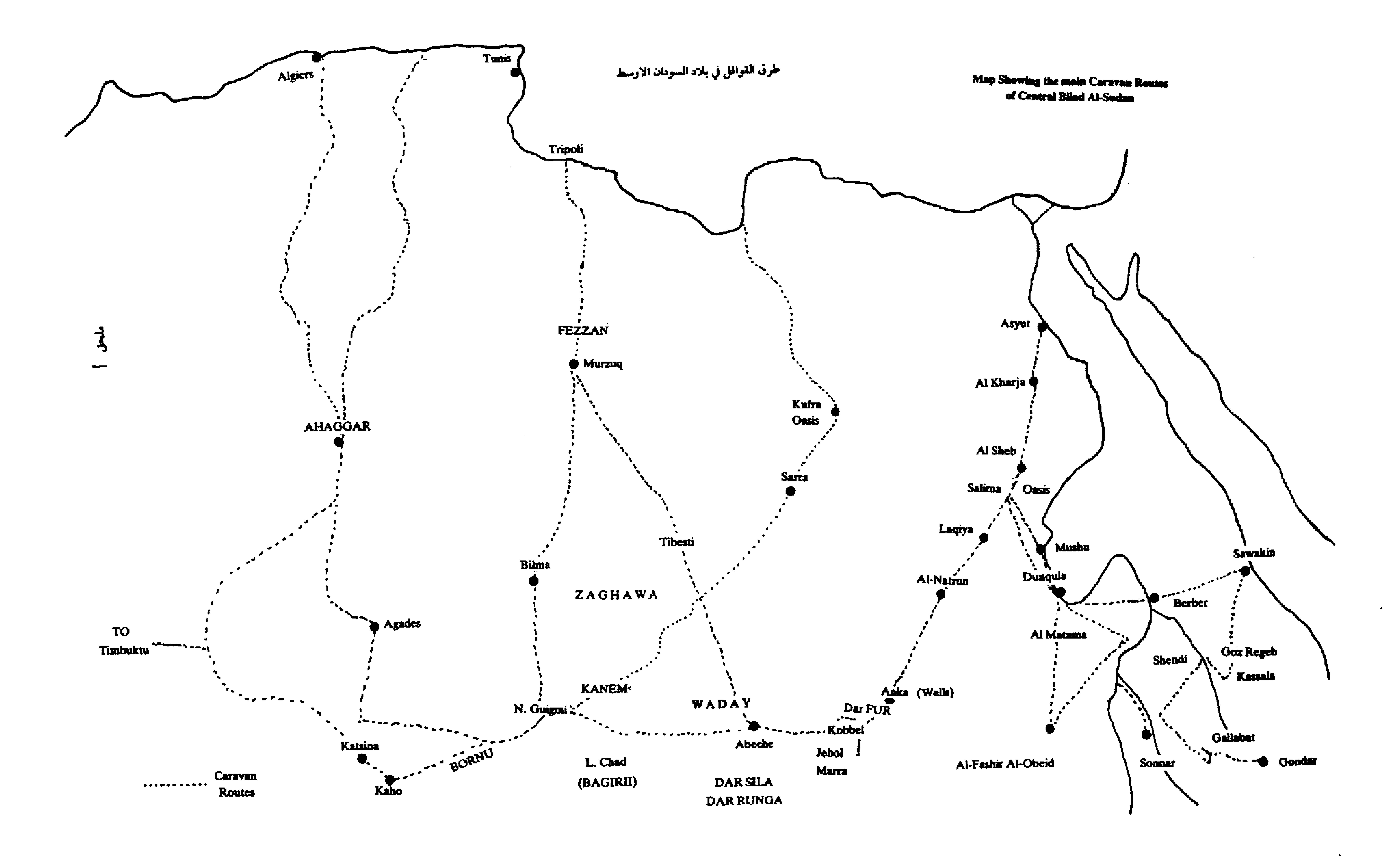
22 — Al-Nagar: op.cit page 106

خاتمة

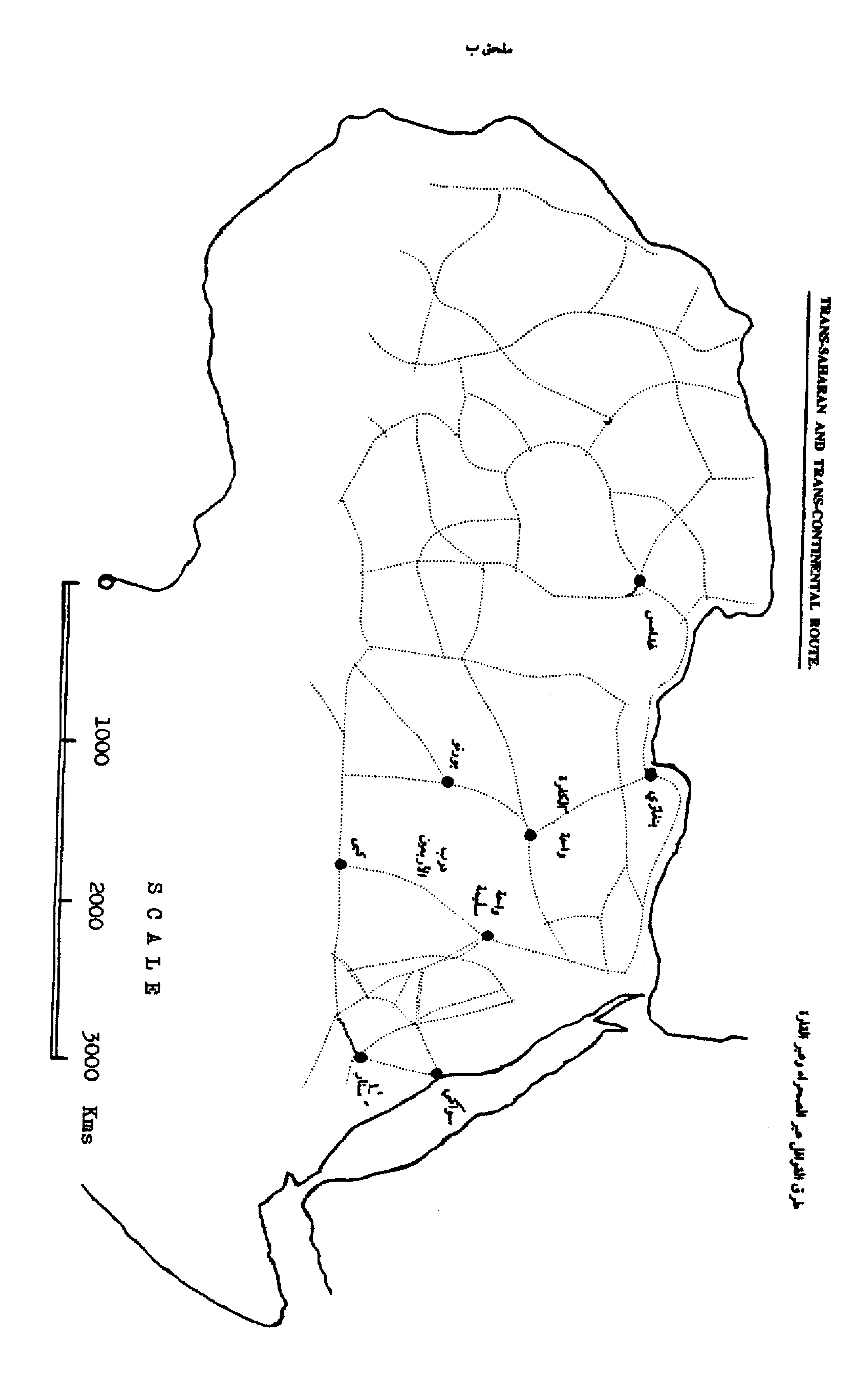
كان درب الأربعين يشبه قناة السويس من حيث اهميته بالنسبة للتجارة ومن حيث الطرق المتصلة به ،والمتفرعة منه،وقد عمل الأستعمار الأوربي على وقف وإيقاف الطرق عبر الصحراء وعبر القارة ، تلك الطرق التي كانت حلقة الاتصال الحضاري والتجاري والتي عبرها دخل الاسلام للقارة ، والتي بها سارت قوافل الحجاج من غرب القارة إلى سواحل البحر الأحمر الغربية والشرقية لاداء فريضة الحج . كما إنها كانت الصلة بين جامعات الشمال في تونس وفاس والقيروان والأزهر وبين مراكز النشاط الاسلامي في تمبكتو وجني وكانو والفاشر .

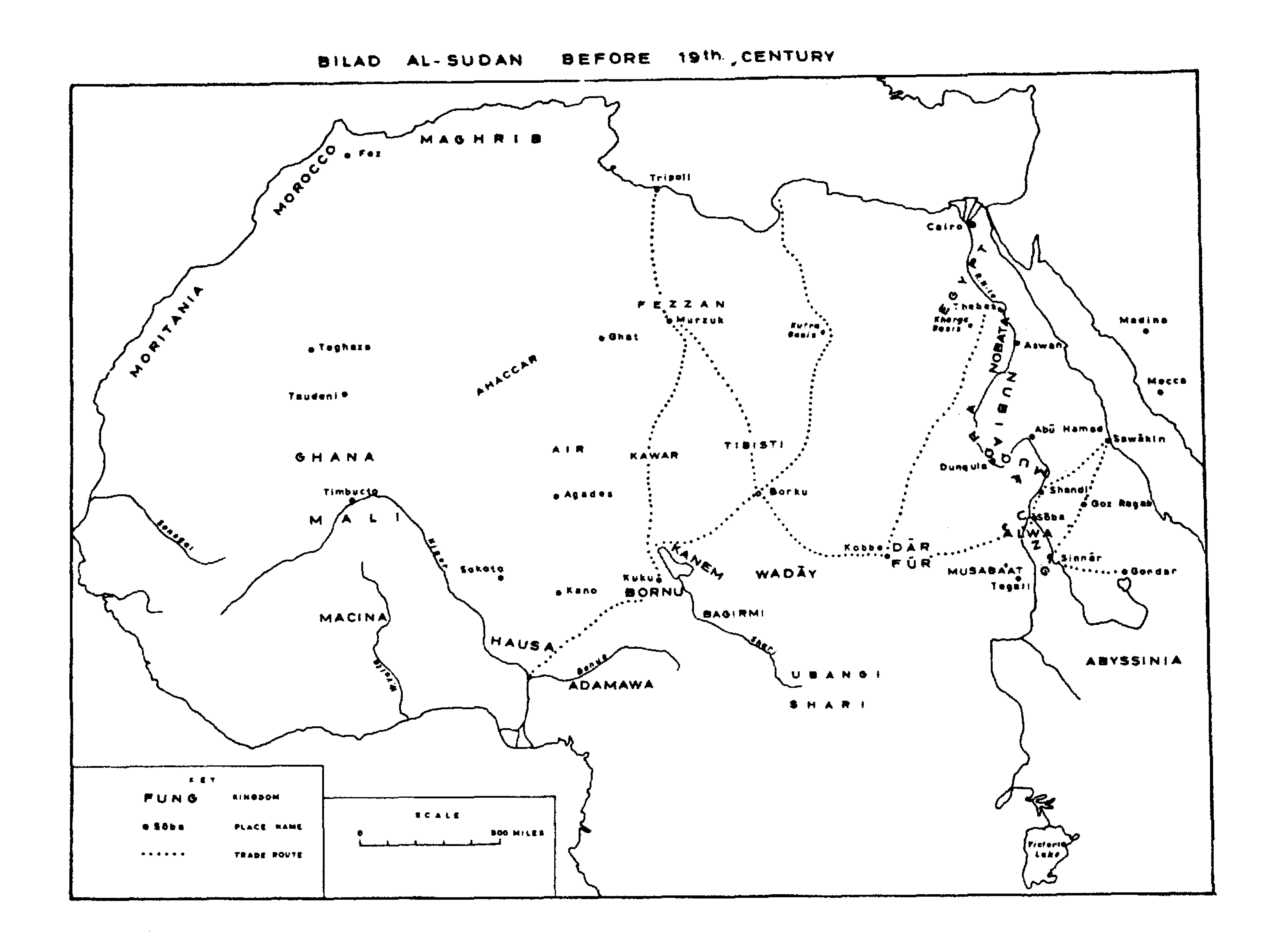
كان طريق الأربعين يصل بين سلطنة دارفور الاسلامية ومصر الاسلامية العربية وبين دارفور طرابلس وتونس ، اذ كان طريقا حضاريا وليس دربا ليحمل عليه الرقيق وقد أستمر في نشاطه حتى عندما منع ووضعت عليه الحراسة . ولكن بعد الاستقلال لشعوب تلك المناطق بدأت الحركة تعود وبدأ النشاط التجاري وعادت الحياة لدرب الأربعين وفروعه فأخذت قوافل الجمال تسير لأسيوط بالجمال وفتح طريق « مليط » بدارفور إلى جبل العوينات مارا بواحة سليمة ، ثم إلى واحة الكفرة في جنوب ليبيا ، ومنها إلى بنغازي أو طرابلس ، وذلك بإستعمال السيارات والشاحنات الكبيرة ومن ثم عادت الحياة إليه ، ولكن الطريق مازال يحتاج إلى العناية وإلى المراقبة ليكون أكثر فعالية وأكثر حركة ليقوم بدوره في ربط شعوب هذه المناطق بعضها ببعض ليكتمل التفاعل الحضاري والوحدة بين شعوب القارة الأفريقية المسلمة .

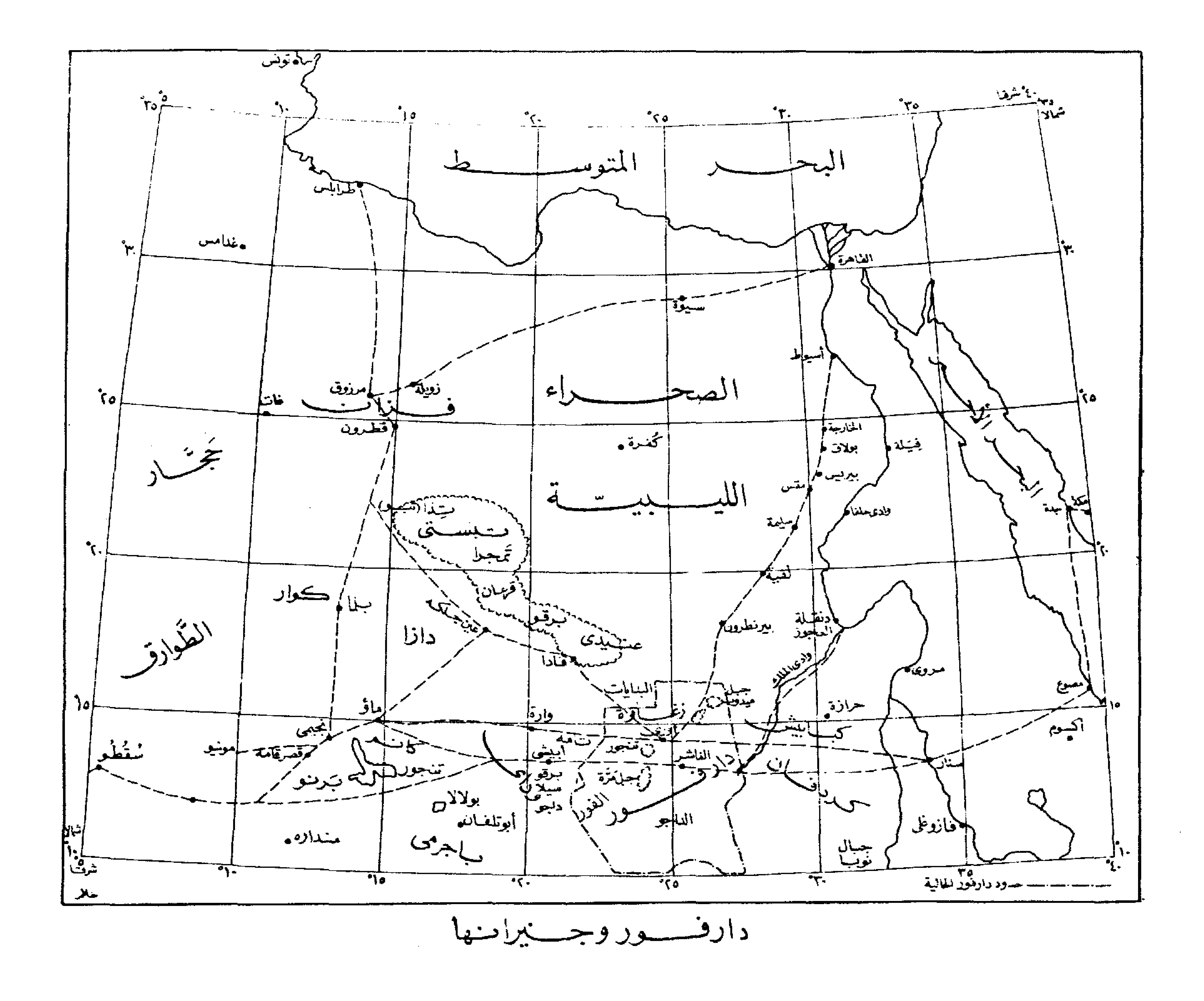
ملحق ١



طرق القوافل في بلاد السودان الاوسط
Map Showing the main Caravan Routes
of Central Bilad Al-Sudan
Algiers
Tunis
Tripoli
FEZZAN
Murzuq
AHAGGAR
Agades
TO
Timbuktu
Katsina
Kaho
BORNU
N. Guigmi
KANEM
L. Chad
(BAGIRII)
Bilma
ZAGHAWA
Tibesti
WADAY
Abeche
DAR SILA
DAR RUNGA
Kufra
Oasis
Sarra
Dar FUR
Kobbel
Jebol
Marra
Anka (Wells)
Al-Natrun
Laqiya
Salima
Oasis
Al Sheb
Al Kharja
Asyut
Mushu
Dunqula
Al Matama
Al-Fashir Al-Obeid
Berber
Sawakin
Shendi
Goz Regeb
Kassala
Gallabat
Sonnar
Gondar
Caravan
Routes


TRANS-SAHARAN AND TRANS-CONTINENTAL ROUTE.
طرق القوافل عبر الصحراء وعبر القارة
SCALE
1000
2000
3000 Kms
طرابلس
بنغازي
درب الأربعين
سواكن


BILAD AL-SUDAN BEFORE 19th. CENTURY
MOROCCO
Fez
MAGHRIB
MORITANIA
Tripoli
Cairo
EGYPT
Thebes
Kharga Oasis
Aswan
NOBATA
NUBIA
FEZZAN
Murzuk
Ghat
Kufra Oasis
Taghaza
Taudeni
AHACCAR
GHANA
AIR
KAWAR
TIBISTI
Madina
Mecca
Abū Hamad
Sawākin
Dunqula
Timbucto
Agades
Borku
Shandi
Goz Ragab
MALI
Senegal
Niger
Soboba
Sokoto
Kano
Kukua
KANEM
BORNU
WADĀY
Kobbe
DĀR FŪR
Sōba
ALWA
Sinnār
Gondar
MUSABAAT
Tegali
MACINA
BAGIRMI
HAUSA
Benue
ADAMAWA
UBANGI
SHARI
ABYSSINIA
KEY
FUNG KINGDOM
Sōba PLACE NAME
TRADE ROUTE
SCALE
0
500 MILES
Victoria Lake



دارفور وجيرانها



طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر

البضائع - والعملات - والأسعار ، والأساليب التجارية

بقلم الدكتور يحيى بو عزيز
رئيس دائرة التاريخ
جامعة وهران

شهدت الصحراء الكبرى الافريقية خلال العصر الوسيط ، مدا اسلاميا واسعا ومكثفا ، عن طريق بلدان المغرب العربي في الشمال الافريقي . وعن طريق صعيد مصر ، والساحل الاريتيري ، وبلاد الحبشة ، والصومال في الشرق ولعب المرابطون والموحدون دورا هاما ، وبارزا في نشر الاسلام إلى أعماق الصحراء الكبرى خلال القرن العاشر وما بعده إلى القرن الثاني عشر الميلادي .

وقامت بالصحراء الكبرى مراكز عمرانية وحضارية هامة من أبرزها مدينة تمبوكتو ، وقاو ، وجني ، كما قامت مجموعة من الممالك ، والأمارات والامبراطوريات فيما بين القرن الرابع ، والقرن التاسع عشر الميلادي ، اختلفت أعمارها ومكاناتها في غرب أفريقيا ، وشرقها .

ففي غرب افريقيا برزت مملكة غانة (٣٠٠ - ١٠٧٦م) ومملكة صوصو غرب مالي ما بين القرن ١٢ ومنتصف القرن ١٤ . ومملكة مالي (١٢٢٥ - ١٦٧٠م) . ومملكة الصنغاى (١٣٢٦ - ١٥٩٤م) ومملكة الحوصه شمال نيجيريا

التي بقيت حتى القرن ١٩ . ومملكة اليوربا شمال نيجيريا وبقيت حتى سيطر عليها البريطانيون في نهاية القرن ١٩ . ومملكة بورنو شرق نيجيريا التي بقيت من القرن ١٥ إلى أواخر القرن ١٩ ومملكة كانم شمال شرق بحيرة تشاد بوسط الصحراء . وأماراتموسي وداجونيه بين نهر الفولتا ومنحنى نهر النيجر . ومملكة الكامبارا في سيحو وكارتا غرب مملكة الحوصه التي قضى عليها الفرنسيون في نهاية القرن ١٩ .

وفي شرق افريقيا قامت مملكة النوبة بدنقله جنوب مصر . ومملكة الفونج في سنار بالسودان (١٥٠٥ ـ ١٨٢٠) ومملكة دارفور (١٦٣٧ ـ ١٨٧٥) ومملكة تقلي[1] .

وقد لعبت التجارة دورا بارزا في ربط العلاقات ، وتحديد طابعها بين هذه الممالك ، والامارات الصحراوية ، طوال العصر الوسيط والعصر الحديث حتى قضى عليها الاوروبيون جميعا خلال القرن التاسع عشر ، واحدة بعد أخرى .

وجاب الرحالة ، والجوالون المسلمون الصحراء الكبرى خلال العصر الوسيط والحديث ، وتعرفوا على هذه الدول ، وأوضاعها ، وظروفها السياسية والحضارية وسجلوا ذلك في كتبهم ، ورحلاتهم ، ومنهم ابن حوقل في القرن العاشر ، والبكري في القرن الحادي عشر ، والادريسي خلال القرن الثالث عشر ،وابن بطوطة في اواخر القرن ١٣ ومطلع القرن ١٤ ، والعمري في القرن ١٤ . وأبن خلدون في القرن ١٤ . والحسن الوزان في القرن ١٥ . والمغيلي أواخر القرن ١٥ . ومطلع القرن ١٦ . والعياشي . والورتلاني وغيرهم .

وقد استهوى النشاط التجاري الواسع بالصحراء ، الاوربيين اواخر القرن ١٨ ومطلع القرن ١٩ ، فعزموا على غزوها واستعمارها . وكان للفرنسيين دور

---

١ ـ عن هذه المماليك والامارات يمكن العودة الى د . حسن ابراهيم : انتشار الاسلام في القارة الأفريقية .

بارز في هذا الميدان بعد ان احتلوا الجزائر في الشمال . وبعض المناطق في غرب افريقيا السنغال . كما كان مشكل المواصلات الصحراوية من اهتماماتهم الرئيسة خلال غزوهم وتوسعهم الى جنوب الجزائر والصحراء وذلك من اجل تحقيق الاهداف التالية :ـ

اولا : تسهيل عمليات نقل قواتهم العسكرية الغازية ، وتيسير ظروف استقرارها في المراكز العسكرية والمناطق الاستراتيجية الهامة .

ثانيا : ربط مستعمراتهم المختلفة ببعضها البعض في شمال القارة ، وغربها ، ووسطها .

ثالثا : فتح اسواق القارة للتجارة والبضائع الفرنسية .

وقد اهتموا في البداية بالتعرف على طرق القوافل الصحراوية القديمة وتحديدها بواسطة الحملات العسكرية ، والبعثات الاستكشافية المكثفة طوال القرن التاسع عشر . وبواسطة دراسة كتب الرحالة والمؤرخين المسلمين الذين جابوا هذه الصحراء طولا وعرضا ، وسجلوا عنها معلومات كثيرة . وأشرنا الى البعض منهم آنفا . ومن ضمن من اهتم بدراسة هذه الطرق من الاوروبيين : كودراي والراهب بارجيس ، وكاريت : وادوارد بلان . وبزودي بورقو . وستوكلي . وغيرهم ويمكن ايراد وصف لها كما وردت في خريطة ادوارد بلان ، مع الاشارة الى الذين سلكوها او سلكوا بعضها من المغامرين الاوروبيين في القرنين ١٨ و١٩ م .

طرق القوافل والاسواق الصحراوية :

اولا : طريق مراكش إلى تمبوكتو : ويمر على تارودانت ، وتاويرت ، وتيندوف . . ويخترق رمال أيقيدي ، وعرق شيش ، ويتجه إلى تاوديني . كما

يخترق صحراء الجوف شرقا ويمر باونان ، وأروان ، ليتجه إلى تمبوكتو . وقد سلكه الدكتور اوسكار لينز عام ١٨٨٠م .

ولهذا الطريق فرع من تيندوف يتجه الى الجرف الاصغر ، وأوقلت العزل ، وقرونة ، وزمور والفلته ، وسماميت ، وحاسي بوتلان ، ومن هناك يتجه فرع منه إلى تمبوكتو ، وفرع إلى قصر البرشاف ، وعطار ، وأوجيفت ، وتيوروت على شاطى المحيط الاطلسي .

ثانيا : طريق فاس ومكناس إلى تمبوكتو : ويمر بقصة المخزن ، وأم دريبينة ، ويتبع حوض وادغير إلى إيجلي ، ثم حوض واد أم الساورة إلى توات ، وكابلي ، وبيرتير يشومين ووالسن وعين رنان ، ومبروك ، وتمبوكتو .

وهناك طريق آخر يخرج من مراكش ، ليتصل بهذا الطريق في توات ويمر على مسينة والمسينز ، والمعسف وتامنتيت ، إلى أكابلي ، وبئر تيريشو مين وسلكه روني كامي ١٨٢٧ - ١٨٢٨ .

ثالثا : طريق وهران وأرزيو إلى تمبوكتو : ويمر على خيشر ، ومشرية ، وعين الصفراء وفيقيق. ويتبع مجرى واد زوزفانة إلى ايجلي حيث يلتقي بطريق فاس إلى تمبكتو . ولهذا الطريق فرع آخر إلى شرق الأول ، مستقيم ، يبدأ من خيشر ، إلى البيض ، والأبيض سيدي الشيخ ، والمنقب ، وتوات ، حيث يلتقي بطرق : وهران ، وفاس ، ومكناس إلى تومبوكتو . وقد سلكه الضابط كولونيو عام ١٨٦٠م .

رابعا : طريق مدينة الجزائر إلى تمبوكتو : ويمر على البليدة ، وبوغار ، والأغواط ، وغرداية والقليعة ، وعين صالح ، وأكابلي، وبيئر تيريشومين ،حيث يلتقي بطريق توات إلى تمبوكتو . وقد سلكه الضابط بالا :

ولهذا الطريق فرع آخر من عين صالح إلى بئر عسيو ، وتنتيلوست ، حيث

يتفرع إلى فرعين كذلك . فرع إلى أقادم ، وماو ، شرق بحيرة تشاد ، إلى أقادم ، وكوكه جنوبها . وفرع إلى الجنوب الغربي نحو أقاديس حيث يتفرع هو الآخر إلى فرعين : فرع إلى سوكوتو ، وفرع إلى كاتسنا .

خامسا : طريق سكيكدة ، وقسنطينة ، إلى أمقيد ، والهقار ، وتمبوكتو : ويمر على باتنه وبسكرة ، وتفرت ، وورفلة ، والبيوض ، وأمقيد ، ويتميساو وأيفروان إلى مبروك ، وتمبوكتو . أو إلى شط بوروم (برنوح) وقد مر على جانب من هذا الطريق الضابط فلاتر . عبر حوض ايفرعر عام ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م . ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكرة ، ويتجه إلى الواد بسوف ، ومن هناك إلى غدامس ، وغات ، وجبادو ، وبلمه ، وأقاديم ، وماو . وفرع آخر من البيوض إلى عين صالح . وفرع ثالث إلى غات .

سادسا : طريق طرابلس إلى تمبوكتو : ويمر على سناون ، وغدامس ، وتيماسينين، والبيوض حيث يتصل بطرق قسنطينة إلى تمبوكتو . ولهذا الطريق فرع من غدامس إلى غات ، وبيرعسيو ، وأافاديس . ثم إلى سوكوتو ، وكاتسنه غربا . وإلى أقاديم وماو ، شرقا .

سابعا : طريق طرابلس إلى مرزق : عبر سبها ، ثم إلى بئر بكر ، وتيجري ، وتومود (واحات كاوار) حيث يتفرع إلى فرعين : فرع إلى بلمه ، وأقاديم ، وماو ، وكوكه ، بالتشاد . وفرع إلى أبشر شرقا بوادي . وهذا الطريق سلكه فوجيل عام ١٨٥٤ وبارت خلال عودته عام ١٨٥٥ ، وبورمان عام ١٨٦٢ . وروهلف عام ١٨٦٦ ، وناشتيقال عام ١٨٧٠م .

ولهذا الطريق فرع من مسيدة وسلكه كل من بارت عام ١٨٥٠م ، وباري عام ١٨٧٦م . وفرع من سكنه ، وسلكه كل من فوجيل عام ١٨٥٤م ودوفيري عام ١٨٦٤م ، وناشتيقال عام ١٨٧٠م .

ولهذا الطريق فرع من مسيده وسلكه كل من بارت عام ١٨٥٠م وباري عام

١٨٧٦ م وفرع من سكنه ، وسلكه كل من فوجيل عـام ١٨٥٤م ودوفيري عـام ١٨٦٤ ، وناشتيقال عام ١٨٦٩م ورورهلف عام ١٨٧٩م .

ثـامنا : طـريق طرابلس إلى جغبـوب ، وسيوه ، والفـرافرة والأقصـر ، بصحراء مصر . ويتصل بهذا الطريق عدة طرق أخرى آتية من مراكـز العمران الشمالية الساحلية . مثل سرت ، وبنغازي ، ودرنه ، والقصر الجديد .

تاسعا : طريق بنغازي إلى وادي : ويمر على أوجيله ، وجالو ، وسرهن ، وكيانو، وتاهينه ، حيث تفرع إلى فرعين :فرع إلى ماو ، وفرع إلى ابشى وهو الذي سلكه روهلف عام ١٨٦٤م .

عاشرا : طريق ، أسيوط ، وأسنه ، وأسوان ، إلى دارفور بالسودان : ويمر على سليمه والفاشر ، وعندما يصل إلى الفوجه يتفرع إلى فرعين : فرع إلى دنقله القديمه عبر مجرى واد مالية . وفرع إلى سنار ، أو الخرطوم ويمتد فرع الخرطوم إلى بربر ، وسواكن ، على سواحل البحر الأحمر شرقا . وقد سلك هذا الطريق كل من براون ، وكوني عام ١٨٥٨م ، وناشتيقـال عام ١٨٧٤م ، ومـوسون عـامي ١٨٧٦م ، ١٨٧٧م وأنسور الامريكي عامي ١٨٧٥م ـ ١٨٧٦م وماسـاري عام ١٨٨٠م .

الاسواق التجارية :

واهم الأسواق التجارية التي تتجه إليها هذه الطرق الصحراوية تتجمع في ثلاث مناطق رئيسية هي :

اولا : السودان الغربي : ومن أهم أسواقه : سوق تمبوكتو ، الذي كانت له أهمية خاصة ، وأستقطب القوافل التجارية حقبة طويلة من الزمن في العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث . واسواق قورارة ، وتوات ، وعين صالح باقليم تيد يكلت ، وبين سوق تمبوكتو ، وأسواق قورارة ، وتوات ، على طول الطريق

توجد أسواق : أروان ، ومبروك ، والفـرنان ، وتيميسـاو ، وأونان وتـاوديني ، ووالن ، وبيرتير شومين ، وأكابلي .

ثانيا : اسواق تشاد والسودان الأوسط : ومن ضمنها : سوتوتو ، وفاندو ، وكاتسنه وتاقليلي ، وأقاديس ، وكوكه فبورنو ، وأبشر في وادي ، وماو ، وأقاديم وبلمه ، وتتيلوست ، ويبرعسيو ، وحيادو ، وين ، وتومو . وإلى الشمال من هذه الأسواق تقع أسواق فزان ، وأسواق واحات الكفرة بليبيا .

ثـالثـا : أسـواق السـودان الشـرقي : ومن ضمنهـا : أسـواق دارفـور ، وكوردفان ، كالفاشر ، والفوجـه ، والابيض ، وسنـار ، والخرطـوم ، ودنقلة ، وبربر ، وسواكن وسليمه ، ووادي حلفا .

مشاكل القوافل في الطريق :

كانت التجارة مع بلدان السودان الغربي والأوسط ، والشرقي ، محتكرة لشعوب شمال القارة وخاصة : ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى . وتتوفر بلاد السودان على ما لا يقل عن ٨٠٠ مركزٍ عمراني في الاتجاهات العرضية بين خطي عرض ١٧ شمال وجنوب خط الأستواء ، وما لا يقل عن ٥٠٠ مركز عمرانيا في الأتجاهات العرضية من الغـرب إلى الشرق وأزدهـرت التجارة فيهـا وتطورت منذ القـرن التاسـع الميلادي . ومن ضمن هـذه المراكـز : غدامس ، وغات ، وورفله ، وتوات ، وقورارة ، وتمبوكتو سجلماسة . وتجهز القوافـل في الشمـال بطرابلس ، والقيـروان ، وقسنطينـة والجزائـر وتلمسـان ، وفـاس ، ومراكش ، ويتراوح عدد جمالها بين ألف وثـلاثة آلاف جمـل ، تشحن حمولاتهـا بمختلف البضائع والسلع . وتمر على معظم الأسواق والمراكز العمـرانية في قلب

الصحراء حسب إتجاهاتها .

وتستغرق في ذهابها وأيابها شهورا عديدة لا تقل عن فصل من فصول السنة وأحيانا تستغرق عدة فصول .

فقافلة طرابلس الغرب إلى كانو تستغرق ١٢٥ يوما تقطعها على مراحل من
طرابلس إلى غات ٥٥ يوما
من غات إلى أفروان ٤٠ يوما
من أفروان إلى زندر ٢٤ يوما
من زندر إلى كانو ٦٠ يوما
وقافلة قسنطينة إلى توات تستغرق ٣٦ يوما .
وقافلة المدينة إلى توات ٤٨ يوما
وقافلة تلمسان إلى عين صالح ٣٢ يوما . وإلى ولاتن وتمبوكتو ٧٢ يوما . والى النيجر ٧٥ يوما .
وقافلة فاس إلى توات ٣٩ يوما .

وتبدأ هذه القوافل رحلاتها في مطلع الشتاء ، حيث الحرارة والطقس ملائمان بالصحراء . وتتعرض خلال رحلاتها لعدد كبير من المشاكل على رأسها:

أولا : هجمات اللصوص، وقطاع الطرق من البدو الرحل ، والطوارق الملثمين . .

ثانيا : فرض ضرائب المرور والزيادة فيها باستمرار خاصة بعد أن ظهرت المزاحمة الانجليزية ، التي عملت على تحويل التجارة من طرابلس إلى سواحل

المحيط الأطلسي . ففي غات يدفع التجار ٤,٥ فرنك ذهابا ، و٩ فرنكات في الأياب للحمولة . وفي كانو يدفعـون من ٢٥ الى ٤٢ فرنكـا وتواجه الدول المغربية وقادة القوافل هذه المشاكل بعدد من الاجراءات منها :

١ ــ تزويد القافلة بالاسلحة الكافية لتدافع عن نفسها ، وتـرغم المهاجمين على الأرتداد ، وعلى دفع تعويض عن كل خسارة يلحقونها بها .

٢ ــ تأليف القافلة من رجال أقوياء ، اشداء محاربين . وتنويع انتماءاتهم للقبائل حتى يكثر أنصارها ويصعب الاعتداء عليها .

٣ ــ فرض ضرائب متنوعة من العـربان مثـل ضريبـة العشر ، وضـريبة المـرور وإلزامهم بتقديم الرجال لخدمة القافلة، وإرشادها: حتى لا تغلق في وجوههم أسواق الشمال التي يترددون عليها هم كذلك .

٤ ــ تنظيم شرطة صحراوية على طول طريق القافلة خلال الذهاب والأياب لمراقبة البدو الرحل. والقيام باستعلامات سريعة ومسبقة ، تتكفل بابـلاغ القافلة مسبقا بكل تحركات العصـابات البـدوية ، حتى تحتـاط لنفسها ، وتستعـد للمواجهة .

٥ ــ منع بعض العائلات والقبائل الصحراوية ، أمتيازات متوارثة مقابل تنظيم الدفاع والحراسة ، للقوافل . وقـد طبقت تلمسان هـذا على بعض قبـائل مغراوة .

٦ ــ اتخـاذ أدلاء أوفياء عـارفين بمسـالك الـطرق . ومواطن العصـابات وهـوية أفرادها ، وأنتـماءاتهم القبلية . وأمـاكن المياه والأتجـاهات المختلفـة يجنبون القافلة من التيه ، والوقوع في مخاطر .

بضائع التجارة :

تحمل القوافل من الشمال إلى أسواق الصحراء البضائع التالية :

١ ــ الأقمشة المختلفة من كل نوع وجنس، وبلد، أفريقي ، وأوروبي، بيضاء ، وملونة ، صوفية ، وقطنية ، وحريرية ، وكتانية . ومن أشهرها الجوخ ، والشاش .

٢ ــ الأسلحة المختلفة ، والبارود ، للدفاع ، وللهجوم ، لتسليح القوات المحلية . كالدروع ، والخوذ ، والخناجر ، والسهام ، والتروس واقواس النشاب والبنادق . وكان الأمراء والسلاطين يتبارون في تسليح قواتهم المحلية حتى يفرضوا أحترامهم على جيرانهم .

٣ ــ السروج ، والألجمة ، والمهامز ، للأحصنة ، والبغال ، والجمال .

٤ ــ الأدوات الحديدية : كالقدور ، والأمواس ، والسكاكين ، والأبر ، والأواني المنزلية الأخرى ، وأدوات الزينة الجلدية ، والنحاس الأصفر ، والنحاس العادي . سواء على شكل سبائك وصفائح ، أو قوالب أو أسلاك ، والكحول (كحول النساء) ، والكبريت .

ومعظم هذه الأدوات تستورد من مدينة البندقية وبعض البلدان الأوربية الأخرى إلى موانى طرابلس والجزائر ووهران وهنين ومن هنا تشحن إلى أسواق الصحراء على ظهور الجمال والبغال .

٥ ــ البضائع الزجاجية ، وحلي المرجان ، والذهب ، والفضة ، والمرايا ، والأمشاط والخردوات المختلفة . ومعظمها بضائع مدن : البندقية وميلان ، وبرشلونة .

٦ ــ الروائح العطرية ، والأدوية العشبية ، والبهارات ومواد الصباغة والعطور ،

والشاي ، والسكر ، والصمغ ، ونباتات سلعة الشديد المرارة .

٧ ــ الكتب المخطوطة والمنسوخة ، والورق ، التي شاع رواجها بكثرة في الصحراء بسبب انتشار الثقافة والعلوم العربية الاسلامية والأقبال الشديد على تعلمها في المراكز العمرانية الهامة مثل : تمبوكتو وتوات ، وورفلة ، وتفرت ، وغدامس ، وغات ، وجني ، وغيرها ، وكثيرا ما يذهب علماء الشمال إلى هذه المراكز للتعليم والتدريس ، كما يذهب الطلاب من الصحراء إلى عواصم الشمال لتلقي العلم والمعرفة ومن أشهر العلماء المحليين الشيخ أحمد باب التنبكتي الذي سجنه أحمد المنصور مدة في مراكش هو وعدد آخر من العلماء بعد الحملة المغربية على مملكة الصنغاى أواخر القرن ١٦ م .

٨ ــ بغال المغرب العربي ذات الجسم الخشن ، والقدرة على الكر والفر ، والمرغوب في اقتنائها كثيرا بأسواق السودان . إذ كان البغل الواحد يباع بمبلغ ١٥ إلى ٢٠ عبدا أسود في بورنو مثلاً .

٩ ــ الخضر الجافة ، وزيت الزيتون ، والشحوم والزبدة ، والأغنام والأصواف.

تحمل القوافل هذه البضائع المختلفة : المغربية ، والأوروبية ، والآسيوية وتتجه بها إلى مختلف أسواق الصحراء التي تدعى بالسودان وتبيعها ، وتبيع معها حتى الجمال ، والبغال ، التي حملتها إلى هناك بسبب تعبها وهز آلها ، من شدة الأرهاق وثقل الأحمال ، وطول المسافات التي قطعتها .

ويقوم التجار بشراء جمال أخرى ، وأحمرة قوية ، ويشترون سلع السودان ويعودون بها إلى الشمال في مطلع فصل الربيع وأهمها العبيد السود ذكورا ، وأناثا وخصيانا . والذهب وقوالبه والنيلة ، والملح ، والعاج ، وريش النعام . والجلود المدبوغة وجثث النعامة ، والقط الزباد ، والجمال ، والتمور ، والجبن المجفف والسمن ، والأقمشة الأفريقية والأحجار الكريمة ، كالزمرد ، والماس

الأزرق ، والأبيض ، واللؤلؤ المرصع ، والبلور ، والأحجار البراقة والصمغ ، والعطور الصحراوية والجوز . وغيرها .

العملات المستعملة :

كانت التجارة في السودان تتم بالتبادل في معظم الأحيان نظرا لقلة العملات وضعف استعمالها . فكمية من الملح مثلا يتم بيعها أو شراؤها بعشرين وزنة من البشنة أو اللولبية الأهلية . وحمار واحد يباع بألفي وزنة من البشنة ، وهو ما يعادل عشر حمولات بعير أو قطعتين من القماش الأسود المخيط وزوجا من التقاشير - وحمولتا بعير من الأرز ، ومزودان ، يباعان بقطعة قماش ذات مقاس ٤٠ تودي .

وإلى جانب أسلوب التبادل العيني للسلع هناك عدة عملات شاع استعمالها في تجارة القوافل الصحراوية بعضها محلية والبعض يستورده التجار من الخارج ومنها :

١ ــ عملة حديدية منتشرة في مناطق غينيا .
٢ ــ عملة نحاسية حمراء رقيقة ، وغليظة . ذات قيمة منخفضة جدا تساوي ٤٠٠ قطعة رقيقة منها ، دوخة واحدة .

٣ ــ عملة الملح المعدني الذي يقطع إلى قطع صغيرة مختلة الأشكال والأحجام تستغل في البيع والشراء . كما يستغل دقيق الملح كذلك خاصة في ولاته . فهناك قطع تساوي ٢٠ دوخة أو ١٦٠ فرنكا . وقطع تساوي ٣٠ دوخه أو ٢٤٠ فرنكا . وقطع تساوي ٤٠ دوخه أو ٣٢٠ فرنكا . وكانت حمولة الملح في تمبوكتو تساوي ٨٠ دوخه على عهد الحسن الوزان في القرن ١٥م . والملاحظ أن عملة الملح وتجارة الملح ، تكاد تكون أحتكار البدو الرحل الصحراويين ، ولا تستغل في واحة تغزة ، وبلمه ، لشهرتها بالملح .

٤ ــ الكـوري أو الودعـة ، وهي عملة هنديـة ، وفارسيـة ، ضعيفة القيمـة ، يستوردها التجار القادمون إلى الصحراء . وتشبـه عمله الزجـاج ، والجلد اللتين كانتا تستعملان في قرطاجنة على عهد القرطاجنيين . ويساوي مبلغ ١٠٠٠ توري ٠,٧٥ فرنكا .

٥ ــ البينتو : ٠,٧٥ ، وهي عملة أجنبية مستوردة .

٦ ــ الدوخة الذهبية ، والفضية .

٧ ــ الدراخمة : وهي عملة مستوردة من الخارج .

٨ ــ الدينار الشائع في بلدان المغرب العربي .

٩ ــ المثقال الذهبي : ويساوي ٦٩ فرنكا في تمبوكتو .

١٠ ــ المجيدي : ويساوي ٤,٥ فرنك .

١١ ــ المحبوب الذهبي الشائع في بلدان المغرب العربي .

١٢ ــ السلطاني الذهبي الشائع في بلدان المغرب العربي .

١٣ ــ الموزونة الفضية الشائعة في بلدان المغرب العربي .

١٤ ــ الصائمة النحاسية الشائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي .

١٥ ــ الدورو الفضي الشائع في بلدان المغرب العربي .

١٦ ــ الذهب على شكل قطع صماء ، أو سبائك ، أو تبرا

أسعار البضائع في السودان وطرابلس :

كانت تجارة القوافل الصحراوية مربحة كثيرا رغم الأتعاب والمشـاق التي يتكبدها التجار . وذلك من ضمن الحوافز التي دفعت الأوروبيين إلى التنافس على غزوها وأستعمارها خلال القرن ٩ م . فالحمولات التي تخرج من طرابلس الغرب سنويا إلى السودان لا يقل عددها على ألفين : (٢٠٠٠) حسب تقدير التـاجر الطرابلسي مختار بن زقلاو ، إلى الضابط بوزو ، ومعدل قيمة الحمولة الواحـدة ١١٠٠ فرنك وتحتوي على ٧٠ قطعة قماش مالطية تزن ثلاثـة قناطـر طرابلسيـة

(القنطار) الطرابلسي يزن ٥٠ كلغ (وعندما تطرح مصاريف جمارك الطريق تصبح قيمة الحمولة ٤٥٠ فرنكا ودخلها ٥٠٠ فرنك . وذلك يعني في تجارة الجملة ان ٢,٢٠٠,٠٠٠٠ فرنك بربع مليون فرنك .

فقطعة قماش مالطية القطنية ذات مقاس ٢٢ مترا تباع في طرابلس بمبلغ ٨ فرنكات ، وفي الجزائر بمبلغ ٣,٥ فرنك ، وفي كانوا بمبلغ ٨ آلاف كوري (١٦ فرنك) وفي تمبوكتو بمثقال ونصف ذهبي . والمثقاف يساوي ١٩ فرنكا .

وقد أورد كودراي نموذجا لأرباح التجارة الصحراوية ، وذكر أن الحصان الجيد الذي يساوي ٣٠ دوخه (٢٤٠ فرنكا) في شمال المغرب ، يباع في السودان بعدد ١٧ عبدا أسود معدل سعر كل واحد منهم ٢٥ دوخه في المغرب على أساس أن الذكر بمبلغ ٢٠ دوخه والأنثى ١٥ دوخه ، والخص بمبلغ ٤٠ دوخه ، وهو ما يعادل ٤٢٥ دوخه ، أو ٣٤٠٠ فرنك. فمبلغ ٣٤٠ فرنكا انتج ٣٤٠٠ فرنك منها ألف فرنك مصاريف الطريق والباقي وهو ٢٤٠٠ فرنك . منها ٢١٦٠ فرنك ربح صافي . وهو ما يعادل ٩٠٠٪ .

يشتري التجار البضائع الآتية : في السودان بالأسعار التالية :

العاج : من ٢٠٠ الى ٢٢٠ ألف كوري للقنطار الطرابلسي ٥٠ كلغ / وهو ما يعادل ٢٠٠ إلى ٢٢٠ فرنكا .

- ريش النعام : من ٥٠ الى ٦٠ ألف كوري للكيلو غرام ، أو ٥٠ إلى ٦٠ فرنك .
- تبر الذهب : من ٧ إلى ٨ آلاف كوري للمثقال .
- العبد الذكر : من ١٢٠ إلى ١٣٠ ألف كوري ، أو ١٢٠ إلى ١٣٠ فرنكا .
- العبد الأنثى : من ١٥٠ إلى ٢٠٠ ألف كوري ، أو ١٥٠ إلى ٢٠٠ فرنكا .

ويبيعونها في طرابلس بالاسعار التالية :-

- العاج : من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ محبوب للقنطار أو ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ فرنك

ـ ريش النعام : من ٥ الى ٤/١ ٥ محبوب للكيلو غرام . أو ٢٠ إلى ٢٢ فرنك .
ـ تبر الذهب : ٣ محبوب للمثقال . أو ١٣ فرنكا .
ـ العبد الذكر : من ٧٠ إلى ٨٠ محبوبا . أو ٢٨٠ إلى ٣٢٠ فرنكا .
ـ العبد الأنثى : من ١٠٠ إلى ١٢٠ محبوبا . أو ما يعادل ٤٠٠ إلى ٤٨٠ فرنكا .

اسعار النقل والجمارك :

ـ يدفع التجار ضرائب النقل في الذهاب والأياب حسب الكيفيات التالية :
ـ من طرابلس إلى غات ٢,٥ بينتو لثلاثة قناطر ونصف قنطار طرابلسية .
ـ من غات إلى أيفرون ١ بينتو للقنطار الواحد . أو ما يساوي ٧٠ فرنكا للحمولة الواحدة .
ـ من إيفروان إلى زندر ٢٠ ألف كوري للقنطار (٧٠ فرنك للحمولة) .
ـ من زندر إلى كانو ٥٠٠٠ كوري للقنطار (١٧,٥ فرنك للحمولة) .

ويتحايل التجار فيدفعون بضائع بسعر ما يعادل نصف القيمة الحقيقية للنقل وخلال العودة تنخفض اسعار النقل . وتتم على الشكل التالي :
ـ من كانو إلى ايفرون ٤٠ ألف كوري للحمولة (ما يعادل ٤٠ فرنكا) .
ـ من إيفروان إلى غات ٢,٥ بينتو للحمولة (ما يعادل ٥٠ فرنكا) .
ـ من غات إلى طرابلس ٢ بينتو للحمولة (ما يعادل ٤٠ فرنكا) .

وهناك نموذج آخر لأسعار النقل أورده ستوكلي على النحو التالي :

ـ من غدامس إلى غات ما بين ١٢ و١٥ قرش تركي للقنطار . (ما يعادل ١,٢٥ فرنك) .
ـ من غات إلى كانو ما بين ١٠ و٣٠ ألف كوري للقنطار الواحد (٦٠ ألف كوري لثلاثة قناطر أو ما يعادل ١٢٠,٠٠٠ فرنك .

- من توان إلى تمبوكتو ما بين ١٢ و٢٤ مثال لحمولة ٣ قناطر أو ٤٥ محبوب لحمولة ٧٠ قطعة قماش مالطية تزن ثلاثة قناطر طرابلسية . وهو ما يعادل ١٩٠,٠٠ فرنك .

ويتم الدفع بالنسبة للعنصر الأخير على الشكل التالي : من توات إلى تمبوكتو يدفع التجار ٥ محبوبات لتوارق الهقار ، و١٠ محبوبات أو نصف مثقال لعرب البرابش ، وبذلك تتكلف حمولة ١٥٠ كلغ من الجزائر إلى تمبوكتو ٣٨٠ فرنكا . أي ٢٥٠ فرنك لمائة كلغ .

- وإلى جانب أسعار النقل يدفع التجار ضرائب الجمارك في الذهاب والاياب : في غات : خلال الذهاب (مجيدي للحمولة (٤,٥ فرنك) و٢ مجيدي (وفرنك) خلال العودة .
- في أقاديس : ٢٠ فرنك للحمولة .
- في كانو : خلال الذهاب ٢٥ فرنك للحمولة وخلال العودة ٢٠ فرنك .
- في زندر : خلال العودة : العاج وريش النعام ٢٠ فرنك للحمولة والباقي ١٠ فرنك للحمولة .

نموذج من تجارة قوافل التوارق بالصحراء :

يتجمع التوارق كل عام في سبخة الدامرقو شمال سوكوتو ، ويؤلفون قافلة من سبع إلى ثمانمائة جمل . ويأخذون طريقهم إلى زندر خلال شهر نوفمبر . واحيانا ينظمون إلى القافلة التي تجهز وتقدم من طرابلس عبر غات إلى زندر وكانو .

وتحمل القافلة معها ملح سبخه الدامرقو المرغوب فيه كثيرا ، والأغنام والمعز ، وجمال اللحوم ، والسمن ، والجبن المجفف ، وبضائع الجلود المصنوعة والألبسة الصوفية السودانية والرحلة . ويبيع التجار هذه السلع بالتبادل : بقطع الشقة (قماش من نسيج الصوف ، والتمور ، والكتان ، وأغلفة ، السيوف والعمائر ، والمزاود ، والوسائد الجلدية ، والمهارس ، وقوارير الروائح والبشتنه ،

والأرز ، والعسل ، والنبال ، والخناجر ، والتروس ، والدروع السودانية والملاحف . وذلك في أسواق تيد يكلت ، وأقاديس ، وتمبوكتو ، وتشاد ، وغيرها .

فشقة قوات وهي ملحفة من نسيج الصوف تباع بعين صالح حسبما يلي :

ـ قطعة قماش بيضاء ذات مقاس ٢٠٠ كودي تباع بسعر ٤٥ الى ٥٠ فرنك .

ـ قطعة قماش سوداء ذات مقاس ٤٤ كودي تباع بسعر ٨ إلى ١٠ فرنك .

وشقة غات تباع حسبما يلي :

ـ قطعة قماش بيضاء ذات مقاس ٤٠ كودي تباع بسعر ١١ إلى ١٢,٥ فرنك .

ـ قطعة قماش سوداء ذات مقاس ٣٥ كودي تباع بسعر ٧,٥ إلى ١٥ فرنك .

وفي المقابل يشتري التوارق الهقاريون السلع في الأير بالأسعار التالية عن طريق التبادل بقطع قماش الشقة كذلك .

ـ الرحلة : تشترى بقطعة قماش ذات مقاس ١٠ إلى ٤٠ فرنك .

ـ القراب : بقطعة قماش ذات مقاس١٠إلى ٤٠ كودي .

ـ الوسادة : بقطعة قماش ذات مقاس ٥ إلى ١٠ كودي .

ـ المزود : بقطعة قماش ذات مقاس ٥ إلى ١٠ كودي .

ـ علبة الرائحة / بقطعةة ذات مقاس ٤إلى ٥ كودي .

ـ المهراس : بقطعة ذات مقاس ٥إلى ٦ كودي .

ـ القدهان : كور خشبية : بقطعة ذات مقاس ٥إلى ٦ كودي .

ـ النبال : بقطع ذات مقاس ٥ إلى ٦ كودي .

ـ السيوف : بقطع ذات مقاس . ١إلى ٦ قطع .

ـ التروس : بقطع ذات مقاس ١ إلى ٤ قطع .

ـ الدروع : بقطع ذات مقاس ١٠ إلى ٤٠ كودي .

ـ الذراع (قماش سوداني ملون) : بقطع ذات مقاس ٢٠ إلى ٨٠ كودي .

لهذا الأسلوب كانت تتم تجارة القوافل بالصحراء الكبرى ، سواء في ذلك القوافل الداخلية ، فيها بين المناطق الصحراوية نفسها . أو القوافل التي تأتي من مراكز العمران الشمالية الساحلية . وعن طريق هذه التجارة التي أزدهرت أزدهار كبيرا فيها بين القرن التاسع والقرن التاسع عشر الميلادي حصلت التأثيرات المختلفة في الميادين الثقافية والأجتماعية ، والدينية ، بل وحتى السياسية . وبرزت في قلب الصحراء مراكز حضارية هامة ما تزال تأثيراتها نفعا حتى اليوم تؤدي دورها الحضاري . وكان لشعوب شمال المغرب العربي دور رائد في هذا التأثير . وهو ما يحتم عليها أن تواصله اليوم بعد أن تحررت القارة وأقطار الصحراء وشعوبها من الأستعمار السياسي والعسكري الأوروبيين إذ ينبغي القضاء على ظروف العزلة ، والتخلف ، اللذين فرضهما الاستعمار الأوروبي فرضا عشرات السنين . وأرساء روح التعاون والتبادل في كل ميدان ، حتى تعاد من جديد روح الخلق والابداع لشعوب الصحراء وأفريقيا بصفة عامة .

معاهدة غدامس بين الفرنسيين والشيخ ايخنوخن :

لقد أسالت تجارة الصحراء الرابحة ، لعاب الأوروبيين ، فتكالبوا على القارة ولم يخف الفرنسيون رغبتهم في فتح أسواق الصحراء للتجارة الفرنسية خاصة بعد أن قاموا بتجربة إرسال قافلة من ستين جملا محملة بالبضائع الفرنسية الى تيميمون إنطلاقا من الأبيض سيدي الشيخ . ودرت عليهم أرباحا طائلة . فأستدعوا زعيم التوارق الديني الشيخ عثمان لزيارة الجزائر العاصمة ، وقسنطينة خلال حكم الماريشال راندون ثم دعوه مرة أخرى في عهد حكم الماريشال الدوق دوما لاتوف بيلبيسي لزيارة الجزائر العاصمة ، وباريس ، بصحبة اثنين من أفراد عائلته وأثروا فيه فقبل الشيخ الحاج أيخنوخن أبرام اتفاقية ٢٦ نوفمبر ١٨٦٢ بغدامس مع البعثة الفرنسية التي قادها كل من الضابط ميرشير والضابط بولينيات : والمهندس فاتون : والطبيب هوفمان .

ومن اهم ما نصت عليه :

١ ـ إقرار الصداقة والتبادل بين السلطات الفرنسية ، ورؤساء مختلف فروع وقبائل شعب التوارق .

٢ ـ يمكن للتوارق أن يمارسوا العمل التجاري في كل أسواق الجزائر دون أي قيد أو شرط ماعدا أداء المكوس العادية .

٣ ـ يلتزم التوارق بتسهيل وحماية عبور المفاوضين الفرنسيين لبلادهم ذهابا وايابا إلى بلاد السودان ، وحماية بضائعهم التجارية : على أن يدفعوا المكوس العادية .

٤ ـ تلتزم السلطات الفرنسية ، وزعماء التوارق . بفتح طرق التجارة للفرنسيين إلى أسواق السودان ، وإصلاحها ، وتحديدها ، وتحديد المكوس ، وضبطها ، وإصلاح الآبار ، وإزالة كل العراقيل في وجه نشاط التجار الفرنسيين .

٥ ـ بموجب التقاليد القديمة المنظمة للعلاقات التجارية بين بلدان شمال افريقيا ، وسكان التوارق تبقى عائلة الشيخ الحاج إيخنوخن مكلفه بضمان المرور لقوافل التجارة الفرنسية عبر بلاد أزقور . وتستمر هذه العلاقات التجارية القائمة اليوم كما هي بين عائلات أزقور ، والشعانبة ، والسواقه .

تدفع القوافل التجارية الفرنسية ، ضريبة محددة للشيخ إيخنوخن أو ورثائه ووكلائه يحددها الحاكم العام الفرنسي والشيخ إيخنوخن .

٧ ـ تسوى الخلافات التي تنشب بين الطرفين بالود والانصاف ، من طرف الشيخ أو ممثليه ، بمقتضى العادات المعروفة في البلد .

٨ ـ يلتزم الشيخ إيخنوخن ، والزعماء السياسيون الآخرون التوارق أزقور ، بربط

علاقات جيدة مع تـوارق قبيلة كلوي وتهيئة الـظروف الحسنة للمفـاوضين الفرنسيين لكي يمروا بسلام بقوافلهم عبر بلاد الايز .

وكان من نتائج هذه الاتفاقية ، كما ذكر ستوكلي ، بروز شخصية الشيـخ البكاي القلوي التارقي ، وتعاونه مع الدكتور بارت الالماني ، ومرافقته له في رحلته وحمايته من المسلحين الفلانيين أمام أسوار تمبوكتو مع العلم أن بارت قام برحلته فيما بين ١٨٤٩ ـ و١٨٥٥م .

هكذا كانت الصحراء الكبرى الأفريقية صلة وصل بين مختلف شعوبها . ومع شعوب العالم الأخرى في أوروبا ، وآسيا رغم المسافات الطويلة والشاسعـة ورغم قساوة الطبيعة والمناخ .

وهكذا كانت الصحراء الكبرى مهد الحضارات راقية خلاقة ، ومبدعـة ومركزاً لنشاط تجاري وصناعي واسعاً وهائلاً طوال العصر الوسيط ، والحديث وليس من الغـريب اليوم أن يعـود لهذه الصحـراء الكبـرى نشـاطهـا التجـاري والمعماري والحضاري ، في أطار استثمار ثرواتها الطبيعية الهائلة التي تزخر بها من طاقة ومعادن ، ومنتوجات زراعية متنوعة .

وليس من الغريب كذلك ان تستهوي الصحراء اليوم الاوروبيين مرة اخرى بثرواتها الطاقوية ، كما استهوتهم امس بنشاطها التجاري الحيوي .

ولكن اليوم ليس هو الأمس على اي حال بثروات الصحراء الكبرى لابد أن تستثمر قبل وبعد كل شي لصالح التنمية الوطنية والقومية لشعوبها . وعائـدات البترول والغاز لابد أن تسخر للقضاء على العزلة والتخلف الفظيعين اللذين خلفهما الاستعمار الأوروبي الراحل .

ولا بـد أن يعود للصحـراء الكبرى وجههـا المشـرق الأصيـل ، بـالبنـاء والتعمير ، كشف الطرق البرية والحديديـة ، وبناء المطارات ، وانشاء القـرى

العمرانية لتوطين البدو الرحل ، وإيصال المياه والكهرباء إليها ، وبنـاء المدارس والمعاهد للتكـوين العلمي والثقافي ، والبحث عن الميـاه الجوفيـه ، واستصلاح الأراضي الزراعية ، وتنويع المزروعات وفقا للتطورات العلميـة الحديثـة وخلق فرص العمل للانسان ، والقضاء بصفة نهائية على حياة الترحل ، وشن حرب على الأوبئة ، ومراتع الذباب ، والناموس ، وما إلى ذلك من الحشرات المعدية وتشجيع الصناعة التقليدية المحلية ، والمقومات الوطنية الأصيلة الثقافية والاجتماعية .

بهذا ، يعود للصحراء الكبرى وجهها المشرق الاصيل ، ويعود لشعـوبها مركزها ومكانتها بين الأمـم الراقية .



تجارة القوافل بين شمال وغرب افريقيا وأثرها الحضاري

الدكتور السر سيد أحمد العراقي
كلية الآداب ـ جامعة أم درمان الاسلامية

الاتصال بين أفريقيا جنوبي الصحراء ، وغربيها بصفة خاصة(1) ، وبين العالم الخارجي ظاهرة قديمة ومستمرة منذ الأزمنة السحيقة ، وقد دلت الآثار المكتشفة حديثا ، على أن غربي أفريقيا كان مركز نشاط ومدنية منذ أقدم العصور . بل هناك اعتقاد بأن أقدم الصناعات التي ترجع إلى العصر الحجري القديم وفدت من شمال أفريقيا إلى غربيها عن طريق البر ، منذ كانت الصحراء خصبة مسكونة من نحو ٤٠ ألف سنة ودلت كذلك على أن صناعة الحديد قديمة في بلاد غربي أفريقية . ومن المحقق أن أول تيارات الحضارة من زراعة وحيوانات مستأنسة ، استقبلتها أفريقيا الزنجية جنوبي الصحراء ، جاء من مصر ، مثل الثور ، وأصله آسيوي . والغنم والماعز والحمار النوبي المستأنس والدجاج المستأنس كذلك وصلت

---

(١) المقصود بغربي أفريقيا ، جغرافيا ، بلاد السودان الأوسط والغربي وتمتد هذه البلاد من بحيرة تشاد في الشرق إلى ساحل المحيط الأطلسي في الغرب ، وتقع بين خطي عرض ٩ و١٧ شمالاً . كذلك تعرف هذه المنطقة فيها أسماه كتاب أوروبا في العصور الوسطى باسم « نجرشيا » Bigritia نسبة إلى نهر النيجر ـ انظر كتابي : نظام الحكم في الخلافة الصكتية ، ص ٥ وما بعدها ، الخرطوم ١٩٨٣ .

نباتات وحبوب مثل الذرة والقرع الفول والبسلا والبطاطس والقلقاس والذرة العويجة أو الدخن . ومن الصناعات المصرية : بناء القوارب وبناء الأكواخ ، واستعمال الطوب النيء وهي مرحلة متقدمة في فن العمارة انتشرت في تلك البلاد . ومن الأدوات المنزلية : الكراسي والوسائد ، وكذلك بعض الآلات الموسيقية مثل الطبول وأنواع من القيثارة ، بل وألعاب رياضية مثل الأرجوحة ، والأسلحة مثل الدروع والأقواس والرماح[٢] .

نشطت حركة المواصلات والتبادل التجاري بواسطة طرق القوافل التي تملأ الصحراء الكبرى ، على مر القرون ، وساهم الفينيقيون بقسط كبير في نقل منتجات وسط أفريقيا وغيرها إلى بلاد البحر المتوسط وأوروبا بعد أن تصل إلى موانىء شمال أفريقيا[٣] . وكلماازداد الاتصال ، ازدادت المعرفة بثروات تلك البلاد ، وازداد النقلة من وإلى بلاد السودان الغربي والأوسط على أثر دخول الجمل أفريقيا ، وقلت الأخطار والمخاوف التي تكتنف السفر داخل الصحراء ، ولوحظ هذا الإزدياد وهذا النشاط منذ القرن الرابع الميلادي تقريبا[٤] . وكان سكان شمال أفريقيا من فينقيين ويهود واغريق ورومان وبربر وعرب يشجعون تجارهم على تنمية علاقاتهم التجارية وغيرها مع غرب أفريقيا ، وعقد هؤلاء التجار معاهدات تجارية مع مواطني غرب أفريقيا في العصور الوسطى .

---

(٢) طرخان ، ابراهيم علي : البرتغاليون في غرب أفريقيا ص ٣٦ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٧ John-ston, H. H., **A History of the ColoniZation of Africa by Allien Races**, PP. 15-19-20, Camb. 1913.

(٣) طرخان المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٤) ذكر طرخان أن الجمل دخل مصر لأول مرة على يد الفرس في القرن السادس قبل الميلاد وأن يوليوس قيصر استولى على ٤٦ جملاً في واحة سيوه ، ومن بعد قيصر أكثر الرومان من استخدام الجمل ، ويقال كذل أن الملة التي قادها سبتيموس فلاكوس Septimus Flaccus من شمال أفريقيا ووصلت إلى حدود بلاد السودان جنوبي الصحراء الكبرى حوالي عام ١٩ ق . م ، استخدمت الجمل واعتمدت عليه في تحركاتها . = طرخان ، نفس المرجع ص ٢٧ .

وبزيادة الاتصالات وسهولتها ، كثرت هجرات عربية من الشرق وشمال أفريقيا إلى بلاد السودان جنوبي الصحراء ولا سيما بعد ظهور الإسلام . فبعد الفتح العربي الاسلامي لمصر عام ٢٠ هـ (٦٤١ م) ، وما تلاه من فتح شمال أفريقية ، وصلت حملات إسلامية إلى منطقة : كاوار Kawar قرب بحيرة تشاد حوالي عام ٤٦ هـ (٦٦٦ م) ، وإلى السنغال عام ١٠٢ هـ (٧٢٠ م) ، وأدت إلى استقرار أعداد كبيرة منهم في بلاد السودان على حافة الصحراء وإلى اختلاط هؤلاء بالسكان الأصليين ، مما كان له أكبر الأثر في تغير ألوان الزنوج عبر القرون ، في تلك المناطق ، حتى كان استخدام كلمة « أسود » للدلالة على سكان مناطق السافانا جنوبي الصحراء أدق من كلمة « زنجي »(٥) ، ولكثرة الآثار الشرقية والإسلامية وتنوعها في العصر الإسلامي ، ظل العالم الأوروبي لبضعة قرون ، يعتقد أن بلاد السودان والصحراء في شماليها ، ليست سوى جزء من البلاد الداخله في نطاق العالم الإسلامي(٦) .

تمكن المسلمون في شمال أفريقيا من بعد ذلك ، أن يحتكروا تجارة القوافل عبر الصحراء ، بل وتمكنوا من أن يتصلوا بقلب أفريقيا اتصالاً مباشراً ، ولأسباب دينية وتجارية أصر المسلمون في شمال أفريقيا على احتكارهم المطلق للقيام بدور الوسيط مع الأقاليم الداخلية في أفريقيا عبر الصحراء . ولذلك اقتصر نشاط التجار المسيحيين على المناطق الساحلية من بلاد شمال أفريقيا .

من أجل هذا ظلت المعلومات عن قلب وقفاً على المسلمين وبعض اليهود الذين كانوا منذ القدم يكونون عنصراً هاماً من سكان المغرب . ومن المغرب تسرب عدد من اليهود إلى الواحات الصحراوية حتى بلاد السودان ، ويقال أن اليهود

---

(٥) الاصطخري ، أبو اسحق ابراهيم ، المسالك والممالك ، تحقيق الحيني ص ٣٤ ، ٣٥ ، القاهرة ١٩٦١ . / ياقوت ، أبو عبداله ، ١٢٢٩ ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ، مصر ١٩٠٦ .

(6) Johnston, OP. cit., PP. 15-20 Davidson, B., Old Africa Rediscovered, PP. 70-73, London 1959.

أسبق من البربر في سكن الواحات الصحراء الداخلية ولا سيما واحة توآت[7] . Tuat

لهذا كله يمكن القول أن هناك علاقة تجارية قديمة بين البلاد التي كان العرب يطلقون عليها اسم المغرب[8] ، وبين البلاد الواقعة جنوب الصحراء ، وكان ذلك قبل القرن السابع الميلادي ، أي قبل دخول الإسلام في القارة الأفريقية .

طرق القوافل :-

لقد اشتهرت عدة طرق للقوافل ، كانت تبدأ من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر متجهة إلى الجنوب فتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز الرئيسية في غربي أفريقية ، مثل غانا القديمة ، وإلى تمبكتو (تنبكت) وولايات الهوسا وكانم - ويرنو وغيرها . وقد تتصل بعض هذه الطرق في الصحراء ثم تتفرع إلى جهات مختلفة . فمثلاً القافلة التي تبدأ من القاهرة تتجه أولاً صوب المغرب إلى أوجله ومرزوق وهناك تتصل بقافلة أخرى من طرابلس فيتجه بعضها نحو الجنوب إلى كانم برنو بواسطة بلما ، في حين أن بعض القوافل يستمر جنوباً إلى أن يصل إلى غاط Gatt حيث يلتقي بقافلة أخرى من تونس ، ثم يتجه صوب الجنوب إلى

---

(7) Johnston, P.P. 39-40.

(٨) حدّ المغرب كما يذكره ابن عذارى المراكشي « هو من ضفة النيل بالاسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب ، وحدّه مدينة سلا . وينقسم أقساماً : فقسم من الاسكندرية إلى طرابلس وهو أكبرها ، وأقلها أمارة . وقسم من طرابلس وهي بلاد الجريد ، ويقال أيضا الزاب الأعلى ، ويلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل وحدها إلى مدينة تيهرت ، ويليها بلاد المغرب وهي بلاد طنجة ، وحدّها مدينة سلا وهي آخر المغرب (ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة ج . س كولان و أ . ليفي بروفشال ، دار الثقافة ، بيروت ، جـ ١ ص ٥ .

ولايات الهوسا عن طريق أهـير Ahir . ووصف لنا المؤرخ Fage[٩] تلك الصلة التجارية التي كانت قائمة بين المغرب وغربي أفريقيا بين القرن الخـامس والقرن الثامن عشر حيث ذكر عدة طرق تجارية في تلك الفترة . ويذكر المؤرخ بوفيل Bovil أربعة طرق رئيسية كانت تربط بين الشمال والجنوب وهي :[١٠]

١ ــ من سجلماسة إلى ولّات ثم تتجه إلى بلاد السنغال وأعالي نهر النيجر حيث الذهب .

٢ ــ ومن غدامس إلى بلاد الهوسا الغنية عن طريق غاط وأهير .

٣ ــ ومن طرابلس إلى البرنو ونهر تشاد مارة بفزان وكوار .

٤ ــ ومن قورنية Gyrenaica إلى واد اى عن طريق كفرة

وأهم المراكز القديمة التي تتصل بموضوعنا هي غانه القديمة وتمبكتو وجاو Goa وجان Janne وكنو Kano وكثنه Kat sina وكانم ـ برنو Kanim-Bornu

وقد أصبحت كل هذه المراكز تجارية وثقافية مشهورة ، وكان فيها أسواق مشهورة يؤمها كثير من التجار من شتى البلاد المغربية ، وقد قام كل منها بنشاط في نشر الإسلام والثقافة العربية في مختلف الأزمان . وكان أولئك التجار يحضرون معهم إلى غربي أفريقيا تلك البضائع المطلوبة كالحرير والسروج والنحاس والملح والأدوات وأنواعاً شتى من منسوجات فيبيعونها ويشترون الذهب والجلود والعاج والعبيد

وقد أصبحت كل هذه المراكز تجارية وثقافية مشهورة ، وكان فيها أسواق

---

(9) Fagi,-J., **An Atlas of African Histery,** Cambridge 1958, P. 17.

(10) Bovil, E.W., **The Golden Trade of The Moors, London 1958. P. 52.**

مشهورة يؤمها كثير من التجار من شتى البلاد المغربية ، وقد قام كل منها بنشاط في نشر الإسلام والثقافة العربية في مختلف الأزمان وكان أولئك التجار يحضرون معهم إلى غـربي أفريقيـا تلك البضائـع المطلوبـة كالحـرير والسـروج والنحاس والملح والأدوات وأنواعاً شتى من منسوجات فيبيعونها ويشترون الذهب والجلود والعاج والعبيد وغير ذلك(١١) . ويقال أن التجـارة ظلت لعدة قـرون بأيـدي الإغريق والرومان قبل دخول العرب بعد فتح شمال أفريقيةودخول الإسلام إليها(١٢) . كما سبق القول ـ وقد لعب الملثمون دوراً هاماً في تلك التجارة فهم الذين يعرفـون الطرق الصحراوية ، وبعد دخول الجمل إلى أفريقيا كـانوا هم الـذين يسوقـون القوافل ، وهم الذين يحفرون الآبار أيضا ويحتفظون بها . والملثمون هم الطوارق من القبائل الصحراوية(١٣)

فجعل العرب بعد ذلك يجتازون الصحراء الكبـرى ويتوغلون في أفـريقيا التماساً للرزق . وكانوا يتجرون في البضائع نفسها التي كان يتجر فيها من قبلهم من التجار . وتذكر بعض المراجع أن المسلمين من المغرب ومصر كانوا في العقود الأخيرة للقرن السابع الميلادي أو الأول الهجري يغشـون الأسواق الـرئيسية في أفريقيا ، بل أن بعضهم كان يقيم هناك سفيراً أو وكيلاً لمن يسكن في ساحل البحر المتوسط من التجار ، فتأتي إليه البضائع ليوزعها على الأهالي ، كما يجمع منهم تلك البضائع التي يصدرها إلى الساحل ، ومن هنـاك إلى أوروبا وإلى الشـرق(١٤) . وبعض هؤلاء استقروا فيما بعد ، وتزاوجوا مع الأهالي فأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منهم .

وهذه العلاقة التجارية بين العرب وغربي أفريقيا التي بدأت في القرن السابع الميلادي وازدهرت بعد القرن الحادي عشر هي فيها أعتقد أولية اللغة العربية في

(١١) Fage, J,. An Introduction, To ThiH istory of Africa. Cambridge, 1961, P. 12.

(١٢) انظر دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٨ .

(١٣) Bovil, Op. cit., P.51

(١٤) Bovil, Obid, P.P. 51-52.

أفريقيا . ولقد ظلت هذه العلاقة بطريقة سلمية طبيعية منذ ذلك التاريخ إلى أن تمت بانتشار الإسلام في القارة الأفريقية . فالتجارة بطبيعة الحال تلزم معها إيجاد لغةالتخاطب بين البائع والمشتري ، كما تولد الصلة القديمة بينهما ، وبما أن اللغة العربية كانت أرقى من اللغات المحلية ، فمن الطبيعي أيضاً أن تكون هي اللغة المستعملة في ذلك الزمن[١٥] . ومن الطبيعي أيضاً أن يلتقطها التجار الأهالي من إخوانهم العرب وينشرونها فيما بينهم . وهذا أمر واقعي نراه في أسواقنا إلى يومنا هذا : يذهب أحدنا مثلاً إلى الأسواق الرئيسية اليوم فيجد التاجر فيها ملماً بعض الإلمام باللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات الأجنبية . كما أننا نرى الشيء نفسه في أسواق غربي أفريقيا الرئيسية في تشاد أو في نيجريا أو في مالي والسنغال وغيرها . فنرى في سوق كنو وصكت مثلاً تجاراً يلمـون بعض الشيء باللغة العربية وبعض اللغات الأجنبية كالانجليزية والفرنسية . وكل ذلك لم يكن بواسطة دراسة منظمة في المدارس ولكنها دراسة عملية يومية يمارسها التاجـر هو وبنوه في متجره .

هذه العلاقة التجارية اذن هي التي وضعت الحجر الأساسي للعربية في أفريقية . بدأ أولئك التجار يدخلون كلمـات وتعابـير عربيـة في تلك المناطق ،

---

(١٥) ومما يذكر أن التبادل التجاري في غرب أفريقيا وخاصة في المنطقة المشهورة بكثرة الذهب وهي الونقارا Wangara كانت في العصور الأولى عن طريق ما يسمى بالتجارة الصامتة Silint Trade حيث يأتي التجار من المغرب بسلعهم ويضعونها منتظمة في مكان معروف ثم يختفون . وعندئذ يخرج الأفارقة ويضعون بجوار كل سلعة نظيرها من الذهب ثم يختفون أيضاً ، فيأتي بعد ذلك التجار ، فإذا رضوا بقيمة الذهب الموضوع أخذوه وانصرفوا ، وإلاّ تركوه واختفوا مرة ثانية ثم يخرج الأفارقة فيزيدون من كمية الذهب وهكذا تستمر العملية إلى أن يقتنع كلا الطرفين . = Bovillbid., P. 83.

طـــرخان امبرطورية غانا في

طـــرخان امبرطورية غانا في العصـور الوسـطى ، الهيئة المصـرية العـامة للتـأليف والنشر ١٩٧٠ ، ص ٧٠ وما بعدها = حيث أورد وصف المسعودي لتلك التجارة الصامتة والظاهر أن التبادل التجاري كان بهذه الطريقة البدائية أولاً ثم تطور إلى التخاطب والتفاهم وجهاً لوجه .

فانتشرت تلك الكلمات والتعابير تدريجيا حتى توغلت في تلك ربوع أفريقية واندمج بعضها في اللغات المحلية وخاصة بعد انتشـار الإسلام . ومما يؤكد هـذا وجود كلمات عربية كثيرة في بعض اللغات الأفريقية مثل لغتي الهوسا والفـولي ،[١٦] وخاصة أسماء تلك البضائع التي كانت تصدر إليها من المغـرب في تلك القرون الغابرة ، وهذا فضلاً عن الكلمات والتعابير الإسلامية التي دخلت مـع دخول الإسلام . فنجد في لغة الهوسا مثلاً أن أسماء هذه البضائع عربية . فكلمة السرج والحرير والزعفران واللجام والقلم والدواة كلها وافدة عـلى لغة الهـوسا وتنـطق بتحريف بسيط . وسنرى فيما بعد عند الكلام عن دخول الإسلام في نيجريا كيف انتشرت هذه اللغة انتشاراً عظيما بانتشار الإسلام ويكفي هنا أن نشير إلى أن هذه اللغة بدأت تدخل على أيدي التجار العرب ولكنها كانت في نطاق محدود لا يعرفها إلا التجار ونحوهم اللهم إلا ما جاء من أسماء تلك البضائع الوافدة التي لم تعرف من قبل ذلك ، والتي لا بد أن تسمى بأسمائها العـربية عنـد العرب مـع ذلك التحريف البسيط الذي أشرنا إليه سابقاً .

أدى ازدياد حركة المواصلات ، واستمرار التبادل التجاري ونشاطه بواسطة طرق القوافل التي ملأت الصحراء الكبرى في العصور الوسطى ، أن اعتنق معظم سكان الحزام السوداني الإسلام بحماس ، وعن طريق الإسلام دخل قدر كبير من المدنية والعلوم الإسلامية ، بجانب مظاهر الحياة الإسلامية والشرقية . وبرز في رحاب الإسلام بتلك البلاد عدد كبير من العلماء الإفريقيين السود ، الذين كتبوا باللغة العربية في شتى فنون المعرفة ، ومن بينها التاريخ القومي لبلادهم[١٧] . ثم بالإسلام ظهرت الامبراطوريات الكبـرى مثل غـانا ومـالي وصنغي وكانم وهي

---

(١٦) لغة الفولي أو الفلدي أو الغلبي هي اللغة التي تتحدث بها قبيلة الفلاني أو الفلانيون في غـرب أفريقيا .

(١٧) طرخان ، الإسلام اللغة العربية في السودان الأوسط والغربي ص ٣١ وما بعدها ، دار النهضة ١٩٦٩ . ـ طرخان ، قيام امبرطورية مالي ص ٤ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧٠ .

الامبراطوريات الأفريقية الوطنية ، التي ناضلت الاستعمار الأوروبي . إذن لم يخطىء جولي Gouilly الفرنسي حين قال : أنه بالإسلام يبدأ العصر التاريخي لأفريقيا السوداء . والمقصود بالعصر التاريخي هنا ، ازدهار الحضارة الأفريقية القومية الإسلامية ، حيث برزت الخصائص المميزة للحياة الإنسانية في تلك البلاد ، وقامت حكومات ونظم إدارية متقدمة ، ويمثل الإسلام القوة الدافعة المحركة ، التي خطت بالحياة في غربي أفريقيا تلك الخطوات ، الحضارية القومية(١٨) .

ففي الحقيقة منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) إلى حوالي منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، حفلت بلاد السودان الأوسط والغربي بالآلاف من المسلمين الوطنيين والمستوطنين ، ومن الرحالة والتجار المسلمين من شتى أصقاع العالم الإسلامي : من المشرق ووادي النيل بصفة خاصة ، ومن بلاد المغرب العربي في شمال أفريقيا . كما سافر عدد كبير من المسلمين الوطنيين في غرب أفريقيا لأداء فريضة الحج وطلب العلم في القيروان وفاس والأزهر وفي مكة والمدينة . ونهضت تلك البلاد التي أمها المسلمون الإفريقيون لشتى الأغراض بما ينبغي عليها من الوفاء ، الذي سجله التاريخ ، من تيسير الرحلة وحسن الاستقبال وتيسير سبل العلم ، بجانب تبادل المنافع التجارية ، بل اختلطت دماء الإفريقين السود بغيرهم من المسلمين مما زاد في الرابطة ووثق في العلاقة فأدى هذا كله إلى تجاوز شهرة المدن الافريقية الزاهرة حدود القارة أمثال كومبي صالح في غانه ومالي وجنى وتمبكتو وولاته وتكره وونقاره وغيرها ، وقد قامت حضارة هذه البلاد في معظم بلاد أوروبا المعاصرة إذ كانت حضارة هذه البلاد على صلة وثيقة بأرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة وهي الحضارة الإسلامية(١٩) .

---

(18) Trimingham, J. J.S., islmin in West Africa Oxford, 1959, PP. 13-14 seg.

(١٩) لقد أعطى عدد من المؤرخين والجغرافين العرب بعض معلومات عن أفريقيا قبل ذلك مثل الطبري

كانت غانا أقدم الممالك الأفريقية ، والراجح أن يكون الإسلام قد دخل إلى غانا عن طريق السلم ، وانتشر بالطريقة نفسها فيكون التجار والدعاة الذين دخلوهاأفراداً ووفوداً هم الذين قاموا بنشره ثم توسع كثيراً بعد حركة المرابطين وتوغل في غربي أفريقيا ووسطها . ومما يذكر أن المرابطين كانوا يرسلون العلماء بين القبائل السودانية لبث العقيدة الصحيحة . وبفضل هذه الحركة نشطت الاتصالات التجارية والثقافية بين بلاد السودان وبين العالم الإسلامي[٢٠] . ولقد كان للثقافة الإسلامية العربية أثر واضح في حكومة غانا القديمة قبل دخول المرابطين . فالمسلمون هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة فلذلك كانوا هم الذين يتولون إدارة الدواوين ، ومنهم الوزراء الذين كانوا يساعدون الملوك الوثنيين . وقد ذكر البكري : « أن تراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه[٢١] . فهذا أكبر دليل على انتشار الثقافة الإسلامية . فإذا كان هذا هو الحال قبل استيلاء المرابطين عليها فمن المتوقع أن تتوسع تلك الثقافة وتنتشر بعد أن أصبحت مملكة غانا دولة إسلامية .

ثم أخذت مملكة مالي دور غانا بعد اختفائها من المسرح التاريخي السياسي[٢٢] ، فواصلت عملية نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية ووصلت أوجها بين القرنين الثالث والرابع عشر . وأصبحت من كبرى الدول الإسلامية التي قامت في غربي أفريقية في تلك العصور . وكان أهلها متمسكين بالإسلام

في كتابه تاريخ الأمم والملوك واليعقوبي في تاريخ البلدان وغيرهما ولكنها كانت معلومات عامة غير مفصلة فلم تظهر مراجع مهمة أعطت لغربي حقها في البحث والدرس إلا في القرن الحادي عشر وما بعده .

(٢٠) البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، تحقيق م . س د ، سلان باريس ١٩٦٥ ، ص ١٧٥ ، (ولد البكري عام ١٠٢٨ م وتوفي بالأندلس ١٠٩٤ انظر كذلك :

Bovil. Op., cit P. 61.

(٢١) البكري ، ص ١٧٨ وما بعدها .

(٢٢) **Encyclopaedia of Islam** Vol. 4. PP. 489-490 Bovil, P.90.

متحمسين له وخاصة قبيلةالماندجو . وقد اعطانا ابن بطوطة صورة واضحة لهذه المملكة لما زارها في سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) ، وقد أعجب بشدة عنايتهم بحفظ القرآن حيث قال : « وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون ، فقلت له ألا تسرحهم ؟ فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن »[٢٣] .

هذا ويتضح مما سبق أن الإسلام قد دخل غربي أفريقيا ووسطها أولاً بطريقة سلمية ، وهي طريقة التجارة والدعوة ، وبما أن دولة غانا كانت أقدم دولة أفريقية في تلك المنطقة ، فمن الطبيعي أن يدخل الإسلام إليها ثم ينتشر منها إلى البلاد المجاورة . وبعد سيطرة المرابطين على دولة غانا[٢٤]وسيطرة المسلمين التامة على طرق القوافل التجارية منذ مطلع القرن الحادي عشر أصبح الإسلام ينتشر بسرعة فائقة عن طريق الفتح والتجارة والدعوة . وبهذا توسع نطاق الإسلام في البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى . وتعتبر حركة الشيخ عثمان بن فودى الإصلاحية في مطلع القرن التاسع عشر من أعظم مراحل انتشار الإسلام في غربي أفريقيا . فأدت حركة الجهاد الواسعة النطاق التي قادها عثمان بن فودي إلى تأسيس خلافة إسلامية قوية[٢٥] شملت معظم ولايات الهوسا ثم اتسع نطاقها حتى شمل ما يربو على نصف مساحة نيجريا الحالية من الناحية الشمالية[٢٦] ، وتمكن

---

(٢٣) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة بولاق ١٩٣٤ ، جـ ، ص ٣١٢ .

(٢٤) السعدي الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر ، تاريخ السودان ، تحقيق هوداس ، باريس ١٩٦٤ ، ص ٩ / حسن ابراحيم حسين ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ص ٩٩ ، القاهرة ١٩٦٣ .

(٢٥) محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودي ، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور تحقيق ونتج Whitting ، لندن ١٩٥١ وحققه أبو بكر قمى في القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٣ .

(٢٦) أسس الشيخ عثمان بن فودي ما عرف التاريخ باسم الخلافة الصكتية (١٨٠٤ ـ ١٩٠٣) نسبة إلى العاصمة صكت Sokoto انظر كتابي نظام الحكم في الخلافة الصكتية ص ٧ وما بعدها ، الخرطوم ١٩٨٣ . انظر كذلك : الشيخ عثمان بن فودي ، إحياء السنة وإخماد البدعة ، مخطوط موجود

حكام الخلافة من التحكم على طرق القوافل التجارية ، فساعد ذلك على انتشار الإسلام في بلاد جديدة لم يصلها المسلمون قبل . فذكر كلابرتون أن طرق القوافل الآتية من شمال أفريقيا إلى داخل أراضي الخلافة كانت أكثر أماناً وسهولة في القرن التاسع من القدوم عن طريق البحر(٢٧) . وقد احتفظ الطريق القديم الآتي من شمال أفريقيا إلى بلاد السودان الأوسط بأولويته في خلال هذا القرن . وهذ الطريق يمتد من طرابلس عبر فزان إلى بحيرة تشاد إلا أنه فقد أهميته ، فأدى إلى اضمحلال سلطة برنو ، لأنه أصبح عرضة للخطر . وعلى ذلك انتعشت طرق التجارة الأخرى إلى داخل أراضي الخلافة ، فامتدت شبكة الطرق التجارية الى كنو ومنها في كل اتجاه : فالى المشال كان طريق القوافل إلى اقاديس Agades ويتجه نحو مراكش وتونس والجزائر ثم إلى داخل البحر المتوسط . وطريق آخر من كنو إلى أراضي برنو وكان قد أغلق إبان الحرب مع برنو ثم أعيد فتحه بعد ذلك ، فهو يقود إلى وادي ودارفور ، ثم منطقة وادي النيل . وإلى الجنوب الشرقي نجد طريقاً آخر يسلك إلى باوش واداماوا ، وهما المناطق الهامة لتصدير الرقيق والعاج . وإلى الجنوب طريق رابع يؤدي إلى بدا Bida والورين وبلاد اليوربا . وإلى الجنوب الغربي نجد طريقا يعبر إلى الاشانتي . ثم هناك طريق سادس يسير إلى جوا وتمبكتو(٢٨) .

في ظل هذا الإزدهار وتلك الحماية التي وجدتها تجارة القوافل ، تسربت الثقافة العربية الإسلامية إلى بلاد جديدة لم تطأها أقدام المسلمين ، فوصلوا إلى

بكنو ، نشر وطبع في القاهرة عام ١٩٦٢ انظر أيضاً :

Last, Murray, **The Sokoto Caliphate,** London, 1967, p. 46 Seg./Johnston, H.A.S., The Fulani Empire of Sokoto, London 1967, p.p. 17-19.

(٢٧) Claperton, Narrative of Travels and Discoveries in Northern and **Central Africa in the years: 1822-1823-, 1924.,** Vol. 2. p. 271.

(28) **iscoveries in North and central Africa,** vol. 3., p. 117 second edition 1857./ Arnett, j., sokto Provinc 72.

أراضي دندى ويورى ونوبى ، ثم توغلوا جنوبا حتى بلاد الاشانتي وداهومي[٢٩] .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ، تمكن السنوسيون من التحكم في طرق القوافل عبر الصحراء الكبرى . وكانت السنوسية التي بدأت بحركـة دينية ، لم تلبث أن اتجهت إلى الناحية الاجتماعية[٣٠] . فشجعوا تحويل البدو الـرحل في الصحراء إلى مزارعين مستقرين حول الآبار ، وأنشأوا في مناطق الاستقرار مراكز دينية هي التي أسموها الزوايا (أو الخلاوي) ومن هذه الزوايا انتشرت الـدعوة السنوسية . وكانت الطريقة السنوسية تتيح الفرصة لاتباعها لأن يكونوا مبشرين بالطريقة ومعلمين لمبادئها ومزارعين لأرضها ، فإذا دعا الأمر أصبحوا مجاهدين في سبيلها . ورغم هذه الوظائف الهامة للزوايا فإنها كانت تقوم بدور أخطر من ذلك كثيراً ، لأن الزوايا كانت تقع على طريق القوافل المتجهة من شمال أفريقيـا إلى وسطها شرقاً وغرباً ، وفي هذا المجال قامت الزوايا بواجبات الضيافة للمسافرين ثلاثة أيـام بلا مقـابل كعـادة العرب . وعن طـريق هؤلاء المسافـرين إلى أنحاء أفـريقيا ، والـطلبة الافريقيين عنـدمـا يعـودون إلى أوطـانهم ، أصبحـوا دعـاة للسنوسية ، وانطلقوا إلى أفريقيا لنشر الدعوة ، فتغلغلت السنوسية حتى وصلت إلى قلب أفريقيا . وانطلق دعاة السنوسية ينشرون الإسلام كـما تفهمه الـطريقة السنوسية ، ينشرونه بين أعراب الصحراء وقبائلها وينشرون الإسلام بين القبائل الوطنية في قلب أفريقيا[٣١] . وبفضل حركة التبشير هذه دخل الإسلام واكتسب أنصاراً في واداي والباقرى وبوركو والنيجر والأدنى وبـرنو والكـونغو والكمـرون والداهومي ، وحـول بحيرة تشـاد التي أصبحت بفضل جهـد السنوسيـة مركـز الإسلام في وسط أفريقية ، ودان بتعاليمه من حولها أربعة مـلايين من السكـان

(29) Balogum soka adegbite Owandu Emirates in the Nine Teeth century, abadan 1970.

(٣٠) لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٢ ص ١٤٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، تعليق شكيب ارسلان ، بيروت ١٩٧١ / ارنولد توماس ، الـدعوة إلى الإسـلام ، ص ٣٧١ ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ،عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحاروي ، القاهرة ١٩٧١ .

(٣١) الدجاني ، أحمد صدقي ، الحركة السنوسية ، نشأتها ونموها .

الأفريقيين . . . . . . وعلى أيديهم كذلك دخل الإسلام السودان الأوسط ، حتى لنستطيع أن نقول أنهم هم الذين صنعوا الحزام الإسلامي لأفريقيةجنوبي الصحراء من سواحل الصومال شرقاً إلى سواحل السنغال في الغرب . والسنوسيون هم الذين حاربوا الفرنسيين في مملكة كانم ومملكة وادي قرابة الخمسة عشر عاما (١٣١٩ - ١٣٣٢ هـ) (١٩٠١ - ١٩١٤ م) قد قاوموا الغزو الإيطالي لليبيا ، ودامت مقاومتهم البطولية عشرين عاماً[٣٢] .

مما تقدم ، نستطيع أن نقول أن حركة القوافل ونشاطها المستمر ، وازدهار التجارة واستمرارها بين شمال وغربي أفريقيا على مر الأزمان والأجيال ، قد ساعد إلى حد كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية االاسلامية في القارة الأفريقية جنوب الصحراء ، والفضل يرجع إلى التجار والدعاة الذين قاوموا المخاطر واجتازوا الصعاب .

تجارة القوافل في المغرب

د. محمد زنيبر

من أهم النتائج الايجابية لدخول الاسلام الى بلاد افريقيا والمغرب ما حدث من توسيع لشبكة الاتصالات الانسانية والإقتصادية داخل القارة السمراء ، فأتيحت بفعل ذلك لبقية العالم ، شرقا وغربا فرصة الاستفادة منها ، وتنمية ثروته وموارده وهذا الوقاع الذي يظهر لنا اليوم ، كشيء عادي وكمكسب سهل لا يتطلب مشقة ولا جهدا سرعان ما يبرز لنا ، حين نتناوله بالبحث التاريخي ونحلل النصوص التي عرضت له ، كاحدى المغامرات البشرية التي تطلبت شيئا غير قليل من الشجاعة والاقدام وروح المخاطرة[1] مما يجعل السؤال يطرح نفسه علينا بكل الحاح : كيف استطاع أجدادنا أن يقطعوا الصحراء الكبرى ؟ ومتى بدأوا في قطعها ؟ وما هي الحوافز التي جعلتهم لا يترددون في ركوب طريق المغامرة الخطيرة ؟

ونبادر فنقول أن مصادرنا التاريخية والجغرافية وغيرها لم تفكر في الجواب على هذه الاسئلة ، بل اكتفت بتقديم معلومات قليلة ومبعثرة انحصرت فائدتها في اشعارنا بوجود قضية تاريخية مهمة تستحق أن تطوق بالبحث وتسلط عليها الأضواء ويجب أن نعترف بأن بعض الباحثين الأجانب سبقونا الى اثارة الاهتمام بالموضوع ، مبرزين انه لا يرتبط بتاريخ العالم الاسلامي فحسب ، بل بتاريخ العالم ككل .

ونحن حينما نريد أن ندلي بدلوٍ بين الدلاء في تناول هاته القضية نشعر بأنها

تشكل فعلا حافلا من تاريخ تجارة القوافل وتخرج بنا في نفس الوقت عن تلك الموضوعات التاريخية التقليدية التي طالما عانت من الاعادة والتكرار . بالفعل ان موضوع تجارة القوافل بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء الغربية يطرح أمامنا جملة قضايا تتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية ويتعامل الانسان مع الظروف الطبيعية والجغرافية وبالعلاقات الدولية في عصور غابرة والتبادل بين الأمم أي باحدى الظواهر التي تشرف تاريخ العرب والاسلام الذي أتهم من لدن مؤرخين غربيين معروفيين بأنه أضرَّ بالاقتصاد العالمي فكسر وحدة البحر المتوسط وتسبب في تدهور أوروبا ووقوعها في براثين الفيودالية والتخلف الحضاري[٢] .

ومنذ القديم ، اعتمدت التجارة على القوافل في غرب آسيا وفي آسيا الوسطى وساعد على ازدهارها توفر دابة معروفة بصبرها وقدرتها على اجتياز الصحاري الواسعة ألا وهي **الناقة** ، وليس من داع للعجب حينما نرى الشعراء العرب غالبا ما يخصصون في قصائدهم المطولة فقرة للاشادة بناقتهم ووصف جسمها وأعضائها وذكر قوتها وخفتها فالجمل هو الحيوان الذي مكَّن العرب من ممارسة التجارة داخل صحرائهم وخارجها بكامل النجاح أي الحيوان الذي ضمن لهم رزقهم ومعيشتهم[٣] .

واشتهرت قريش بسوق القوافل الى أطراف الجزيرة العربية ، وبخاصة الى الشام واليمن ، وهي الرحلة التي أشار اليها القرآن الكريم في الآية : لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف » فكانت رحلاتهم سببا لاثرائهم وسيطرتهم على مكة وهيمنتهم المعنوية داخل الجزيرة وخارجها ، الشيء الذي مكن تلك القبيلة المحظوظة من أن تتولى زعامة العرب بعد انتصار الاسلام وتشرف على دولة الخلافة طوال عدة قرون .

وأثر قيام الدولة الاسلامية ، توسعت آفاق تجارة القوافل وتعددت طرقها وتضاعفت مردوداتها بصورة ملحوظة ، تبعا لنشوء مملكة عظيمة تمتد من المحيط

الأطلسي الى حدود الصين ، فكانت هنالك قوافل من الخيل ومن الجمال بالخصوص تنطلق من العراق وتجتاز هضبة فارس نحو خراسان . ثم تنتقل الى ما وراء النهر في شاش وفرغانه ومن هنالك يمكن أن تتجه اما نحو الشمال الشرقي في بلاد الترك ، واما نحو الشرق تجاه الصين وعاصمتها الشمالية خمدان ، واما نحو الجنوب الشرقي تجاه الهند وهنالك قوافل الحج التي كانت في نفس الوقت قوافل تجارية وهنالك القوافل المرتبطة بالمواصلات البحرية مثل القوافل التي تقطع الجزيرة العربية نحو البحر الهندي اما في اتجاه سواحل أفريقيا الشرقية أو الهند(٤) وبالجملة فقد كانت القوافل تلعب دورا حيويا في انعاش الاقتصاد الاسلامي وتأمين العلاقات بين المدن والأقاليم المتباعدة . يقول ادم متز : « اما طريق الحج من بغداد ، فكان يعبر الفرات عند الكوفة ، ويقضي الى الصحراء عند الغديب . وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يغدون اليها في موسم الحج من جميع انحاء الدولة الاسلامية . ولم تكن فريضة الحج وحدها التي تجذب هذه الجماعات بل كان يغريها أمان الطريق أيضا في حماية قوافل الحج الكثيرة التي كانت تنهال الى هناك من شتى النواحي . فمن ذلك ان كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة ٤٤١هـ/٩٤٣ الى الشام ومصر ، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السلطان . وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام البيزنطيين . ففي عام ٩٤٦/٣٢٥ التحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج وقطعوا الطريق الشاسع من الشام الى العراق مارين بمكة وكان فيهم قاضي طرسوس ومعه مائة وعشرون ألف دينار(٥) هذا بالنسبة للجناح الشرقي من العالم الاسلامي ، فماذا يمكننا ان نقول عن الجناح الغربي ؟ ومتى بدأت القوافل تتردد داخل هاته المنطقة رابطة بين بلاد المغرب وأفريقيا السوداء ؟

أصبح الاتصال ممكنا بطبيعة الحال ، كما توفر الجمل في المناطق الصحراوية الفاصلة بين الجهتين . ولربما كان هنالك اختلاف بين المؤرخين عن تاريخ وصول هاته الدابة الى المغرب . فالمؤرخ الفرنسي « جوتيي » المعروف بشطحاته يحدد وقت

وصول الجمل الى المغرب في القرن الثالث الميلادي[٦] ، بينما نجد دائرة المعارف (روس) تقرن ذلك الحدث بالفتح الاسلامي اي بالقرن الثامن الميلادي ، وتعتبر العرب هم السبب في نقل ذلك الحيوان الى بلاد المغرب حيث أمكنه ان يتناسل ويصبح من الدواب الأليفة في المنطقة . وهنالك نظريات وفرضيات اخرى تقدم بها مؤرخون في موضوع الاتصال بأفريقيا السوداء مثل « كزيل » الذي يعزو نشاط المغاربة في الصحراء لاستقرار عدد منهم بها فرارا من الضغط الروماني و « كورتوا » الذي يعزوه تجول قبائل لواقة من أعالي النيل الى طرابلس ، و« بوفيل » الذي يتحدث عن أقومية الاتصال بافريقيا السوداء من أجل تجارة الذهب دون ان يقدم دلائل كافية ومقنعة[٧] .

فاذا طرحنا جانبا كل هاته النظريات والفرضيات ، لا يبقى أمامنا الا التاريخ الذي تثبته المصادر المتوفرة ، وهذا التاريخ يقول : ان الاتصال التجاري بافريقيا السوداء لم يتم الا في عهد الاسلام وعلى يد المسلمين . تلك هي النتيجة التي ينتهي اليها عدد من المؤلفين في أقرب الدراسات الينا ، مثل « العروى » و « لومبارد » و « ومؤفي »[٨] .

فلومبارد يعتبر هذا الحدث من أعظم أحداث العصر الوسيط العالي « ويأسف لضياع المصادر المعاصرة التي تتحدث عنه ، ولكنه ينتهي الى التسليم بانه » منذ أواخر القرن الثامن ربطت تجارة العالم الاسلامي هذه الشبكة الجديدة من طرق القوافل بشبكات الشرق والبحر المتوسط ، ففتحت أمام طرق المواصلات العامة افق العالم السوداني بكامله واما « زوفي موني » فلا يتردد في اعتبار العرب روادا في هذا الميدان ، اذ يقول وهو يتحدث عن الجغرافيين و العلماء الذين اهتموا بافريقيا السوداء : « ان عطاء ـ العصر القديم فيما يخص المنطقة التي تهمنا هو حفر على وجه التقريب » . ويستبعد ان يكون القدماء عرفوا الصحراء جنوب توات او الفزان وينتهي به البحث الى التسليم بهاته الحقيقة وهي ان معرفة افريقيا جنوب الصحراء لم تأت الا على يد العرب[٩] .

وهو شيء تؤكده لنا الروايات الخاصة بالفتوح الاسلامية في المغرب ، فأول توغل نحو افريقيا السوداء قام به عقبة بن نافع سنة ٦٦٦م ، اذا اغار على الفزان وكوار ، كما بدأ الهجوم على النوبة ، في سنة ٦٤٢ . وتذكر الروايات ان عقبة بلغ بلاد سوس في سنة ٦٨٢ . ويتأكد وصول العرب بعد ذلك الى سوس ودرعه فيما بين سنتي ٧٠٥ و ٧٠٨ . ثم جرى تأسيس سجلماسة في سنة ٧٢٨ . وكانت أول غارة عربية على السودان الغربي في سنة ٧٣٤ بقيادة حبيب بن ابي عبيدة الفهري ، انطلاقا من سوس(١٠) .

ويستنتج رونبي موني من الحدث « ان الاتصال بين العالم العربي وافريقيا السوداء الغربية أصبح أمراً واقعا ولن يحدث قطعه »(١١) .

وظهر اثر هذه الفتوح في التقدم العلمي الذي حصل في ميدان الجغرافية ، اذ تم تصحيح المعلومات المغلوطة الواردة عند القدماء وتحقيقها على يد الجغرافيين العرب والعلماء الذين ضمهم بيت الحكمة في بغداد . وكان أول من اورد اسم بلده من افريقيا السوداء هو الفلكي الغزاري المتوفي حوالي ٧٩٦ م اذ أشار الى « غانه » بلاد الذهب ويظهر التقدم المشار اليه عند مقارنة اسماء الأماكن التي اوردها اليوناني « بطليموس » مع تلك التي أوردها « الخوارزمي » في كتابه « صورة الأرض » .

ما هي الدواعي والأسباب التي جعلت العرب يحققون هاته الخطوة الايجابية في تاريخ اكتشاف العالم ؟ تجنبا للاطالة نكتفي بذكر أهمها :ـ

١ ــ طبيعة الدعوة الاسلامية :

اخذت الدعوة الاسلامية منذ اول يوم طابعا عالميا مما جعل قادة الفتوح يتوغلون في كل الجهات قصد تبليغها . ولم تستوقفهم وعورة الطرق والمسالك كما استوقفت غيرهم ، لان العرب وهم جيش الفتح ، تعودوا على حياة الصحراء ومغاوزها ومتاهاتها . فالتجربة العريقة التي اكتسبوها في جزيرتهم جعلتهم

يتمركزون في فيافي الصحراء الافريقية بشيء من الثقة بالنفس .

٢ ــ الدوافع الاقتصادية :ـ

مما لا شك فيه ان الفتح الاسلامي تعزز بمكاسب اقتصادية استفادت منها الدولة الاسلامية الناشئة كما استفاد منها الجنود . لكي لا ينبغي ان نشتط في تقدير تلك المكاسب التي تتلخص في الغنائم والفيء ولربما في ضرائب الخراج والجزية . هذا على الأقل ، في المراحل الأولى . فالسبب الديني يظل على أي حال هو المجرى الأول للفتوح . ولعل هذا هو السر في كون الفاتحين العرب لم يهملوا الصحراء كما أهملها الرومان والبيزنطيون الذين مارسوا استعمارا قائما ، قبل كل شيء على الاستغلال الاقتصادي والفائدة المادية المضمونة .

٣ ــ العامل النقدي :ـ

حينما دخلت الدولة الاسلامية في أطوار النمو والتوسع ازداد الاهتمام بتنظيمها وتزويدها بكل المؤسسات والوسائل التي تحتاج اليها دولة كبيرة . وفي طليعة تلك الاهتمامات تزويدها بالنقد الكافي لحياتها الاقتصادية . فكانت السياسة النقدية المبنية على **الازدواجية المعدنية** : الذهب والفضة . والبحث عن الذهب كان من أكبر الحوافز على الاتصال بالبلاد الواقعة في حوض نهر **النيجر** .

٤ ــ العامل التجاري :ـ

قيام الاقتصاد الاسلامي على التجارة كان من الحوافز الكبرى على تحريك القوافل عبر الصحراء تجاه السودان .

صحيح أن الذهب كان هو أول بضاعة يستوردها التجار المسلمون ، ولكن كما سنرى التبادل التجاري مع تلك المناطق شمل بضائع متنوعة مما جعلها تحمل

معها تأثيرات حضارية وفكرية . وكذلك يربط بعض المؤرخين انتشار الاسلام بازدهار التجارة في بعض المراكز المبثوثة في طرقها .

متى بدأت القوافل تقطع الصحراء نحو أفريقيا ؟

وإذا رجعنا إلى أقدم الجغرافيين العرب الذين تطرقوا إلى هذا الموضوع نجد أن عصرهم كان هو القرن الثالث الهجري أي التاسع الميلادي . فهل يعني ذلك لزوما أن بداية التبادل التجاري مع أفريقيا السوداء كانت في القرن الثالث أيضا .

منطقيا ليس هناك ما يربط بين هذين الحدثين برابطة السبب بحيث لايوجد ما يفرض علينا الأخذ بهذا الرأي فقد يكون الجغرافيين لم يبدأوا بالحديث عن هذا الموضوع إلا بعد ان اشتهر أي بعد أن مرت عليه مدة من الزمان ليست بالقصيرة ، سيما وموضوع الذهب ومناجمه كانت تقتضي شيئا من التكتم . وسبق أن رأينا الفتوح الاسلامية تتجه إلى الصحراء الغربية منذ أواسط القرن الثامن لتصل إلى السودان ، ثم لا ننسى أن المؤرخين يذكرون صنهاجة قائمة فيها عدة أسماء من أمراء صنهاجة الملثمين الذين حكموا في الصحراء قبل ظهور المرابطين . وإذا أخذنا برواية ابن خلدون ، فإن الاسلام بدأ ينتشر في صنهاجة إثر فتح الأندلس أي أثناء القرن الثاني للهجرة. وكانت رياستهم في لمتونة وملوكهم من بني ورتنطق . ولكن ابن خلدون نشاطهم في مرحلة البداية بقوله : -

« ودوخوا تلك البلاد الصحراوية وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الاسلام فدان به كثير منهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم » .

ثم يشير ابن خلدون بعد ذلك إلى حدوث انقسام في صفوف صنهاجة أدى إلى نشوء إمارات مختلفة ودام ذلك مائة وعشرين سنة ، ثم عادت كلمتهم إلى الاجتماع بعد تولي محمد بن تيفاون المعروف بنارشت والذي ظهر بعده المرابطون .[١٢]

هاته الرواية على اقتضابها وما يعترضها من اختلاف ، حسب المصادر سواء في التواريخ أو الأسماء تؤكد شيئا مهما وهو وجود الاسلام في عهد مبكر بالمنطقة . وهو ما ينسجم مع ما ورد في المصادر الجغرافية . ولذلك سجلنا معرفة وجود الذهب بالسودان الغربي في مصدر عربي هو كتاب الفلكي الغزاري المتوفي حوالي سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦ الذي كان الخليفة أبو جعفر المنصور كلفه بتأليفه استنادا إلى كتاب في الموضوع تلقاه من الهند .

والاشارة إلى وجود الذهب بالمنطقة موجودة عند ابن الحكم في كتابه « فتوح أفريقية » .

كما أننا حينما نستعرض قائمة المراكز المغربية لسك النقود ، نجد من بينها عددا وجد في عهد الادارسة والمداريين ، ونلاحظ أن بعضها يوجد في محور الطرق الذاهبة إلى الصحراء مثل امعدن ، تجرجرا ، تدغه ، فاس ، تلمسان ، زير ، سجلماسة مريره ، وزقور .

والملاحظ أن هناك في القائمة ثلاثة مراكز تقع في منطقة سجلماسة وهي مدينة سجلماسة وتدغه وزير ، بينما المراكز الأخرى غالبا ما تقع في الطرق المؤدية إليها ونلاحظ أيضا أن بعض هاته المراكز كان مرتبطا إما بالأمويين أو بالعباسيين مثل تاغعا الواقعة في مصب وادي تاغعا بغمارة وتدغه وتلمسان وطنجة ووليلي . والملاحظ أيضا أن البعض منها وجدت به مسكوكات ذهبية مثل تلمسان وطنجة . ويشير « اوستاش » وهو أحد الباحثين المختصين في النقود المغربية إلى أن دولة بني مدرار بسجلماسة كانت هي أول من سك نقود الذهب .[١٣]

كل هاته القرائن تدفع إلى الاعتقاد بأن بداية جلب الذهب من السودان كانت في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة الموافق للقرن الثامن الميلادي أي قبل أن يتحدث عنها الجغرافيين بنصف قرن على الأقل ، وهكذا بدأت القوافل تجتاز الصحراء في غضون القرن الثامن الميلادي ، وهو حدث ينسجم مع

التطورات التي بدأت تدخل فيها دولة الخلافة الاسلامية في الشرق . فبعد البساطة في المظهر والتقشف في أسلوب الحياة اللذين انطبعت بهما دولة الخلفاء الراشدين ، تحولت الخلافة شيئا فشيئا إلى دولة ذات فخفخة وابهة في عهد الأمويين لتضاهي أكبر الدول ترفا وبذخا في عهد العباسيين . وبالاضافة إلى المظهر ، توسعت دواوينها وازداد ت حاجاتها ومطالبها ، فازداد خدامها وكتابها وجنودها . وكل هذا كان يتطلب مزيدا من الأموال . فاكتشاف الذهب في أفريقيا السوداء الغربية كان حدثا له أهميته الكبرى التي لم ينتبه لها المؤرخون القدامى بالكفاية والتي بني عليها جانب كبير من الحضارة الاسلامية والمنجزات التي تعتز بها . وفقر مصادرنا وسكوتها في كثير من الأحيان هو الذي جعل هذا الحدث التاريخي لايبرز في كل أبعاده إلا في عصرنا .

فإذا أردنا أن نجد المصادر التي تتحدث لنا عن هذا الموضوع ، فيجب أن ننتظر إلى القرن الثالث . ولعل أول من يحدثنا في هذا الشأن هو ابن واضح اليعقوبي في كتابه « البلدان » الذي يظهر فيه اهتماما بالغرب الاسلامي أكثر من الذين سبقوه فيصف طريق القوافل من سجلماسة إلى بلاد السودان ويقدر مسافتها بخمسين يوما . ويذكر الصحراء الكبرى التي تفعل بين الجهتين ويتحدث عن سكانها ، منهاجية الملثمين . ومن المعلوم أن اليعقوبي توفي حوالي ٢٧٨ .[١٤]

بعد ذلك نجد مؤلفا آخر عاش في بلاط الفاطميين وألف فيما بين سنتي ٩٧٥ و ٩٩٥ كتابا في الجغرافية ضاع ، مع الأسف . وقد نقل ياقوت عنه فقرة تتعلق بمدينة اودغست وهي : -

« قال المهلبي : اودغست مدينة بين جبلين في قلب البر جنوبي مدينة سجلماسة ، بينها نيف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز على مياه معروفة ، وفي بعضها بيوت البربر واودغست بها أسواق جليلة ، وهي مصر من الأمصار جليل والسفر إليها متصل من كل بلد . وأهلها مسلمون يقرأوان القرآن ويتفقهون ،

ولهم مساجد وجماعات أسلموا على يد المهدي عبيد الله . وكانـوا كفارا يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم وامطارهم في الصيف يزرعون عليها القمح والدخن والـذرة واللوبيـاء ، والنخـل ببلدهم كثـير ، وفي شـرقيهم بـلاد السـودان وفي غـربيهم البحر المحيط وفي شمـاليهم منفتلا إلى الغـرب . بلاد سجلمـاسة وفي جنوبهم بلاد السودان » .(١٥)

هذا أنه يعتمد على مصادر فاطمية شفوية أو مكتوبة . وإذا كان من الممكن مناقشته من حيث أوليه دخول الاسلام إلى المنطقة ، فهو يبرهن على أن معرفة البلاد والاتصال بها أصبح أمرا عاديا في القرن العاشر الميلادي . وفيه إشارة واضحة على تعدد طرق القوافل الآتية من جهات مختلفة . ونفس المعلومات يؤكدها جغرافي آخر شهير ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧) « ويقارب القيروان سجلماسة في صحة الهواء ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان وأرباح متوافرة . . وسائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال وتتقارب بـالعصبية أوصافهم وتتشاكل أحوالهم . ولقد رأيت بأودغست حكاية ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار اودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبيها ولا نظيرا . ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرقت . ولم يزل المعتز أيام ولايتها وهو أميرها يجتبيها من قـوافل خارجة إلى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة على ما يباع بها ويشترى من إبل وغنم وبقر إلى ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي أفريقية وفاس والأندلس والسوس واغمات إلى غير ذلك مما على دار الغرب والسكة ـ زهاء أربعمائة ألف دينار تختص بها ويعملها » .(١٦)

ويذكر ابن حوقل أن الطريق بين سجلماسة واودغست تستغرق شهرين وهو توضيح استقاه ولاشك من العارفين بتحركات القوافل في المنطقة . لكن النص يحتوي ، من جهة أخرى ، على عناصر تـاريخية جـد مهمة . فهـو يشعرنـا بأن حركة التبادل التجاري بين سجلماسة وأفريقيا السوداء قائمة باستمرار دون فتور ،

وأن سجلماسة أصبحت عقدة في شبكة واسعة من المواصلات مع الجنوب والشمال ، بحيث استفادت المدينة من هاته الوضعية وأصبح أهلها من كبار الأغنياء ، كما استفاد حكامها استفادة ملحوظة من حيث الجباية .

تلك وضعية تجارة القوافل كما نستقيها من شهادات تخص القرن العاشر الميلادي أنها في مستوى الازدهار والنمو ، فإذا تقدمنا شيئا ما في الزمان ووصلنا إلى القرن الحادي عشر ، نجد المصادر تؤكد لنا نفس الظواهر وتترك لنا نفس الانطباع ، إلا أن حظ المؤرخ بالنسبة لهذا القرن ربما كان أحسن ، إذ يجد أمامه مصدرين مهمين . فالمقدسي البشاري معروف بجديته وتدقيقه في الموضوعات الجغرافية فهو يقدم سجلماسة في الفقرة التالي :

« سجلماسة قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها . وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الامارة شديدة الحر والبرد جميعا صحيحه الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات كثيرة الغرباء ، موافقة لهم يقصدونها من كل بلد ومع ذلك ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة . . » .[١٧]

مثل هذا الوصف يبين الازدهار الاقتصادي الذي عرفته سجلماسة في عصر المقدسي بفضل تجارة القوافل .

ويجب أن لايغيب عن بالنا ها هنا ونحن نعرض لهذا الموضوع ، الوضع القبلي في المنطقة . ونظرا لصعوبة العيش بها ولما يمكن أن يتعرض له الانسان من أخطار فإن التعاون بين سكانها يصبح ضرورة ملحة ومن ثم اكتسبت التكتلات القبلية جدتها من حيث العصبية وكانت القبائل الرحل تعتبر نفسها سيدة على الصحراء وتحرص على الدفاع عن حقها بالقوة ، وبخاصة حين أصبح بيدها مصير الطرق المهمة الرابطة بين المغرب والصحراء وبالتالي مصير التجارة الكبيرة والمربحة بين الجهتين .

كانت تلك القبائل إذن طرفا في ذلك المشروع الكبير مشروع تجارة الوقافل ولذلك فمن الطبيعي أن تقوم بينها صراعات كبيرة حول امتلاك الطرق . وهذا موضوع تطول بنا معالجته لو أردنا أن ندخل في تفاصيله . وإنما نكتفي بالقول أن القرن العاشر شاهد هيمنة مجموعة القبائل الكبرى المعروفة عند المؤرخين باسم زناته . وكانت لهم إمارات متعـددة بالمغـرب الأقصى نفسه . وقـد ازدهرت في عهدهم كل من سجلمـاسة واودغست كمحـطتين أسـاسيتين في طـريق التبادل التجاري . لكن في القرن الحـادي عشر الميـلادي أي الخامس الهجـري تحولت الهيمنة في المنطقة لصالح قبلية أخرى لا تقل كبرا وأهمية عن الأولى وهي المدعوة عند المؤرخين باسم صنهاجة وهم المعروفون أيضا ، بأهل اللثام أو الملثمين لأن ظرف العيش في الصحراء كانت تفرض عليهم أن يحملوا لثاما .(١٨)

وقصة صنهاجة اللثام طويلة ومعروفة لأنها تروي جهودهم المتواصلة في سبيل توحيد صفوفهم وتقوية كيانهم ، والتي توجت بقيام دولة كبيرة في تاريخ المغرب دولة المرابطين . وقد استطاعت صنهاجة أن تسيطر في آن واحد على المغرب بشمال الصحراء وعلى تخوم السودان بجنوبها ، وبـذلك أصبـح في يدهم مصـير طريق القوافل بين الجهتين .(١٩) ولحسن حظ المؤرخ بقيت لنا عن هذا الموضوع شهادة معاصرة فيها شيء من التفصيل ومن المعلومات النادرة التي كانت هي السبب في إثارة فضول المؤرخين اليوم ، ونعني بها شهادة أبي عبيد البكري في الجزء الذي بقي من كتابه « المسالك والممالك » والمعنـون « المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب » وأول ما تؤكده لنا تلك الشهادة عظمة سجلماسة كمدينة : ـ

« ومدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة وبعمارتها خلت مدينة تـرغه وبينها يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا . ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة حولها أرياض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرةوسورها أسفله مبنى بالحجارة وأعـلاه بالـطوب . . وهي كثيرة النخـل والأعناب وجميـع الفواكه وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس لايزبب إلا في الظل ويعرفونه

بالظلي . وما أصابته منه الشمس زبب في الشمس . ومدينة سجلماسة في أول الصحراء لايعرف في غربيها ولا قبليها عمران . . »[٢٠]

نستشف أهمية المدينة ونحن نتمعن في هاته السطور من كونها كانت سببا في خلاء مدينتين مجاورتين . وهذا يعني أنها أصبحت نقطة استقطاب للسكان . وهو ما سبق أن سجلناه في نص البشاري إذ يقول عن المدينة أنها « كثيرة الغرباء » ثم تظهر لنا تلك الأهمية في مظهرها العام الذي تطبعه أبنية فخمة وسور متقي ومناطق خضراء . كل هذا وهي واقعة على حافة الصحاري الجرداء فما الذي يا ترى كان سببا في هاته المنزلة التي وصلت إليها ؟

لقد تحدث البكري عن مواردها الزراعية وأنشطتها الصناعية إذ قال : -

« ويزرع بأرض سجلماسة عاما ويحصد من تلك الذريعة ثلاثة أعوام لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ . فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد وأرضهم متشققة فيرتفع ما تناثر منه في تلك الشقوق . فإذا كان في العام الثاني حرث بلا بذر وكذلك في الثالث . وقمحهم رقيق صيني . . ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزاف عدد بلا وزن . والكراث يتابعونه وزنا لا عددا » .[٢١]

كما يشير إلى صناعتهم ويذكر منها بالخصوص نوعا من النسيج الذي يصنعونه « من أجود الأصواف ويبلغ الثوب منها أزيد من عشرين مثقالا » .[٢٢]

لكن هاته الموارد والمنتجات المحلية ، مهما بلغت من الأهمية لايمكنها أن تفسر لنا وحدها الصعود الذي أدركته سجلماسة في العصر الوسيط . يبقى هناك إذا مجالا للبحث عن السبب الحقيقي . وهو الذي يبرزه لنا البكري يكشف لنا عن شبكة الطرق التي تقع المدينة في وسطها وتجعل منها عقدة حيوية للنشاط التجاري سواء على المستوى المحلي أي داخل المغرب أو على مستوى المبادلات العالمية .

ولن نلح كثيرا على هاته المواصلات المحلية التي لا تهم موضوعنا إلا جزئيا .

فهو يذكر عده طرق تربط سجلماسة بشمال المغرب .[٢٣] منها الطريق الذاهبة إلى فاس عبر مفروي . والتي يمكن أن تتجه إلى مدن أخرى من فاس مثل طنجة وسبتة . وهنالك الطريق الذاهبة إلى مليلة عبر امسكور وجرسيف . وهنالك طريق أخرى تذهب إلى وجده وتنتهي في تابحريت على البحر المتوسط . وفي اتجاه المحيط الأطلسي أي الغرب . يذكر البكري طرقا أخرى تتجه نحو اغمات إلى ميناء كوز أو تتجه نحو أقليم سوس عبر جبال الأطلسي الكبير . وفي اتجاه الجنوب يشير المؤلف إلى مدن أو مراكز مثل تيومتين أو تامدلت أو ايجلي أو نول . لكن لو اقتصرت سجلماسة على هاته الشبكة من المواصلات الداخلية برغم كفائتها ، ما كانت لتحقق لنفسها النمو الذي أدركته في عصر البكري . وإذن لابد من ادخال شبكة المواصلات العالمية في الحساب .[٢٤]

هنا تكتسي تجارة القوافل عبر الصحراء نحو السودان كل أهميتها ، وقد جاءت حركة المرابطين ثم دولتهم لتضمن لتلك التجارة كل شروط النجاح . ويشير البكري إلى عدة طرق تربط جنوب المغرب بالسودان . فهنالك طريق تذهب من سجلماسة إلى درعة يقدمها لنا المؤلف في وصف اجمالي بقوله : ـ

« ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين في صحراء غير عامرة إلا بقوم طاعنين ولا تطمئن بهم منزل . وهم بنو مسوفة من صنهاجة ليس لديهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة . وبين سجلماسة ووادي درعة مسيرة خمسة أيام » .[٢٥]

من هاته الفقرة نفهم أن أهم منطلق في الطرق نحو السودان هو مدينة سجلماسه . ومنها تتجه القافلة نحو وادي درعة . متجهة إلى تامدلت .

ثم يأخذ البكري في اعطاء تفاصيل عن الطريق ابتداء من هاته النقطة المهمة : ـ « من تامدلت إلى بير الجمالين مرحلة . وهذه البير عمقها أربع قامات من أنباط عبد الرحمن ابن حبيب ومنها إلى شعب ضيق لا تسير فيه الابل إلا متتابعة

مرحلة ثم تسير في جبل يسمي أزور ثلاثة أيام وهو محجر تخفي فيه الابل تنبت أم غيلان ومن خرج فيه عن الطريق أصاب زبر حديد مثقبة لا تذيبه النار » .[٢٦]

نلاحظ في بداية هذا الوصف كيف أن العرب اهتموا بهاته الطريق منذ القرن الثاني للهجرة حيث نرى عبد الرحمن بن حبيب الفهري يحفر البير لتوفير الماء للقوافل . ويواصل البكري وصفه : -

« وهذا الجبل كثير الثعابين طوله مسيرة عشرة أيام من أول طريق سجلماسه إلى جانب البحر المحيط . ويقال أن جبل أزور متصل بجبل نفوسه من جبال طرابلس واحسبه جبل درن المذكور قبل هذا الذي ينبعث من تحته وادي درعة فتسير في هذا الجبل ثلاثة أيام إلى ماء يسمى تندفس أبار يحتفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن .[٢٧]

وهكذا يبين لنا النص أن الطريق إذا صورناها في الخريطة لا تسير في خط عمودي بل تنعطف كثيرا إلى اليسار نحو الغرب لتنزل من هنالك في منعرجات يصفها البكري هكذا : -

« ثم تسير منها ثلاثة أيام إلى بير كبير يقال لها وين هيلون . ثم تمشي ثلاثة أيام في أرض سواء صحراء ربما وجد فيها الماء على حفا تحت الرمل من بقية الأمطار إلى ماء نزر يقال له تازكي وتفسيره البيت . ثم تسير منه إلى بير انبطها عبد الرحمن بن حبيب واحتفرها حجرا دعج صلب طولها أربع قامات مرحلة . ثم تسير منها إلى بير يقال لها ويطونان وهي كبيرة لا تنزف ماؤها زعاق يسهل شاربيه من الناس والانعام ، وهي من عمل عبد الرحمن بن حبيب أيضا طولها ثلاث قامات ثلاث مراحل » .[٢٨]

نصادف استمرار اسم عبدالرحمن بن حبيب كرائد في هاته الطريق الوعرة ، إذ اهتم بتزويدها بالآبار وهو أهم شيء بالنسبة للقوافل في تلك الصحاري .

وتواصل القافلة سيرها .

« ثم تمشي منه أربع مراحل إلى موضع يقال له اوكازنت ، أرض زرقاء ، ينبط أهل الرفان فيها الماء على ذراعين وثلاث ، ثم تمشي في مجابه جبال رمل معترضة لا ماء فيها وهو أصعب موضع بطريق اودغستا أربعة أيام إلى موضع يقال له وانزمين ابار قريبة الرشا فيها العذب والشريب وعليه جبيل طويل صعب كثير الوحوش . وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان . وهو موضع مخوف تغير فيه لمطه وجزوله على الرفان ويتخذونه مرصدا لهم لعملهم بافضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى ماء فيه .[٢٩]

نحن هنا إذن في مرحلة أساسية وفي محطة مركزية تلتقي فيها القوافل كما ترتادها القبائل الرحل ، وكل يعمل لحسابه الخاص ، وعلى كل فنحن في مواطن صنهاجة وقبائلها المختلفة التي سيدفع بها التاريخ إلى الاستفادة من طريق القوافل . ويواصل البكري وصفه : ـ

ثم تمشي منه في بلد واران خمسة أيام مجابه في كثبان رمل إلى بير عظيمة في حد بني وارث قبيل من صنهاجة على تلك البير شجر يقال له السقني وهو شجر الاهليلج إلا أنه لا يثمر ، ثم تسير منه إلى ماء يقال له اغرف آبار ملحة تردها اذواد بصنهاجة فتصلح عليه وتصح به . وكل ماء ملح فموافق للابل ، ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى موضع يقال له افرتندي تفسيره مجتمع الماء فيه أصناف كثيرة من الشجر وفيه الخيار والجبق . ثم تسير منه يوما في جبل يقال له ازجونان يقطع فيه السودان ثم تمشي يومين في رمال شجرة إلى ماء يقال له بير واران ماؤها زعاق ثم تمشي في أرض بصنهاجة كثير الماء من الآبار ثلاثة أيام . ثم تسير منه إلى شرق عال مشرف على اودغست فيه طير كثير يشبه الحمام واليمام إلا أنه أصغر رؤوسا وأغلظ مناقير وفيه أشجار الصمغ الذي يجلب إلى الأندلس يصمغ بها الديباج مرحله . ثم إلى اودغست . »[٣٠]

ذلك هو وصف الطريق الرابطة بين المدينتين اللتين كان لهما شأن كبير في العصر الوسيط واللتين لم يساعدهما الحظ على البقاء إلى يومنا هذا فكلتاهما اندثرتا وأصبحتا مجالا للتنقيبات الأثرية . ونعني بها مدينتي سجلماسة واودغست . وقد حرصنا على نقل وصف البكري بكامله حتى يلاحظ معنا القارىء دقة المعلومات الواردة عند هذا المؤلف ، ومن جهة وحتى يقدر هذه الرحلة التي تدوم شهرين في الصحاري حق قدرها ويدفعه الفضول إلى التساؤل معنا عن الدوافع . التي كانت تحرك القوافل في مثل هذا السفر الشاق من جهة أخرى فلولا أن هنالك مغريات حقيقية ومهمة لا نقطع السير في تلك الطرق المخوفة ولتوقف نشاط التجار . ونجد الجواب على تساؤلنا عند البكري أيضا إذ أشار من قبل إلى أن الذهب « جزاف » بسجلماسه . وهذا الذهب يجلب بالطبع من السودان ولعله أول المغريات لقيام تجاره القوافل فإذا علمنا أن النقد الاسلامي والنقد العالمي كانا متوقعين على توافر هذا المعدن النفيس في عصور لم تعرف فيها بعد الأوراق البنكية أدركنا السبب في حرص التجار على البحث عنه في كل الآفاق إنه مادة جد مطلوبة وجد مربحه وقد رأينا كيف أن المصادر السابقة للبكري أشارت لأهمية الذهب الموجود في السودان الغربي . ونضيف هنا أن المؤلف اليمني ابن الحائك المعروف باسم الهمداني المتوفي سنة ٣٣٤ هـ ، وصاحب كتاب « الاكليل » أشار في كتاب له آخر بعنوان : كتاب الجوهرتين العتيقتين » إلى أهم معادن الذهب والفقه في العالم الاسلامي . وذكر في ضمن ما ذكر معادن الذهب بالمغرب وعقد فعلا عن الطريقة الفنية لاستخراج المعادن النفيسة ومعالجتها .[٣١] كما تشير المصادر إلى أهمية دور الغرب المنتشرة في العالم الاسلامي والتي كانت تتقاضى واحدا في المائة عن الكميات التي كانت تضربها للخواص من الناس ولا أدل على الرواج الذي كان يعرفه النقد في الأسواق التجارية مما ذكره ناصر خسرو في كتابه « سفر نامة » وهو يتحدث عن سوق الصرافين بمدينة اميهان ، فيذكر أنه كامن يحضر بها مائتان من الصرافين[٣٣] ناهيك بالحق الذي كانت تتقاضاه الدولة من استغلال المعادن بصورة لا شرعية

والذي يبلغ الخمس .(٣٤) وهذا يعني أن الدولة كانت لها مصلحة قصوى في انماء ذلك الاستغلال . وهذا ما يسر لنا الاقبال المتزايد على ذهب السودان الغربي .

يقول المؤرخ مريس لومبارد .

إن دخول البربر في الاسلام وامتداد التجارة الاسلامية نحو الجنوب أدت منذ القرن التاسع الميلادي إلى ربط شبكة المواصلات الصحراوية بالملك الاقتصادي المتوسطي وإلى ايجاد الفرصة لتنظيم ايصال الذهب السوداني بواسطة المسالك الصحراوية نحو اسواق أفريقيا الشمالية ومن هنالك نحو الغرب والشرق الاسلاميين .(٣٥)

ويشبه هذا المؤلف وضعيه المغرب انداك بوضعية أسبانيا في القرن السادس عشر حين أصبحت هي مستودع الذهب الوارد من أميركا فبين البحر المتوسط ومحيط الرمال كانت جزيرة المغرب تتلقى بواسطة سفر الصحراء ذهب السودان الذي يصل إلى رؤوس الطرق القافلية سجلماسه وارجلا غداس كما كان الشأن في القرن السادس عشر بالنسبة للأساطيل التي كانت تحمل المعادن النفيسة من أميركا وتصل بها إلى الموانىء الأسبانية وبخاصة أشبيلية .(٣٦)

ونقرأ في بحث آخر أن احتياجات الدولة الاسلامية للذهب هي التي تفسر لنا تأسيس سجلماسة .(٣٧)

لكن البكري يذكر لنا عدة بضائع أخرى كان المغرب يصدرها إلى أفريقيا السوداء من بينها الحنطة والفواكه والزبيب والملح وأدوات النحاس والحديد والعطور والسلاح وأدوات الترف والأنسجة النفيسة والزرابيي والودع والثياب الفاخرة وكان التجار المغاربة يحققون أرباحا طائلة في صفقاتهم . فيذكر المؤلف مثلا أن القمح كان يباع في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك التمر والزبيب فإذا

اعتبرنا وزن المثقال ٤,٧٢ فيكون السعر هو ٢٨,٣٢ وهذا طبيعي إذا اعتبرنا ما يقوله البكري من أن القمح يأكله ملوكهم وأهل اليسار ومنهم بينما يكتفي بقية السكان بالذرة .

ولعل الملح كان له مكانة خاصة في تلك المبادلات التجارية وهو ما يستنتج من رواية البكري إذ يقول : -

ومن غرائب الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض ويقطع الحجارة ويسمى هذا المعدن تانتال . . ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سلجامسة وغانة وسائر السودان . والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة .(٣٨) فإذا رجعنا إلى ابن حوقل فإننا نجد لديه إشارة مفيدة عن الثمن الذي كان يباع به الملح في السودان حيث يذكر أن حمل الملح ، أي ما يحمله الجمل الواحد كان ثمنه في غانة ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ دينار . وحمل الجمل حسب بعض الباحثين المعاصرين يتراوح بين ١٢٥ و ١٥٠ كيلوغرام . الذي يثير تعليق الأستاذ دوفيس الذي قام بحفريات في منطقة اودغست المفترضة والذي تتبع هذا الموضوع بكامل الاهتمام : -

إننا إذن أمام ملح يساوي ثمنا غاليا جدا . فإذا قدرنا أن الدينار يزن في قيمته المتوسطة ٣,٨٠ يكون حمل الجمل يساوي في حده الأدنى ٧٦٠ غراما من الذهب وفي حده الأعلى ١١٤٠ غراما .(٣٩)

ولكي لا ننسى أن الملح كان منعدما في بلاد السودان وكان لابد من جلبه من الشمال ومن ثم نشأ التبادل بين الملح والذهب ومعد ثمن الأول إلى تلك الأسعار الخيالية . ويشير البكري إلى وجود معدنين مهمين من الملح في الصحراء ، أحدهما في تانتال والآخر في اوليل . ولاشك أنها نظرا للقيمة الكبرى التي أدركها الملح في بلاد السودان كانا محل صراع بين قبائل الصحراء من أجل امتلاكها بحيث لم تكن

الوضعية السياسية مبسطة في الصحراء كما يمكن أن يتصور الدارس لأول وهلة بل كانت معقدة ومن شأنها أن تثير أطماعا .(٤٠) فنحن نعرف الصراع الذي قام بين زناته ومنهاجه والذي انتهى بانتصار هؤلاء كما نعرف أن منهاجه لم يظلوا متحدين في الصحراء بعد انتصارهم . ومن ثم كانت تجارة القوافل تمر من أزمات لكي سرعان ما تعود إلى نشاطها حين تجد التشكيلة القبلية التي تحفزها وتؤمن لها الطرق الطويلة الرابطة بين الجهتين .

لا ننس أيضا أن المغرب كان يجلب في المقابل بضائع نفيسة من السودان مثل العنبر والصمغ والدرق وجلود القنفذ وبالخصوص الرقيق السوداني الذي ينوه به البكري قائلا : -

وبها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلوات وغير ذلك .(٤١)

طبعا أن القوافل لم تكن تقف عند حد اودغست بل تذهب إلى غانة الواقعة داخل البلاد السودان والتي تفصلها عن اودغست خمسة عشر يوما . ويصف البكري مدينة غانة بأنها كبيرة وأنها تشتمل على مدينتين : إحداهما خاصة بالمسلمين فيها اثنا عشر مسجدا والأخرى على ستة أميال وتسمى مدينة الملك .(٤٢) كما يؤكد الادريسي من جهته أنها أكبر مدينة في السودان وأكثرها سكانا وأوسعها تجارة وكانت أقرب إلى معادن الذهب الموجودة في بامبوي بوري(٤٣) ويضيف ابن عبد المنعم الحميري الذي أدرك القرن الثامن أنها مقعد المياسير من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى . ويبين البكري أن ملك غانة يستفيد من تلك المبادلات التجارية إذ له على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل .(٤٤)

بقي علينـا أن نتحدث الآن عن القـافلة وتنظيمهـا ولا يتعرض البكـري للموضوع بتفصيل بل نجد بعض المعلومات المفيدة في هذا الصدد عند الادريسي إذ يذكر أن القوافل تقطع الصحراء في الخريف وأن رجال القافلة يضعون الأحمال على الجمال في الصباح الباكر ويغدون في سيرهم إلى أن تصبح حرارة الشمس لا تحتمل . وحينذاك تتوقف القافلة من أجل الاستراحة فتنصب الخيام إلى أن تمـر ساعة الزوال وتنخفض الحرارة فتعبأ الجمال من جديد وتستأنف القافلة سيرها إلى أن يغشاها ظلام الليل فتحط رحالها من جديد إلى الفجـر حيث يقع استئنـاف السير .[٤٥] ويشير ابن حوقل إلى كون القوافل كانت تقوم بتجارة لا تنقطع عبر الصحراء إلا أن تحركها لم يكن يجري إلا في الشتاء .

كان التجار يتواردون من مدن الشمال مثل فاس وتلمسان وتونس وطرابلس والقـاهـرة نحـو مـدن تعتبـر كمـوانىء بـالنسبـة للصحـــراء وهي سجلمـاسـة وورجلا وزويلة . فمنهم من يبيع بضاعته هنالك لتجار القوافل ومنهم من يحملها بنفسه إلى السودان سائرا في ركب القافلة وبالطبع كان هنالك عدد من الدلالين والسماسرة الذين يستفيدون من المناسبة . ويذكر الادريسي أن تجار اغمات كانوا يشاركون مشاركة فعالة في تلك التجارة .

وكانت القبائل الرحل الظاعنة في الصحاري تستفيد هي الأخرى من ذلك النشاط التجاري إذ تؤجر جمالها للتجار أو تبيعهم إياها . كما أنها كانت تقوم بخفر القافلة ويتكلف أفراد منها بالسهر على قمة الجمال وتغذيتها وتعبئتها وإزالة الاحمال عن ظهورها وكانت قبيلة مسوفة مثلا تستغل بعض الطرق النازلة من سجلماسة وتتقاضى عنها حقوقا ويذكر ابن بطوطة في رحلته أن مسوفة كانت هي المشرقة على الطريق بين سجلماسة وولاته . فكان رئيس القافلة من مسوفة بينها العمال الذين يستخرجون الملح من معدن تغارة كانوا كذلك من مسوفة . كما أن أهل ولاته الذين

زودوا القافلة بالماء وأعيانها الذين استقبلوهم كانوا من مسوفة . وكذلك الشأن بالنسبة للدليل الذي قاد القافلة من ولاته إلى مالي . ومن هذا المثال يتضح لنا كيف أن القبائل الرحل كان في امكانها أن تستفيد فوائد متعددة من تجارة القوافل .[٤٦]

ويختلف عدد الجمال التي كانت تتألف منها القوافل فابن خلدون يذكر في تاريخه قافلة تضم اثني عشر ألف جمل ويمكنها أن تقتصر على بضع مئات . ويذكر الأدريسي ان بعض التجار كانوا يسوقون في تجارتهم ما بين سبعين الى مائة جمل . وكانت القوافل تؤدي حقوقا عند خروجها من مدن الشمال وأثناء مرورها بالقبائل وعند وصولها الى مدن الجنوب .

لم تكن تخلو هذه الرحلات القافلية من أخطار هنالك التيه في الصحراء الذي قد يكون سببا في هلاك القافلة كلها أو بعض أفرادها الذين ابتعدوا عنها . وهنالك الزوابع الرملية الكبرى التي ربما غطت على القوافل وجعلتها في حالة اقبار وهنالك غارات القبائل الصحراوية التي قد تكون سببا في تعطيل القوافل أو في تفتير نشاطها على الأقل . وهو ما حدث في القرن العاشر بالنسبة للطريق الذاهبة من القاهرة نحو غانه ، كما ذكر ذلك ابن حوقل وقد سبق وان أوردنا كلام البكري عن محطه وانزمين التي هي موضع مخوف تغير فيه لمطه وجزوله على الرفان ٤٧ .

بقي علينا أن نحقق في مسألة تاريخية مهمة هل انقطعت بالفعل تجارة القوافل أو تدهورت كما يستنتج عدد من المؤلفين المعاصرين من قراءة المصادر مستندين الى ابن خلدون ومحددين الزمان الذي حدث فيه ذلك بعصر أي من أواسط القرن السابع وبداية الثامن ؟

وهذا الموضوع آخر يتطلب بحثا مستفيضا . وكل ما نستطيع أن نفعله الآن لتقديم جواب مختصر هو ان ننظر في الكيفية التي طرح بها هذا المشكل هل تستند الى

حجج كافية ؟ هل تنساق في تيار المبالغة ؟

هنالك بعض الباحثين الأوروبيين الذين أكدوا أن تلك التجارة انقطعت في القرن الرابع عشر . ونكتفي بما أورده ايف لاكوست الذي اشتهر بكتابه ابن خلدون ميلاد التاريخ ماضي ـ العام الثالث . فهو يتحدث عن الأزمة الحادة التي عرفها المغرب في القرن الرابع عشر[٤٨] ويشخص مظاهرها وأسبابها في :

١ ــ انقسام البلاد الى قسمين منطقة طاعة للدولة ومنطقة عصيان .
٢ ــ الأخذ بسياسة الاقطاع لصالح رؤساء القبائل العسكرية حتى يحافظوا على سندهم للدولة القائمة .
٣ ــ تعطل طريق الذهب بين المغرب والسودان .

هاته النقطة الاخيرة هي التي تهمنا بالذات وهي التي يقول لاكوست في شأنها : في المغرب الذي نحي بالتدريج عن طرق الذهب الرئيسية كان من أثر تدهور التجارة عبر الصحراء تدهور سجلماسه ومما يلفت النظر ان هاته المدينة كانت هي الميناء الأول للصحراء وكان امتلاكها سببا في عظمة الدول التي قامت بالمغرب الأقصى لكنها في القرن الرابع عشر بدأت تخرج شيئا فشيئا من منطقة نفوذ ملوك فاس . ولئن كان هذا يشير الى ضعف سلطتهم فانه يشير بالخصوص الى قلة اهتمامهم بمركز أصبحت الحركة التجارية تتخلى عنه وكانت فيما قبل هي التي أكسبته أهمية قصوى[٤٩] .

هذا ما يقوله لاكوست بصيغة التأكيد دون ان يقدم مصادر واضحة في هذا الصدد ودون أن يتساءل هل رأيه لا يصطدم مع ماهووارد في عدد من المصادر . بل انه يتعجب من ابن خلدون لم يفطن الى كون التعطل الذي حصل في تجارة الذهب بين المغرب والسودان هو الذي كان سببا رئيسيا في أزمة القرن الرابع عشر . ويلتمس له العذر في كونه لم يعش طويلا بعد القرن الرابع عشر حتى يستطيع ان يكون له فكرة تامة عن هذا الموضوع اذ يقول :

ان ابن خلدون لم يكن يعرف والسبب واضح ـ ان الأزمة التي اجتازت منها أفريقيا الشمالية تختلف كثيرا عن الأزمات التي وقعت قبلها والتي كانت ممهد التأسيس امبراطورية كبيرة فهاته الأزمة ليست مجرد تكرار . انها تشير الى بداية انحطاط طويل . وما كان لابن خلدون أن يدري كل ذلك على الحقيقة لان هاته الأزمة لم تكن لها عوارض بارزة بصورة خاصة[٥٠] .

لكن خطأ لاكوست في نظرنا هو انه لم يتساءل مرة واحدة هل سلم ابن خلدون بأن طرق التجارة تعطلت بالفعل بين المغرب والسودان وأن سجلماسه عرفت تدهور قاتلا فماذا يقول ابن خلدون ؟ وماذا تقول المصادر الأخرى التي ألفت في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ؟

ان سكوت المصادر أو شحها بالكلام لا يدل بالضرورة على غياب الأشياء أو انعدامها لقد تكلم البكري فكانت روايته غزيرة بالمعلومات دقيقة في تفاصيلها ثم جاء المؤلفون بعده فلم يسيروا على نهجه وكانت اشاراتهم مقتضبه .

فهل يدل هذا على تقصير منهم أم على تغير طرأ على الواقع التاريخي ؟

اعتقد ان هنالك قبل كل شيء تقصيرا من المؤلفين . فلقد ازدادت علاقة المغرب بالسودان بعد عصر البكري سواء في عهد المرابطين أو الموحدين . وأكبر دينارسك في تاريخ المغرب هو الذي أمر بسكه يعقوب المتصور في أواخر القرن السادس الهجري اذ كان يزن ٤,٧٢ وهو الذي حمل بعد ذلك اسم الضبلون أي المضعف . فهل كان يقدم الخليفة الموحدي على مثل هاته المبادرة لو لم يكن مورد الذهب مضمونا ولو لم تكن الطرق نحو معادنه في السودان مفتوحة ومؤمنة ونجد العالم الشرقي ابن حمويه السرخسي الذي زار المغرب في تلك الآونة يتحدث في رحلته عن العلاقة التي كانت قائمة بين الخلفاء الموحدين وملوك السودان[٥١] .

ويتحدث ابو حامد الأندلسي في تحفة الالباب عن مبادلة الملح بالذهب ومن المعلوم ان هذا المؤلف توفي في ١١٦٩ . كما ان ابن سعيد الأندلسي الذي عاش في

نفس الفترة يذكر ان تحت لمطه في آخر هذا الجزء الأول في الصحراء حصن الملح وهو مبني من ملح مغربي ومنه يمتاز المسافرون الملح الى بلاد السودان . وكما هو معلوم فان ابن سعيد كان ينقل معلوماته في الغالب عن أحد العارفين بالمنطقة ابن فاطمة وكانت وفاته سنة ٦٨٥/١٢٨٦ أي انه كان يتحدث عن القرن الثالث عشر [٥٢] .

فاذا رجعنا الى ابن خلدون نخرج منه بانطباع مختلف عما ذهب اليه لاكوست فهو لا يشاطره تشاؤمه ولا يتحدث عن انقطاع تجارة القوافل عبر الصحراء فقد برهنت سجلماسة على حيويتها سواء في آخر الموحدين أو بداية عهد بني مرين . فهي مثلا تشارك في المعارضة السياسية التي قامت ضدا على الموحدين بمراكش في عهد السعيد سنة ٦٤٦هـ وتوجه بيعتها للأمير أبي زكريا الحفصي . ولا أدل على تفاؤل ابن خلدون من هاته الفقرة التي يتحدث فيها عن صحراء سجلماسه بقوله :

ومصب وادي درعن هذا الى الصحراء والرمال ما بين سلجماسة وبلاد السوس ويمتد الى أن يصب في البحر ما بين دون ووادان . وحفافيه قصور لا تحصى شجرتها النخل وقاعتها بلدتا دنست بلد كبير يقصده التجر للسلم في النيلج وانتظار خروجه بالصناعة[٥٣] .

وحينما يتحدث ابن خلدون عن عرب معقل الذين استقروا بالصحراء يشير الى أنهم استولوا على تلك الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الأتاوات والضرائب وحارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا . فهل[٥٤] أدى بهم الى عرقلة التجارة في الطرق المارة بالصحراء ؟

يجيب ابن خلدون :

ولم يكن هؤلاء العرب يستجيبون من أطراف المغرب وتلوله حمى ولا يعرضون لسابله سلجماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزاز بالدول وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناته بعدهم .

ناهيك بما يشيد به ابن خلدون من علاقات وثيقة بين المرينيين وملوك السودان خلاصة بين السلطان أبي الحسن المريني وملك السودان منسا موسى وقد استمرت تلك العلاقات حيث نجد حفيده ماري جاطه يوجه الى السلطان ابي سالم بن أبي الحسن هدية سنة ٧٦٢ وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروف ـ بالزرافة ويقدم لنا ابن خلدون دليلا آخر على تلك العلاقات البشرية الوثيقة التي كانت قائمة في عهده بين أهل سجلماسة وأبناء السودان حيث يذكر أن القاضي عبد الله بن وانسول من أهل سلجماسه استوطن مدة بأرض كوكو من بلاد السودان وشغل هناك أيضا منصب القضاء . وهو الذي لقيه ابن خلدون سنة ٧٧٦هـ . وتزود منه بمعلومات طريقه عن السودان وملوكه(٥٥) .

وليس من الممكن ان لا تستوقفنا ظاهرة تاريخية تتأكد أكثر فأكثر في عهد بني مرين أي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي الا وهي حرص الدول على امتلاك سجلماسة واتجاه الانظار اليها فهي ملجأ لعدد من الملوك والأمراء . فالرشيد الموحدي يفر اليها وابن غانية يصل اليها كذلك ويحيى بن الناصر الموحدي هو الآخر يلتجئ اليها . فاذا أهل عصر بني مرين نجد صراعا حادا يقوم بينهم وبين بني عبد الواد على امتلاك سجلماسة .

ألا يعني ذلك ان المدينة كانت محافظة على مركزها جذابة باغراءاتها ومنها بالخصوص موارد التجارة ؟ فاذا تركنا ابن خلدون لنرى ماذا يقول بعض معاصريه ، لا نجد خيرا من الرحالة ابن بطوطة الذي يشهد له الكل اليوم بالصدق والتحري في رواياته . فهو يقدم لنا وصفا عن رحلته الى السودان مبتدئا بالحديث عن سجلماسة التي يقول عنها .

« وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر ، لكن تمر سجلماسه أطيب وصنف أبرار لا نظير له في البلاد » .

نحتفظ من هذا الوصف بعنصرين مهمين :

أ ــ سجلماسه كانت ما تزال قائمة كمدينة مزدهرة متميزة بنخيلها .
ب ــ سجلماسه كانت ما تزال منطلقا للقوافل نحو السودان .

لكن ، هل تخلت القوافل عن تجارة الذهب ، كما يقول لاكوست ؟

ان جواب ابن بطوطة صريح في هذا الصدد . فهو يتحدث عن مبادلة الملح بالذهب . وهكذا فان مسوفه يحفرون على الملح الموجود في بلده تغازي ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعه وسجلماسه ومن لحوم الجمال « ثم يذكر ابن بطوطة ان الحمل من الملح يباع في ايوالتن بعشرة مثاقيل الى ثمانية وربما ارتفع الى أربعين مثقالا بمدينة مالي . ثم يؤكد كلامه مرة أخرى : « وبالملح يتعارف السودان كما يتعارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به . وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر »(٥٦) .

فنحن اذا تتبعنا شهادة المصادر الى نهاية العصر الوسيط ، لا نجد ما يبرر القول ان تجارة القوافل عبر الصحراء انتهت وان طرق الذهب أغلقت وأن سجلماسه انتهى دورها . صحيح ان المغرب لم يبق في موقع الوحدة والقوة التي كان عليها ايام الموحدين وانه أصبح في موقف دفاع بعد ان كان في موقف هجوم ولكن التدهور الذي حدث له ابتداء من القرن الرابع عشر لا يصح لنا أن نفسره كما رأينا بانغلاق طرق الذهب . ومن ثم نعتقد ان ابن خلدون كان أقرب الى الصواب حين أعطى الأولوية في تفسيره لظاهرة الانحطاط للأسباب الداخلية .

هوامش :

(١) عن هاته المسالك ، من المفيد الرجوع الى كتب الجغرافية العربية التي ألفت في القرن الثالث وبالأخص كتب ابن حوقل واليعقوبي والمقدسي . وقد أعطى المؤرخ الفرنسي أ. لومبارد عن ذلك في كتابه « الاسلام في عظمته الأولى ».

(٢) ذلك هو رأي المؤرخ البلجيكي هنري بيرين في كتابه « المعنون محمد وشارلمان ».

(٣) انظر مثلا ، القسم الذي يخصصه الشاعر الجاهلي طرفه بن العبد لناقته في معلقته المشهورة .

(٤) لومبارد : الاسلام في عظمته الأولى ».

(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع .

(٦) Gautie : de Passéde L´Afrique de Nord

(٧) لخص عبد الله العروي هذه النظريات في كتابه تاريخ المغرب .

(٨) R.Munny : Tableau Géographeque de L Quest Afrricain.

(٩) يرجع الى كتابي المؤلفين المذكورين سابقا .

(١٠) المراجع متعددة عن الفتوح :

ـ ابن عبد الحكم : فتوح المغرب .

ـ ابن عذاري : الأبيات المغرب .

(١١) كتاب المؤلف المشار اليه سابقا .

(١٢) ابن خلدون : كتاب العبر : الفصل الخاص بقبائل منهاجه الملثمين .

(١٣) مقال د. اوستاس بمجلة مسبريس عنوانه .

(١٤) ابن واضح اليعقوبي : كتاب البلدان .

(١٥) معجم البلدان دارمارد ١/٢٧٧ .

(١٦) كتاب صورة لأرض .

(١٧) المقدسي : أحسن التقاسيم : الفصل الخاص باقليم المغرب .

(١٨) في موضوع أنساب البربر وقبائلها ، أقدم المصادر هو « جمهرة الأنساب » لابن حزم وأوسعها هو كتاب العبرج ٧٩٦ لابن خلدون . وهنالك اشارات مقتضبة في المصادر الأخرى .

(١٩) لا بأس من الرجوع الى الفصل الذي خصصه روض القرطاس لبداية المرابطين .

(٢٠) البكري : المغرب ص١٨٤ .

(٢١) نفس المصدر : ص١٥١ .

(٢٢) نفس المصدر : ١٤٧ .

(٢٣) هنالك مقال مهم بالفرنسية عن هذا الموضوع نشر في مجلة همسبريس التي تصدرها كلية الآداب بالرباط : الجزء العاشر منه ١٩٦٩ J.M.Lessard : Sijilmassa

(٢٤) المصدر السابق .
(٢٥) البكري : المغرب ص١٤٩ .
(٢٦) نفس المصدر : ص١٥٦ .
(٢٧) نفس المصدر .
(٢٨) نفس المصدر .
(٢٩) نفس المصدر .
(٣٠) نفس المصدر .
(٣١) الاشارة وارده في مجلة Arabica الصادرة عن جامعة باريس . انظر سنة ١٩٥٨ مجلد ٣ ص٣٠٥ .
(٣٢) الرفاعي : قصة الحضارة ص٤٤ .
(٣٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ٣/٣٢٤ .
(٣٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ص١٢٠ .
(٣٥) M.Lombard : Les Metaux Moutam 1974
(٣٦) نفس المرجع
(٣٧) J.M.Lessard, Sijilmassa
(٣٨) البكري : المغرب .
(٣٩) J.Devisse, Tegdaoust
(٤٠) البكري المغرب ١٧١ .
(٤١) البكري : المغرب ص١٥٨ .
(٤٢) البكري : المغرب ص١٧٤ .
(٤٣) الأدريسي : نزهة المشتاق .
(٤٤) الحميري : الروض المعطار ـ مادة غانة .
(٤٥) الأدريسي : نزهة المشتاق .
(٤٦) ابن بطوطة : تحفة النظار
(٤٧) البكري : المغرب
(٤٨) عقد المؤلف فصلا في كتابه Y.Lacaste : LbnIbn Ichaldoun بعنوان Yu rise du xive siecle .
(٤٩) نفس المصدر ص١٠٨ .
(٥٠) نفس المصدر ص١١٧ .
(٥١) مقتطفات من رحلة ابن حمويه السرخسي توجد في « نفح الطيب » للمقري . وما زال هنالك أمل في العثور على مخطوطها .
(٥٢) ابن سعيد : بسط الأرض : تطوان ١٩٥٨ ص٤٧ .
(٥٣) ابن خلدون : كتاب العبر ٦/١٣٤ .
(٥٤) نفس المصدر ١١٩ .
(٥٥) ابن خلدون ٦/٤١٧ ، ٧/١١٨ .

(٥٦) من المفيد مراجعة كل الفصل الذي خصصه ابن بطوطة في آخر رحلته « تحفة النظار لسفره الى بلد السودان .

المصادر العربية للتاريخ الافريقي
التقييم والآفاق

بقلم يوري .ك . فال
جامعة داكار ـ فان
(السنيغال)

العلاقات العربية الافريقية عبر الصحراء وأهمية المصادر التاريخية :

أ ـ نشأتها :

لم تضم الامبراطورية الإسلامية قطّ افريقيا السوداء ضمن حدودها ، بخلاف أغلب الدول الاسلامية التي أسلمت عن طريق الفتوحات العسكرية وأدمجت ضمن الأمة الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين .

صحيح أنه منذ فتح الاسكندرية سنة (٦٤٢ م/ ٢١ هـ) شارفت القوات العربية حدود القبائل النّوبية عبر نهر النيل ، لكن سرعان ما جرى توقيع الصلح المعروف بـ« بقط » بين الطرفين سنة (٦٥١ م) (١) وفي عام (٦٦٦ م/ ٤٦ هـ) كانت مناطق « الكوار » (Le Kawar) الواقعة على التخوم التشادية الليبية حاليا وعلى اثرها سنة (٧٣٤ م/ ١١٦ هـ) منطقة السوس الأقصى في جنوب المغرب مسرحا للغارات والبعثات العسكرية العربية وقد أورد هذين الحدثين المؤرخ أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن الحكم (٢) .

وتجدر الاشارة إلى أن عقبة بن نافع قد بلغ منطقة « الكـوا » واحتل كـلّ قلاعها الى جانب من مدينة غدامس غير أن جيش عقبة اتجه الى الشمال الغربي نحو قسطيليا والقيروان (٣) الكائنتين بالبلاد التونسية حاليا . .

ويروي أبو القاسم عبد الرحمن أحداث سنة ١١٦ هـ بأكثر تفصيل حيث يذكر أن عبيد الله قد أرسل بعثة الى منطقة السوس وأرض السودان بقيادة حبيب بن عبيد الله الفهري حفيد عقبة بن نافع الذي حقق أكبر انتصار وكسب غنائم وفيرة من الذهب .

ومن الطريف أن عاد هذا القائد زيادة عن ذلك بسبيّة أو سبيتين من ذوات الثدي الواحد . (٤) إلاّ أن هاتين البعثتين كانتا غير ذات بال من الناحية السياسية والجغرافية .

وفي المقابل ، فان السيطرة على كل الشريط الساحلي للبحر المتوسط بدأ من مصر حتى مضيق جبل طارق وخاصة اقامة محيط سياسي واقتصادي وديني لآسيا وافريقيا الشمالية وأوروبا قد مكنتا العرب من احتلال موقـع هام في المبـادلات العالمية آنذاك .

وبذلك أصبحت العلاقات التقليدية التي تربط بين شمال الصحراء وجنوبها أكثر حيوية ، ولم تعد الصحراء تشكل حاجزا كبيرا في الاتصال بين الضفتين ومن ذلك التاريخ دخل العرب في علاقات مباشرة مع سكان منطقة جنوب الصحراء التي صارت تسمى عندهم بلاد السودان .

وكـان وهب بن منبه المـولود في اليمن في منتصف القـرن الأول هجـري (الموافق للقرن السابع ميلادي) والمتوفي في بداية القرن الثاني هجري (أو الثلث الأول من القرن الثامن المسيحي) أول كاتب عربي تعرّض لذكر السكان السود ضمن شعوب العالم ، غير أن مؤلفه هذا مفقـود . ويورد ابن قتيبـه في « كتاب المعارف » الذي ألّفه في العصر العباسي أن وهب بن منبه يعتقد أن حام بن نوح كان

رجلا أبيض البشرة حسن القوام جميل المحيا وأن الله غيّر لونه عقابا لأبيه نوح . فهاجر حام مع ابنائه . . . وكوّنوا السّودان . . . (٥) .

واضح أن وهب بن منبه يريد ارجاع زنوج أفريقيا الى سلالة نوح كما هو الحال في الديانات التوحيدية أو المنزلة ويعتقد ابن منبه أن السكان السّودان يضمون النوبيين والزنج (سكان أفريقيا الشرقية) و « القاران » (توبو الجنوب) و « الزغاوة » (وهم رحّل الواداي ودرفور) ، والأحباش (الأثيوبيون) والأقباط والبربر (وهم برابرة الصحراء) . ويدلنا هذا التعداد الوافي من طرف كاتب يعيش في صنعاء على مدى المبادلات بين العرب والأفارقة في ذلك العهد . واذا استثنينا الأقباط والأحباش المجاورين للجزيرة العربية فان بقية الشعوب التي أوردها ابن منبه كانت قد دخلت لتوها في علاقات مع العرب وهي عموما شعوب تسكن الصحراء الشرقية والوسطى .

ولم يرد في تلك الفترة ذكر لسكان الصحراء الغربية ومع ذلك تطورت العلاقات العربية الافريقية بنسق سريع . ولا ريب أن محور نهر النيل قد لعب دورا هاما في البداية ، ثم أصبحت أفريقيا الغربية مرتبطة ارتباطا وثيقا ومنتظما بسواحل البحر الأبيض المتوسط عبر الطرق البرية التي كانت تسلكها قوافل التجارة المعروفة بنجاعتها في هذا الميدان .

ولا يزال هناك مجال كبير للبحث من أجل معرفة أشمل لتطوّر العلاقات العربية الافريقية عبر التاريخ وأهم خاصياتها ، إلاّ أنه توجد عدّة بحوث هامة تسمح من الآن برسم الخطوط العريضة لتطور هذه العلاقات عبر القرون .

ب ــ تطور العلاقات العربية الافريقية :

منذ القرن التاسع عشر انكبّ عديد المؤرخين على دراسة تطور العلاقات العربية الافريقية وأهم مظاهرها الاقتصادية والثقافية والتاريخية والدينية سواء

بالكشف عن مصادر غير معروفة ، أو بفتح آفاق جديدة في البحث أو بإثراء المصادر المكتوبة بوافر الوثائق ، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ف . د . كولاي (W. D. Cooloy) ل . م ديفيك (L. M.Devic) ثم م . دولافوس (M. Delafosse) وج . ماركارت (J. Marquet) وف . تيوربـاك (٦) (F. storbeck) و أ . سرولي (٧) (E. Cerulli) و س . كونتي روسيني (٨) (C. Conti Rossini) و ر . موني (R. Manny) وف . مونتاي (V. Monteil) وفريمان قرينفيل (٩) (Freeman greeville) و ن . ليفتـزيـون (١٠) (N. Levtzion) و ت . لـويكي (١١) (T. Lewicki) وج . كيوك (١٢) (J. Cuoq) و أ . ميكال (١٣) (A. Miquel) وج . ديفيس (J. Devisse) (١٤) .

وتتجاوز دراساتهم التي تختلف من حيث القيمة والآنية مجرّد التأريخ الى وصف شامل ومتناسق لهذه العلاقات .

وتكمن عناصرها الأساسية في النواحي التالية :

١ ـ من القرن الثاني الى منتصف القرن الثالث هجري (القرن الثامن الى القرن التاسع مسيحي) . في هذه الفترة نمت محاور تجارية تربط جنوب الصحراء بالعالم العربي والبلاد المشرفة على البحر الأبيض المتوسط من الشرق الى الغرب ، ومن أهمها المحيط الهندي . وكانت المراكب العربية المتجهة نحو الشمال محمّلة بالعبيد والتوابل ومنتجات أخرى للمناطق الحارة تصل افريقيا الشرقية بانتظام . ويشكل محور نهر النيل طريقا آخر أدمج المنطقة النوبية بقوة وبعجلة في تبعية لبلاد مصر التي كانت تسير بخطى حثيثة نحو التعريب .

وغربَ هذين المحورين تشكل منطقتا « الدر فور (Le Darfour) و « الكوار » (Le Kawar) الى جانب « الفزان » (Le Fazzan) شبكة مبادلات نشيطة تواصلت على مدى القرون فيما بعد . وهناك محور آخر يخضع الى سيطرة الإباضيين الذين أقاموا ـ حسبما رواه ابن الصغير في تاريخه عن أئمة بني رستم علاقات ومحطات بين

« تاهرت » و « غـاو » في منتصف القرن الثـاني هجري (المـوافق القرن الثـامن ميلادي) . وهي تمثل حسب ت . لويكي (١٥) (T. Lewick) الذي اعتنى بدرس تاريخ « تاهرت » ، أقدم علاقات منتظمة بين بلدان المغرب ونهر النيجر بعد الفتح العربي . أما في أقصى الغرب فان سجلماسة أضحت فورا محورا لمسالك التجارة والمبادلات بين بلاد المغرب و « غانا » المعروفة بعد بـ « بلاد الذهب » كما سماها أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حبيب الفزاري في الثلث الأول من القـرن الثاني للهجرة (١٦) (أي منتصف القرن الثامن مسيحي) ، والمناطق المشرفة على الضفة الشمالية لنهر السينغال .

وأدمجت هذه المناطق بسرعة في دائرة معارف الجغرافيين والفلكيين العرب . وهكذا ، فان محمد بن موسى الخوارزمي فلكي العصر العباسي ، الذي تعرّض للأحدثات الجغرافية للعديد من مدن العالم قد أعطى احداثات مدن « مورا » و « دونكولا » و « علوة » (في البلاد النوبية) و « الفزان » و « زغاوة » و « غـانا » و «كاوكاو» «غاو» الخ (١٧) وقد اشتبهت عليه أسماء المناطق والقبائل بأسماء المدن وهذا أمر ثانوي .

ويتعرض هذا الكاتب الذي تعزى معلوماته عن أفريقيا السوداء الى شيء من الدقة الى أن المناطق المتاخمة للصحراء وما كان أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه الذي ألف كتابه منذ سنـة ٢٣٢ هـ . (٨٤٦ م) أكثر إطنـابا (١٨) من معاصرة الخوارزمي .

ولم تردنا معلومات جغرافية أو تاريخية ذات بال أثر ذلك إلا في نهاية هذه الفترة بقلم أبي العباس بن أحمد بن علي اليعقوبي بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي المتوفي سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) واذ نجده في « كتاب البلدان » الذي الفه سنة ٢٧٦ أو ٢٧٨ هـ (٨٨٩ أو ٨٩١ م) يقدم وصفا لأهم الطرق والمدن المشهورة التي تسلكها القوافل عبر الصحراء ، يطلعنا في تأريخه الذي كتبـه سنة ٢٥٩ هـ

(٨٧٢ م) على اعتقاداته حول أصل السكان السودان الذين يميزهم عن الأحباش . فالسودان يضمون سكان الغرب ومنهم الزغاوة (Les Zaghawa) و المارندة (Les Maranda) وكاوكاو (Les Kawkaw) أو غاو (Les Gao) والغانا (Les Ghana) في حين يضم الحبشة شعوب الشرق كالنوبيين (Les Nuba ou Nabien) والزنج (Les Zandj) والباجة (Les Bedja) والحبشة (Les Hahbach ou ethiopiens ou Abyssins) ويعتقد اليعقوبي على غرار ابن منبه أن هذه الشعوب تنحدر كلها من سلالة نوح وابنه حام ، وهو لا يتخيل تشتت هذه الشعوب بدون التصور التقليدي للبنية والتوزيع والتصنيف اللاحقين .

ولكنه يضيف الى ذلك اطلاعا في ميدان الجغرافيا البشرية ، بالرغم من ذكره لأسماء شعوب ومناطق ومدن وحتى أسماء أشخاص بدون تمييز .

أما ما أورده من معلومات خاصة بالجغرافية الاقتصادية وهي مفيدة دون ريب واذا قارنّاها بقائمة الممالك الواردة في تاريخه ، نكتشف أولى التفاصيل عن تصدير العبيد ، الذين يؤسرهم الملوك ثم يبيعونهم « دون مبرّر ودون تعلّة الحرب » خاصة إلى الاباضيين والبرابرة المسلمين . وتمثل زويلة (Zawila) أهم مركز لتصدير العبيد إذ هي تجمع أجناسا مختلفة من خرسان والبصرة والكوفة . أما في الغرب فان « غاو » تمثل قوة سياسية حقيقيةاضافة إلى أنها قد تحتوي مثل غانا مناجم الذهب وتمثل غانا أهم مصدر للذهب ، خاصة بالنسبة للتجار القادمين من سجلماسة .

وعلى أساس هذا الأساس ، فإنه لا يمكننا مقارنة غانا (Ghana) الا ببلاد باجة في افريقيا الشرقية التي « تحتوي مناجم للذهب والأحجار الكريمة وحيث يعيش السكان في وئام مع المسلمين الذين يشتغلون بهذه البلاد في استغلال المناجم » .

ولا تقتصر المبادلات بين العرب والأفارقة على الميدان الاقتصادي بل تتجاوزه الى تبادل الآراءوالأديان .

ويرجع الفضل في انتشار الاسلام ، في تلك الفترة على الأقل ، الى الاباضيين في محور تاهرت ـ غاو (Tahert-Gao) والى تواجد التجار العرب في شتى المناطق الأخرى .

وقد انتشر الاسلام في كل المناطق الصحراوية والشريط المتاخم للصحراء ، بما في ذلك السكان البرابرة، ولم تصمد في وجه هذا الانتشار إلا أثيوبيا . وقد أورد اليعقوبي معلومات دقيقة حول كل هذه المسائل وبذلك يتميز عمن سبقه من المؤرخين فقد كان ـ هذاالكاتب ـ كما أكد مترجمو حياته ـ رحالة بدون منازع ، إذ عاش على التوالي بأرمينيا وبلاد فارس والهند ومصر وربما في بلاد المغرب أيضا . وشكل هذان البلدان الأخيران بالنسبة له مركزين ممتازين للملاحظة والإستعلام عن وسط أفريقيا ، ولذا فهو يشكل هو ومؤلفاته بدون ريب مصدرا أغنى من الاشارات المتفرقة التي أوردها كتاب القرنين الثامن والتاسع ميلادي (الموافقين للقرنين الأول والثاني هجري) حيث قدّموا لنا جنوب الصحراء الافريقية في صورة منطقة حديثة الاكتشاف .

٢ ـ من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر ميلادي (منتصف القرن الثالث الى نهاية القرن السابع هجري) :

لقد أرّخ لجنوب الصحراء الافريقية في تلك الحقبة حوالي أربعين كاتبا . ومن المملّ ذكرهم جميعا ، فضلا عن أن معلوماتهم تختلف من حيث القيمة والفائدة .

لكن هذا العدد الوافر يدل على الأهمية التي اكتستها العلاقات العربية الافريقية في ذلك العهد .

وقد تآلف العالم العربي والاسلامي مع (جنوب الصحراء الافريقية الى درجة أن جل دائرات المعارف وكتب الجغرافيا العربية والفارسية أبرزت بعض الممالك والشعوب السود الشهيرة .

غير أن ثلاثة مؤلفين احتلوا بالأخبار التي أوردوها منصب الصدارة تلك الفترة وهم :

ـ أبوالقاسم محمد النسيبي **ابن حوقل** .
ـ وأبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد بن أيوب **البكري** .
ـ وأبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس الشريف الإدريسي .

وكان ابن حوقل ، أصيل بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) رحّالة بأتم معنى الكلمة وربما كانت له حسب ت . لويكي (٢١) صلة ما بالخلافة الفاطمية ، بصفةتاجر أو حتى مبعوث ، وقد زار بلدانا مختلفة كالهند وبلاد فارس ومصر وبلاد المغرب والأندلس وجنوب ايطاليا . وقد يكون أقام بأوداغوست (Awdaghost) وفي مملكة علوة النوبية .

وألف قبل وفاته سنة ٩٨٨ م . (٣٧٨ هـ) كتاباً في الجغرافيا اشتهر تحت عنوان « صورة الأرض »)٢٢(وقد يكون عنوانه الأصلي « كتاب المسالك والمسالك » .

ولذا كان ابن حوقل يدين كثيرا في هدفه ومنهجيته في ميدان الجغرافيا لأبي اسحاق بن ابراهيم بن محمد الاصطخري (٢٣) بما في ذلك العنوان الأصلي لكتابة الشهير فهو يفيدنا بكثير من المعلومات الجديدة التي يعود فيها الفضل الى رحلاته وأخبارها على الرغم من أنه لم يصل قطّ الى أوداغست (Awdaghost) وهو يرسم لوحة جذابة للصحراء الغربية وللعلاقات بين المغرب وأوداغوست وغانا . ويقّم لنا الكاتب كذلك وصفا لأوداغوست ، هذا المركز الهام الواقع بموريتانيا الحالية ، وللمسالك المؤدية لها ، ولنشاطها خاصة في ميدان التجارة ، ويعد هذا الوصف من أشمل الأوصاف التي أعدّها كاتب عربي عن مدينة أو شعب من جنوب الصحراء . ولم يهمل في وصفه البلاد النوبية ووسط الصحراء وغانا . وقد جاءت معلوماته عن هاته المناطق متمّمة لما أورده كاتب عربي آخر من مصر هو أبو الحسن علي بن الحسين

بن علي المسعودي في كتـابه « مـروج الذهب » (٢٥) وملخّصـه « كتاب التنبيـه والاشراف » (٢٦) وهما تألفان سابقان بقليل (٩٥٦ ـ ٩٥٧ م / ٣٥٥ ـ ٣٥٦ هـ) لـ « كتاب صورةالأرض » .

وتشهد جودة معلومات ابن حوقل ، وإننا إلى جانب رحلته نفسها على الموقع الهام الذي احتلته افريقيا في استراتيجية الفاطميين .

ولم يقتصروا على اعتبار سجلماسة والصحراء الغربية نقطة انطلاق وحجر أساس بسياستهم الرامية الى الاستيـلاء على الحكم فحسب بـل واصلوا اعتماد الـذهب الافريقي ، الضـروري لضـرب سكّتهم ورمـز عـظمتهم ، كبضـاعـة استراتيجية إلى أقصى حـدّ ، حتى بعد تـدعيم نفوذهم في مصـر حيث فرضـوا وجودهم كمهدد ومنافس وبديل مذهبي واقتصادي للحكم العباسي . وكانت كلّ من أوداغوست وسجلماسة تشكلان في تلك الفترة أكثر من أي وقت آخر مركزين أساسيين من مراكز عبور الذهب وهذا ما يفسّر دقةالمسالك المؤدية لها انطلاقا من مصر . ولم يتوقف ابن حـوقل عـلى مدّنـا بارشـادات عن علاقـات البلدان عبر الصحراء بل وجه عنايتـه أيضا الى العـلاقات التجـارية داخـل البلدان المتاخمـة للصحراء . وهو يمثل أقدم مصدر عن تجارة الملح البحـري بين أوليـل (Awlil) الواقعة على ضفة البحر الأطلسي وأوداغست ، وأخيرا ، سواء كانت معلومات ابن حوقل عن الممالك والدول والشعوب البرابرة والسودان ثانوية أو رئيسية بارزة فهي من الدقة بقدر يدعّم صورة الملاحظ والقائم بمهمة في خدمة الفاطميين .

ولا تسجل بعد ذلك أخبار جديدة عن جنوب الصحراء إلا بقلم البكري ، وهو الجغرافي الأنـدلسي الذي عـاش في القرن الحـادي عشر مسيحي (القـرن الخامس هجري) والذي لم يعرف بلادا غير بلاد الأندلس .

ويتجلى نبل نشأته وجودة ثقافته بوضوح في « كتاب المسـالك والممـالك » (٢٧) الذي أتم تأليفه سنة ١٠٦٨ م/ ٤٦٠ هـ) . ويعود الفضل في تلك الميزات

الى نسبة الاستقراطي والى علّو وظيفته إذ كان يشغل منصب وزير في دولة « ألماريا » الأندلسيةولم يقتصر البكري في عن ابن حوقل وبقية الجغرافيين العرب على عنوان كتابه . ومع ذلك فان وصفه للصحراء والبلاد المتاخمة لها يزخر بشتى المعلومات الجديدة ، ذلك أن العلاقات العربية الافريقية شهدت في عصره دفعا جديدا يتمثل في قيام حركةالمرابطين ونمّوها وتطورها في البلاد المغرب والأندلس . وكان منطلقهم ومركز قيادة جيوشهم متجذرين في الصحراء بعمق أكثر من الفاطميين .

ويندرج انبعاث هذه الحركة الدينية والسياسية وتوسعها أولا وبالذات في إطار ميزان القوى بين الدول المتاخمة للصحراء وكذلك في العلاقات المعقدة التي كانت تربط بين السلطة البربرية وافريقيا السوداء في الصحراء الغربية وبلاد السودان . وفعلا ، فان اتحاد القبائل البربرية : بصنهاجة وزناتة ، كانا يتنافسان بشدة على الصعيدين السياسي والتجاري ، بالاضافة الى علاقاتهما المتوفرة مع التكرور (Le takrur) (وهي مملكة السينغال وغانا التي كانت تبسط هيمنتها سياسية وتجارية يرفضها التكرور والبربر في نفس الوقت .

وتأتي الصراعات الايديولوجية والدينية بين المالكية ومذاهب أخرى يصفها السنيون بالمروق . وخاصة منها المذهب الإباضي أو الخوارج ، الذي كان يعّد كثيرا من الانصار شمال الصحراء وجنوبها وكذلك مذهب الشيعة الذي ساهم الفاطميون في انتشاره ، بقسط كبير واستماتوا في الدفاع عنه . وترجع تسمية المرابطين في الأصل الى بلاد المغرب حيث يطلقها ابن حوقل على الجنود الموجودين بالقلاع الواقعة بين صفاقس وبنزرت الكائنتين بالبلاد التونسية حاليا وعادة محط رحال المسافرين (٢٨) وكان عبد الله بن ياسين مذهب المرابطين ، مغربي النسبة ، وان كان في الوقت نفسه بربريا أصيلا .

وقد أورد البكري ارشادات أشبه بالتقرير الصحفي حول كل هذه المسائل وكذلك حول تطور حركة المرابطين عبر جنوب الصحراء ولدى قبائل صنهاجة

وموقعها ضمن العلاقات بين دول أفريقيا الغربية ، ويرجع له الفضل في اطلاعنا بالتفصيل على أهم مراحل انتشار حركة المرابطين في افريقيا السوداء الى بلاد المغرب بين سنتي (١٠٣٩م / ٤٣٠ هـ) و (١٠٦٨ - ١٠٦٧ م / ٤٦٠ هـ) .

وقد دفعت دراسة هذه الحركة للبكري الى أن يولي أكبر عناية لغرب الصحراء والمناطق المحيطة ، وفعلا فقد قام بدراسة مقارنة بين الوثائق العربية وحتى الأندلسية من جهة وبين المعلومات التي استقاها من الرحالة والتجار من جهة أخرى ليستخلص منها وصفا جغرافيا من أشمل ما يكون للمسالك والشعوب والممالك والمبادلات التجارية عبر الصحراء وبين البلدان المتاخمة لها في ذلك العصر.

وقد تعرض لوصف كل الطرقات وأهم محطات رحال القوافل عبر الصحراء بين مصر وشمال أفريقيا وافريقيا السوداء ، مطنبا في سرد معطيات مفيدة حول أصل التجار ونشاطاتهم وحول النبات والغابات بالمنطقة وأخيرا حول السكان البربر مبرزا للدور الأساسي الذي لعبوه في تنشيط المبادلات التجارية وتنظيمها .

ومع ذلك ، يمكن اعتبار ما كتب في وصف بلاد السودان ومدنها الشهيرة والعجائب التي تحويها ومعتقدات وتقاليد سكانها أسسا ثابتة للبحث في ميدان الانتروبولوجيا التاريخية ، ان لم نقل بداية لوضع علم خصائص الشعوب (أوالعراقة) حقيقي لبلاد السودان حوالي القرن الحادي عشر مسيحي المقابل للقرن الخامس هجري .

وليس في ماكتب أية أفكار مسبقة أو اعتبارات مشينة بل فيض من الأقاصيص الشيقة والملحوظات المدققة والملاحظات الثابتة .

وهنا لابدّ من ابداء ملاحظتين :

أولاهما أن البكري حسب ما هو مؤكد لدينا ، لم يتجاوز في رحلاته حدود الأندلس فمن أين له إذن بكل هذه الأخبار وإذا كانت مصادرها تتكون ولو بصفة

جزئية من التجار العرب والمسلمين يحق لنا أن نخّمن بأن البكري أحصى بدون شك عددا وافرا منهم في هذه الحقبة الامر الذي يدفعنا الى الاستنتاج بأن تلك الفترة عرفت تطورا مشهودا للعلاقات العربية الافريقية .

وثاني ملاحظاتنا في حالة بطلان الأولى أن الأندلس جّمعت قبل القرن الحادي عشر مسيحي (الخامس هجري) معلومات ومعارف جغرافية ذات قيمة علمية عالية حول الصحراء و ـ الافريقية والبلاد المتاخمة لها ـ أثراها وأعاد صياغتها الكتّاب الأوائل ، بفضل روح التسامح وبعد النظر العجيب الذين كان يتميز بهما العهد الاسلامي في اسبانيا .

وقد تداول هذه الأخبار الكتّاب اللاحقون ، بما فيهم الادريسي في القرن الموالي . لقد ولد الادريسي سنة (١١٠٠ م / ٤٩٣ هـ) بسوته (Ceuta) في عائلة شريفة الأصل ، ولكن ذلك لم يمنعه من خدمة ملك مسيحي روجي الثاني ملك صقلية ، بيد أنه أسرّ على الموت في مسقط رأسه سنة (١١٦٦ م/ ٥٦٠ هـ) . واستنادا الى بروكلمان ثم على وجه الخصوص ت . لويكي (٢٩) من بعده كان الادريسي رحّالة كبيرا زار لشبونة والسواحل الفرنسية ، وقضى فترة من الزمن بآسيا الصغرى وبأفريقيا الشمالية لينتهي به المطاف الى باليرمو (Palermo) بصقلية وعمره آنذاك ٣٨ سنة .

وهناك ، وتلبية لرغبة ملك صقلية الذي قد يكون سخّر له جميع الوسائل ، قام بتدوين « كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » الذي عرف حتى سنة (١١٥٤ م/ ٥٤٨ هـ) تحت اسم « كتاب رودجر ، (Le Livre du Rogger) ولم يكن كتابه ذلك إلا بداية إذ أنه ألف بعد بضعة سنوات كتابا ثانيا في الجغرافيا اسماه « روض الأنس في نزهة النفس » وبعد قرن من ذلك التاريخ أعدّ كاتب مجهول مختصرا لذلك الكتاب ، تحت عنوان « أنس المهج وروض الفرج » المعروف بـ « الأدريسي الصغير » .

وقد لاقت مؤلفات الادريسي رواجا لا مثيل له في العالم العربي الاسلامي وحتى في البلدان المسيحية في القرون الوسطى حيث كوّنت مصدرا يكاد لا ينصب لمعرفة بلدان أعماق أفريقيا .

ويرجع هذا الرواج العجيب لمؤلفات الادريسي الى جودة الحوصلة التي لكل المعارف السابقة ويحتوي كتاب روجر (Le Kitab Rudjar) على تصنيف للمعالم الى مناطق حسب وعلى الأقاليم الشهيرة الموروثة عن جغرافيا اليونانيين . وهكذا الأقاليم السبعة التي تصنّف بلدان المعمورة والتي عرفها المؤلف لا تقل الأقاليم المطابقة لافريقيا عن أربعة .

وتحتل القارة الافريقيةالجانب الأوفر من الكرة الأرضية التي صممها في أولى تآليفه . ويتضح ذلك جليا في النص . وفعلا فان كلّ اقليم (Climat) قسم الى فروع ، وكل فرع تمثل منطلقا لوصف زاخر بوافر التفاصيل عن موقع المدن الكائنةجلها على ضفة نهر أو بحر ، وعن المسافات الفاصلة بينها عن أنواع الغذاء والهندام لدى السكان وعن النشاط الاقتصادي والمبادلات وحتى عن الملوك وعظمتهم ان وجدوا . ويورد الادريسي على غرار معاصرة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري معلومات قيمة عن أهم صادرات بلاد السودان : كالعبيد وغالبهم من الاسرى والخدم والغالب على الظن انهم من المسلمين ، والذهب والعاج ، الخشب الاسود وأنياب الفيلة ، وجلود الدروع من اللمط . وقد تعرض أيضا لذكر الواردات كالنحاس الاحمر والملون والمعاطف والثياب الصوفية ، والبلور والحلزون والعقاقير ، والطيب والآلات الحديدية . وبصفته جغرافيا يطمح الى الشمولية ، لم يهمل الادريسي ملاحظة الأشكال الطبيعية (الهضاب والأودية) والتأكيد على ملامح وسمات السكان .

وان بعض المعطيات عن مجاري المياه من أنهار وبحار وأودية ، وخاصة منها منابع نهر النيل في جبل القمر والتقاء أنهار السينغال والنيجر والنيل قد أصبحت

بسرعة معارف تقليدية لمدة طويلة جدا .

ولا ريب أن مثل هذا العدد الوافر من المعلومات التي أوردهـا الادريسي حسب منهجية علم الخرائط ستؤدي لا محالة الى تناقضات وأخطاء فادحة مما نتج عنه ، حسبما لا حظه م . دولافوس (M. Delafosse) شيء من الغموض في هذه المعلومات .

ولا يزال كتاب « نزهة المشتاق » مرجعا هاما لتاريخ أفريقيا . ولذا فان نشره كاملا من طرف الإيطاليين يعد من أحدث وأهم التطورات نحو إعادة الإعتبار للادريسي (٣٢) .

٣ ــ من القرن الرابـع عشر الى القـرن الخامس عشـر مسيحي (الموافق للقرن الثامن الى القرن العاشر هجري) .

لقد وصف ت . لويكي (T. Lewicki) هذه الفترة بأنها فترة حوصلة وإعادة اعتبار لبلاد السودان (٣٣) من طرف العـرب . وفي الواقـع فان قيـام هيمنات سياسية جنوب الصحراء الى جانب الموقع الذي احتلته افريقيا السوداء في العلاقات الدولية والذي كان ينمو باطراد خلال هذين القرنين قد جلبت اهتمام كل الطبقات الحاكمة والنخبة المثقفة في بلدان البحر الابيض المتوسط .

ومن بين الكتاب العرب الذين عبروا عن هذا الاهتمام المتزايد شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العودي العمري ، وقد عاش هذا الكـاتب خلال النصف الاول من القـرن الرابـع عشر مسيحي (القـرن الثامن هجري) خاصة بالقاهرة حيث قدم اليها من بلده الاصلي سوريا ليشغل وظيفة لدى دولة المماليك ، مكلف خاصة بالمراسلات الرسمية للسلطان .

ويعود له الفضل في اكتشاف دائرة معارف تقع في اثنين وثلايى جـزءا ، شملت ميادين التاريخ والجغرافيا والقانون والدين والأدب والادارة الخ . . عرفت

باسم « مسالك الأبصار في ممالك الامصار » (34) ومع ذلك فهي تشكل أحد التآليف الأحد عشر التي اطلع عليها . وهو يطلعنا بفضل المنصب الذي شغله ومن خلال كتيب « التعريف بالمصطلح الشريف » على مدى الأهمية التي اكتستها العلاقات الدبلوماسية مع دول أفريقيا السوداء في بلاط المماليك . ويفيدنا هذا العرض الموجز بالارشادات والتقاليد البروتوكولية التشريفية بالاضافة الى المعلومات الدقيقة عن مدى اتساع رقعة الحكم والعظمة الحقيقية للملوك التالين :

ملك التكرور ، وهو امبراطور مالي .

ملك بورنو (Bournu) وكذلك ملوك كانم (Kanem) ودونكولا (Donk- ula ou Dongola) النوبية ونجاشي أثيوبيا (Les Negus d Abyssinie) والملوك المسلمين لامارات « أوفت » (Awfat ou Wafat) و « داوارو » (Dawaru) و « هادية » (Hadya)و « عرباني » (Arabani) و « شرخة » (Sharkha) و « بالي » (Bali) و « دارا » (Dara) التي قامت بأثيوبيا .

ومع أن عبارات البروتوكول أو التشريفات ، كانت كالعادة شكلية وسطحية وجوفاء بقدر ما هي مبتذلة فان قراءة كتاب التعريف تستدعي الملاحظات التالية :

- ان العمري يفيدنا بتفاصيل غريبة عن كيفية الاستغلال اليدوي لمناجم الذهب الى حد اننا نتساءل اذا كان جزمه ناتجا عن معلومات أرادها الكاتب خيالية ومذهلة محيرة (مشككة) بعد أن كان استقاها من الأفارقة أنفسهم حول كل ما يتعلق بمصدر الذهب وانتاجه .

- ولا تتماشى هذه المعلومات مع دقة الارشادات ذات الصيغة السياسية عن امبراطورية مالي ، وعن الهيمنة التي كان يفرضها على بلاد التكرور (Le Takrur) والغاو أو كاوكاو (Le Gao ou Kawkaw) وغانا ، وعن المقاومة الحازمة التي أبداها سكان المناطق الحاوية للذهب تجاه الفتح الاسلامي .

ـ وقد أشار الادريسي من قبل الى أن سلطان غانا علوي النسب ثم كرر الادريسي تلك الاشارة لما تعرض لذكر لمانسا المالي (Mansa) أو سلطان كانم (Kanem) ويبدو أنه لم يكن يصدق على غرار الادريسي صحة هذا النسب الى درجة انه في مراسلته اياه اذ يقول : « اياك ان تبين أو تذكر للسلطان أدنى لقب فيه تلميح الى نسبه العلوي » . مما يدل على أنهم لا يولون أي أهمية لهذا الانتساب ومع ذلك ، فان كاتبنا يلتزم الحذر حين يتعرض لذكر سلطان كانم (Kanem) ويكتفى بأن يلاحظ أن هذا السلطان ينحدر من أسرة عريقة في الاسلام . والجدير بالذكر ، أن هذه الأنساب الدينية وهي المغتصبة ، تنحدر من سلالة علي بن أبي طالب عن طريق ابنه الحسن . ويبدو انها ترمز للتأثير ولو البعيد للشيعة أكثر من رمزها لشهرة رابع الخلفاء الراشدين .

ـ وأخيرا يدل وجود هذا الكتيب على أن القرن الرابع عشر مسيحي قد طبع بمرور السلاطين الأفارقة بالقاهرة في طريقهم الى مكة ، وعن الدور الهام والمتزايد لمصر في عهد المماليك كشريك تجاري وتشكل هذه الجوانب الأخيرة لـ « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » المخصصة للحديث عن أفريقيا السوداء » . أما الجزء الخاص بالجبال والأنهار والبحيرات فهو لا يعدو أن يكون تجميعا لمؤلفين سابقين كابن سعيد الدمشقي ، اكتفوا في غالب الأحيان بتكرار المعلومات التي أوردها الادريسي أو البكري ، وخلافا لذلك ، فان فقرات هامة من هذا الكتاب تقدم جملة من المعلومات الجديدة المستقاة بواسطة التجار والمسافرين والمبعوثين الأفارقة الدبلوماسيين المماليك ، والحجاج القادمين من جنوب الصحراء وسامي رجال مصر الذين اتصلوا بالنمسا أو موسى (Le Mansa ou Musa) خلال أدائه لفريضة الحج سنة(١٣٢٤م/٧٢٤هـ). فان العمرى يذكر في نص من بين مخبريه : « أبو عثمان سعيد الدكالي أصيل المغرب الذي عاش مدة خمس وثلاثين سنة بـ « نياني » (Niani) عاصمة مالي . وأبو الروح عيسى

الـزواوي وأبـو الحسن عـلي أصيـل القـاهـرة من المـانسـا مـوسى (mansa Musa) ويمكنه تنوع هذه المصادر الجديرة بـالثقة واحـدة ، من تقديم وصف شامل وطريف لـ « مالي » سجّل فيه كل شيء أو يكاد بعناية : الاتساع والعظمة الحقيقية للامبراطورية وحلفاؤها ، عاصمتها ، منتوجات سكانها ، النبات ، الحيوان ، اللباس ، الغذاء ، ، السلاح ، وحتى البروتوكول والحياة داخـل بلاط المانسا . ولم يهمل ذكر المواد الخاضعة للتجارة عبر الصحراء وفي مقدمتها الذهب ثم الملح ، واللذين غالبا ما يكونان عـرضة للمبادلة الـواحد مقـابل الآخر . وكذلك الجياد العربية ، حيث خصصت مبالغ هامة لتوريدها . وهناك أخبار أخيرة عن « مالي » تستحق العناية . الا وهي التي رواها المانسا موسى بنفسه ، والتي ذكرها أبو الحسن علي من بعثة ما وراء البحّار المنظمة من طرف سلفه أبي بكر حيث أودت بحياته في محاولة منه على ما يبدو لعبور البحر الأطلسي وبلوغ أقصاه وقد أخفقت هذه البعثة ، بدون شك لأسباب تقنية الا أنها تدل من ناحية ، على أن أفريقيا السوداء قد اهتمت بالبحار وعلى الأقل في تلك الفترة ومن ناحية أخرى على أن صدى المحاولات ما وراء البحر الأبيض المتوسط قد بلغ فعلا جنوب الصحراء ومن هذه الزاوية ، تختلف ملاحظات المانسا موسى حول سلفه الذي لم يكن يعتقد أن عبور المحيط أمر مستحيل عن الخرافـات التقليدية التي تقدم لنا صورة قائمة عما تسميه بـ « البحر الأظلم » .

ولا تقـل ارشادات « ممـالك الأبصـار » عن البربـر والكـانم (Kanem) والنوبيين وأثيوبيا أهمية رغم انها أقل تفصيل أنواع غذاء ولباس السكان ، تقدم ، وانتشار الاسلام ، المبادلات التجارية .

ولم تفق هذه المعلومات جودة وفائدة الا تلك التي أوردها شمس الدين أبو عبد الله بن عبد الله بن محمد اللواتي الطانجي المشهور بلقب « ابن بطوطة » فقد كان أحد كبار الرحالة العرب ، سواء بعدد البلدان التي زارها أو بالمسافات التي

قطعها والوقت الذي قضاه في السفر : شمال أفريقيا ، الشرق الأدنى ، كل القارة الآسيوية حتى بلاد الهند وسوماترة والصين مدة سبعة وعشرين سنة وقد ولد في عائلة بـربـريـة سنـة (١٣٠٤ م/٧٠٣هـ) بـطنجـة وتـوفي سنـة (١٣٦٨ م أو ١٣٧٧ م/ ٧٧٠ هـ أو ٧٧٩ هـ) واذا كانت أسفاره في أنحاء العالم الأخرى تنم عن شغف الرحالة والفضول العلمي لمسلم يرغب في طلب العلم ولو في الصين فان الرحلة الى أفريقيا السوداء ابتداء من سنة (١٣٥٢ م/٧٥٣ هـ) قد قام بها على ما يبدو بأمر من السلطان المريني أبي عنان (١٣٤٩ مـ ١٣٥٨ م/ ٧٥٠ ـ ٧٥٨ هـ) .

وحرر رواياته عن كل هذه الرحلات وباملاء منه كتاب البلاط المريني أبي جزئ ، مما يدل على الأهمية التي كان يوليها أبو عنان نفسه لمحتواها وأسمى كتابه المتضمن لرواياته تلك ، « تحفة النظار في غرائب الأمصـار وعجائب الأسفـار » (٣٥). وهو ممتع في مطالعته امتاع التقرير الصحفي ، ذلك أن هذا الرحالة أبدى براعة نادرة في الفن القصصي ، فضلا عن ملاحظته الدقيقة لأدنى التفاصيل وقد زار سواحل أفريقيا الشرقية وخاصة كلوة سنة ١٣٣١م/٧٣١هـ) كما اطلع على جلّ مدن بلاد السودان الغربية بين سنتي (١٣٥٢ و ١٣٥٣م/٧٥٣ ـ ٧٥٤هـ) وامتاز في لمس مختلف جوانبها على جميع الكتاب العرب .

وقـد استـطاع فـريمـان قـريفيـل (Freman - Greenville) بـدون شـك مـلاحظة أخـطاء وصفه لأفـريقيا الشـرقية بيـد أنه فيـما يتعلق بـ « مـالي » فـان رواية ابن بطوطة تعتبر بدون ريب أهم وثيقة مفصلة نعرفها عن هذه المنطقة في ذلك العهد (٣٦) ذلك أن هذا الجزء من روايته قد وقع تحريره أو بالأحرى املاؤه أثر الرحلة ببضعة أشهر ، بخلاف الجزء الخـاص بشرقي القارة الأفريقية الذي لم يقع تدوينه بالاعتماد على الذاكرة وبدون مذكرات مكتوبة فحسب بـل وقع أدراجـه بالخصوص ضمن وصف لمناطق اكثر غرابة مثل آسيا الوسطى أو الهند أو اندونيسيا تمكن أهم معاني رحلاته الى أفريقيا السوداء وروايته عنها ، فضلا عن المعلومات التي أوردها في الملاحظات التالية :

ـ من الناحية الجغرافية وحتى الدبلوماسية ، عبر المرينيون في المغرب ، من خلال ارساله في بعثة عن رغبة واضحة في الحصول على أدق المعلومات بصفة مباشرة عما يجرى حقا جنوب الصحراء .

ـ اهتم ابن بطوطة على وجه الخصوص بنمط العيش داخل بلاط « مالي » ولاحظ بعناية نظام التشريفات وحب العدل لدى الملك ، وحتى تقواه وكيفية تعلقه بالاسلام . ولنا أن نتساءل ، عند قراءة بعض النوادر التي نقلها وآرائه عندما يجرؤ على ابداعها ، اذا كان يولي عناية فائقة لملاحظة الممارسات الدينية والثقافية التي تميز السني المسلم (الصلاة ، الصوم ، حفظ القرآن وتلاوته) زيادة عن الأمن والثقة وروح العدل عند السكان السودان .

ـ ومن الغريب ، بالمقابل أن نجد تفاصيل قليلة عن الحياة الاقتصادية والعلاقات التجارية في حين أن كاتبنا التحق بالقوافل في رحلاته ، وأقام في معظم المراكز التجارية .

وقد يؤكد مثل هذا التغافل الأهداف الحقيقية للمهمة التي أرسل من أجلها وهي استقاء معلومات ضافية عن مدى أسلمة (تأسلم) أفريقيا السوداء وعن مدى النفوذ الحقيقي للملوك الحاكمين في سكانها وعن مدى انتهاء وتعلق هؤلاء بحكامهم وبالاسلام نفسه .

أما آثار ابن خلدون ، وهو من أهم الصروح في العالم العربي ، فهي من صنف آخر . ولد هذا المؤرخ بتونس سنة (١٣٣٢م/٧٣٢هـ)، وتوفي بالقاهرة سنة (١٤٠٦م/٨٠٩هـ) بعد ان كرس نفسه لخدمة سلاطين الاسلام في الغرب وخاصة أبا اسحاق ابراهيم الحفصي ، وأبا عنان المريني ، في نفس فترة ابن بطوطة تقريبا وقد قدم الى القاهرة سنة ١٣٨٢م/٧٨٤هـ)، حيث شغل منصب قاض واستغل هذه الاستراحة النهائية لحياة مليئة بالمغامرات والتقلبات ، لينهي كتابه الذي يتألف من مجموعة ضخمة تقع في سبعة أجزاء أولها المقدمة (٣٧) التي

نشرت على حدة أما بقية الأجزاء فقد شهرت باسم « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . في تاريخ . . » (٣٨) وتتضمن المقدمة في الحقيقة ، تأملات نقدية وجملة من المواقف حول مختلف المسائل المتعلقة سواء بعلم الاجتماع أو علم الأنساب أو « الانتوغرافيا » أو علم الفراسة أو تأثير المناخ على سلوك السكان وديانتهم .

وتجاوزت المقدمة مختلف النظريات والآراء الصادرة عن سلفه من المفكرين العرب حول هذه المسائل . بيد انه من العسير ان نعثر على معلومات جيدة عن جنوب الصحراء .

وقد أصاب ف. مونتاي (V. Monteil) حين أسماها « حديث حول التاريخ العالمي » على عكس « كتاب العبر » الذي يتضمن خاصة في أجزاء من المجلدات ٥ , ٦ , ٧ حصيلة زائفة لتاريخ السودان . وخلافا لجميع أسلافه . أراد مؤلفنا أن يدون فيه تاريخا حقيقيا ، أكثر من أن يرمي الى اطلاعنا على تفاصيل خاصة بالسودان بله افادتنا بمعلومات جزئية وقد اعتنى حقا بسبك نصه ، وأطلعنا على التطور التاريخي والاقتصادي لبلاد السودان وكذلك على العلاقات الدبلوماسية والدينية والثقافية التي تربط ممالك أفريقيا السوداء الى العالم العربي الاسلامي ، وفي هذا دلالة على أن هذا الأثر يشكل مصدرا فريدا في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لممالك المنطقة من العالم البربري حتى « مالي ». وربما مثل هذا الكتاب الى حد علمنا آخر مرجع عربي أساسي عن هذه المنطقة في ذلك العهد ، ولا نلاحظ في الواقع وهنا في العلاقات الرابطة بين بلاد السودان الغربية والعالم العربي اذ هي واصلت نموها لكن مفكري العالم العربي الاسلامي انصرفوا عن الاهتمام بهذه العلاقات ، وفي المقابل ، تطورت دراسة بلاد السودان الوسطى وأفريقيا الشرقية من حسن الى أحسن بفضل مفكرين مثل شهاب الدين أبي العباس احمد بن علي بن احمد بن عبد الله بن أبي غض القلقشندي (المتوفي سنة ١٤١٨م/٨٢١ هـ) . فقد مكنت كثير من فهم وتقييم أفضل المعلومات التي أوردها العمري في كتابه « صبح الأعشى في صناعة الانشاء » (٣٩) الذي

يورد تفاصيل مفيدة عن العلاقات بين مصر في عهد المماليك وبورنو (Bornou) وعن التاريخ السياسي لهذا البلد واعتنى المؤرخ المصري أبو العباس احمد بن علي بن عبد القادر الحسيني تقي الدين المقريزي الذي عاش بين سنتي ١٣٦٤ و ١٤٤٢م/٧٦٦ - ٨٤٦هـ) من ناحيتين لدراسة المنطقة النوبية وبلاد باجة (Bedja) في كتاب « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » بينما أفرد كتابا آخر لوصف أثيوبيا وخاصة الجزء المسلم منها وهو « كتاب العلمان بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ».

جـ ـ الأزمات :

وابتداء من نهاية القرن الخامس عشر مسيحي دخلت العلاقات العربية الافريقية في أزمة طويلة المدى . ولا يعني هذا بالمرة ان هذه العلاقات كانت هادئة في ما مضى ، الا ان ضفتي الصحراء شهدت كلتاهما اعادة تركيز علاقتهما وتوجيهها مع بقية العالم فان جنوب الصحراء اندمج سريعا ، ومنذ وصول البواخر والتجار البرتغاليين في الاستراتيجية المصدرة للمنتوجات ورجال الأعمال الاسبان والبرتغاليين والرامية الى فتح طريق الى بلاد الهند من خلال الملاحة في السواحل لجنوب الصحراء عبر المحيط الهندي ، واندمج البرتغاليون بسرعة كبيرة في شبكة المبادلات التجارية القائمة عبر الصحراء وبين البلدان المتاخمة ولو أن السفن لم تفلح في محو القوافل كما لم تفلح العلاقات الأطلسية في القضاء على المبادلات الصحراوية .

ومع ذلك فان نمو التجارة عبر المحيط وقدوم الأوروبيين قد قلبت رأسا على عقب النظام التقليدي في وقت قصير . ذلك ان المناطق الساحلية شهدت اقامة المصارف والوكالات التجارية كمراسي للنشاطات الأوروبية اجتذبت أهم المنتوجات الأفريقية بما فيها تجارة العبيد .

أما شمال الصحراء فقد كان يعاني من النهضة المسيحية وخاصة الاسبانية

والبرتغالية أكثر فأكثر في المجال التجاري ثم في المجالات الجغرافية والسياسية والدينية .

وقد وقع جزء من التراب المغربي نفسه بين أيدي البرتغاليين بعد سقوط « سوته » سنة ١٤١٥م ولم يكن ذلك الا انذارا اذ تلتها غرناطة آخر معقل للاسلام في بلاد الأندلس حيث سقطت بدورها كالثمرة الجنية تحت ضربات جيوش الملوك المسيحيين في نهاية ذلك القرن ومن هنا فصاعدا أصبح الأتراك هم الذين يقاومون ويصدون الهجومات المسيحية في البحر الأبيض المتوسط أكثر من العرب . وقد تضاءلت أهمية المصادر العربية نتيجة لهذا الظرف الدولي الخاص وكذلك لان المسالك والمبادلات التجارية عبر الصحراء قد تجاوزتها طرق أخرى أكثر حداثة .

وكان محمد بن عبد الكريم بن محمد بن مغيلي التلمساني المتوفي بالتوات حوالي سنة (١٥٠٣ ـ ١٥٠٤م/٩٠٩هـ) بدون ريب أحد المثقفين المغاربة المتأخرين الذين عبروا الطرق الصحراوية للذهاب الى تلمسان في بلاد الهوسا (Hawsa) حيث أقام بـ « كاتسنا » (Katesma) و « كانو » (Kano) ثم بـ « غاو » (Gao)في امبراطورية الشونقاي (Shongay) ولم تكن هذه الرحلة مناسبة كتابة أخبار أو كتاب جغرافيا بقدر ما كانت تحريرا بطلب من الاسقياء محمد عاهل الشونغاي لجملة من التوصيات المفصلة لاقامة حكومة وادارة مطابقتين للسنة وللمبادئ الأساسية للمدرسة المالكية وكان هذا الكتاب « أجوبة عن أسئلة الأمير الحاج أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (٤١) ثاني كتاب من نوعه ألفه المغيلي بطلب من أمير أفريقيا السوداء وفعلا فقد حرر لدى اقامته ببلاد الهوسا كتاب « رسالات الملك » لمحمد الرومفا عاهل « كانو » (٤٢) :

ويطبع المغيلي الفترة التي انشغل خلالها الملوك الأفارقة اكثر من أي وقت آخر باحترام قوانين الحكم المستبدة من الاسلام السني وكانت تلك خير فرصة لهذا التلمساني كي يفسح المجال لفرض نفسه ككاتب اخلاقي يدعو الى التزمت .

ومن جهة أخرى شهدت هذه الفترة ازدهار الأدب العربي المتعلق بأفريقيا السوداء فقد حرر مختلف المفكرين من بلاد السودان كتبا ودائرات معارف وتأملات أقصر وحتى أشعارا مطبوعة في الغالب بطابع القوالب الثقافية وأساليب التفكير المميزة للإسلام ونعد من بين هؤلاء التومبوكتيين وأهل الهوسا على حد السواء . وقد تقدمت البحوث المتعلقة بهذه المؤلفات وخاصة التاريخية منها منذ عدة سنوات .

ومن الغريب أن هذه الفترة تأثرت بالغزو المغربي للسونجي (Songhay) وقد انكب المؤرخ زاكارى درامـاني ايسيفو (Zakari Dramani Issifou) أصيـل البيتان (Le Beutin) أخيرا على دراسة هامة لهذه الأزمة تمكنا من سبر مدى اتساعها وعواقبها وانعكاساتها .

ولنا أن نخمن أن قدوم جيش المنصور السعدي سنة ١٥٩١م الى الشونغاى ساهم بقدر كبير في اختلال المبادلات عبر الصحراء مفسحا المجال في نفس الوقت لتبديل وجهـة المنتوجـات والمعامـلات التجاريـة نحو السـواحل لفـائدة التجـار الأوروبيين .

وفي نطاق مقاومة هؤلاء نلاحظ بالتأكيد طوال القرون السابع والثامن عشر والتاسع عشر مسيحية (القرون ١٢ و ١٣ ١٤هـ) بصمات واضحة جدا للطابع الاسلامي في شمال أفريقيا والصحراء على النخبة المثقفة من المسلمين فـي أفريقيا السوداء لكن الأسس التجارية والاقتصادية لهذه العلاقات كانت قد اضمحلت بعد آنذاك .

مساهمة المصادر العربية في تاريخ أفريقيا السوداء

أ ــ المصادر العربية ومعرفة أفريقيا :

ان استعمال الجانب الأكبر في تلك المصادر كان في عهود مختلفة غير منفصل عن البحوث الأوروبية الهادفة الى التعرف على أفريقيا .

فمنذ القرن ١٤ والقرن ١٥م/٨و٩هـ تمكن واضعوا الخرائط المنتمون الى مدرسة مايوركا في بلوغ تلك المصادر لفائدة أوروبا التي أخذت تهتم بأفريقيا السوداء والتي تحاول نظرا لمزيد نشاطها في التجارة المتوسطة الاطلاع عما يجرى جنوب الصحراء .

وهكذا تجلى فضل المؤلفين مثل البكري والأدريسي في بعض الخرائط المايوركية كالتي وضعها أدولسير (١٣٣٩م/حوالي٧٤٠هـ) والتي تهم أفريقيا في خرائط أطلس كاتالان (١٣٧٥م/٧٧٠هـ) وخاصة التي وضعها ميسيا فيلادس (١٤١٣م/٨١٦هـ) .

فأسماء المواقع منقولة مباشرة في العربية بينما الكثير في الشروح والرسوم الموضحة عبارة عن تركيب معلومات مستقاة من مؤلفين عرب أو تصويرها ، ومنهم العمري وابن خلدون اللذين يبدو انهما كانا معروفين من طرف واضعي الخرائط .

وفيما بعد ، اي في القرن ١٩ ، نشاهد اكتشافا جديدا هو عبارة عن اعادة استعمال الأوروبيين للمؤلفات الجغرافية العربية بأكثر منهجية .

وكانت الغاية من استعمال المصادر العربية والاحتياجات التي دعت اليه وأشكال المعرفة التي تميزه قريبة جدا في استعمالات من أطلق عليهم وقتئذ اسم « المكتشفين » .

ففي رأي باربي دي مينار ، وبافي دي كورتال ، أول مترجمي المسعودي وماك

غوكين دي سلان الذي حقق كتاب المسالك والممالك للبكري ، وأ. جوب وخاصة أ. دوزي ، وج. دي غوج ، الذين نشروا كتاب نزهة المشتاق للادريسي ، وكثيرين غيرهم ، فان الأمر كان يعني القاء الضوء على مؤلفات جغرافية يحتمل أن تساعد على استكمال المعلومات الخاصة بداخل أفريقيا .

إن اهتمامات مماثلة سيطرت فعلا على الاستشراق والافريقيانية في أوائلها ، وقد مكنت الدراسات العربية الأوروبيين من وسائل تكوين المترجمين والاداريين القادرين ، على ما يعتقد ، على تفهم المستعمرين . لكن نمو تلك الدراسات ساعد أيضا على نشر كبريات المؤلفات الجغرافية العربية وترجمتها .

وتقدمت البحوث سريعا الى درجة ان بروكلمان تمكن ، منذ ١٨٩٨ ـ ١٩٠٢ من نشر الجزئين الأولين من مؤلفه الضخم تاريخ الأدب العربي باللغة الألمانية والذي نشرت أجزاؤه الثلاثة الموالية بين ١٩٣٧ و١٩٤٢ . وفي ذلك دلالة على التقدم الكبير المسجل في اكتشاف المكتسبات العلمية للمفكرين العرب ـ المسلمين في العهد الكلاسيكي ووضعها على ذمة المؤرخين .

ولابد من الاشارة الى أن المؤتمرات الدولية للمستشرقين المطلعين منذ نهاية القرن ١٩ سمحت أيضا لأغلبية المهتمين بالدراسات العربية والأفريقية بتقدير أهمية الجغرافيا العربية وجدواها خاصة في معرفة البلدان الأفريقية .

ومهما يكن من أمر فان النصف الأول من القرن العشرين وهي فترة انتشار الاستعمار والادارة المباشرة في البلدان الافريقية يصادف اعادة توجيه استعمال المصادر العربية .

وكانت القارة الأفريقية أو على الأقل المجموعات الجغرافية الكبرى منها معروفة بصورة نهائية ومرتبة في بطاقات فيما يبدو لكن مشكلة كبرى كانت تواجه الادارة الاستعمارية وهي : كيف كان التطور التاريخي لهذه البلدان خلال القرون

السالفة ؟ وكيف يمكن ابلاغه ؟ فقد نفر أكثر من مؤرخ في أفريقيا السوداء لفقدان الكتابة أو جهلها التام تقريبا في عهد كانت هي الشكل الاساسي للاتصال بالاضافة الى أنها تعتبر ، لا فحسب ، الوسيلة الوحيدة لترسيخ المعلومات في الذاكرة والمحافظة عليها ، بل وأيضا « صانعة » التاريخ .

وعكف آخرون على سبيل الذكر لا الحصر أمثال م. دي لافوس (٤٥) وش. مونتاي (٤٦) وحتى هـ.ر. بالميروج . ماركاروي. أورفوي على اتقان اللغات الأفريقية من ناحية والبحث أحيانا من ناحية أخرى في المصادر العربية عن المعلومات التي تُيسر في نظرهم معرفة تعمير المناطق التي يدرسونها والحضارات القديمة التي مرت بها .

واليوم هناك ما يقال كثيرا عن تلك الدراسات التاريخية الرائدة سواء كانت علمية بحتة أو محافظة . اذ ان قلة من أولئك المؤرخين اهتدوا الى تجنب اصدار الأحكام التقديرية وصبغ الماضي الأفريقي بافتراضاتهم الايديولوجية والسياسية المقامة على عجز الأفارقة عن أن يكونوا العناصر الاساسية الفعالة في صناعة تاريخهم وعلى النظريات العنصرية المسيطرة وقتئذ على التفكير الأوروبي .

وهكذا وقع ترتيب الشعوب الأفريقية في عدة أصناف متفاوتة « التحضير » حسب الجهات التي يعيشون فيها والملامح البدنية ، وخاصة لون البشرة التي تميزهم ، بالاضافة الى ذلك فان كل التلميحات الزاعمة بأن أصل تلك الشعوب من خارج أفريقيا والتي قد يجدونها في المصادر ، استعملت لاقامة الدليل على أن التطور التاريخي كان خاضعا في كل أرجاء أفريقيا السوداء الى العلاقات بالقارات الأخرى أي أفريقيا وآسيا . وهكذا كانت شعوب هاتين القارتين وحضاراتهما تشكل بفضل تدخلاتها منذ العصور القديمة ، المصادر الاساسية للتقدم الحاصل لدى الأفارقة .

وفي نطاق وجهة النظر هذه فقد وقعت اقامة سلسلة تحويل كاملة انطلاقا من

شعوب الجنس الابيض المعتبرة أو في غيرها ثم من الحامية والحامية السامية التي تشبه الشعوب الصحراوية والساحلية ذات البشرة المتفاوتة بياضا ، وأخيرا لسكان المفاوز والمناطق الغابية ووقع العمل بتلك السلسلة بحذافيرها دون اعادة اي اهتمام بالأحداث التي قد تدعو الى اعادة النظر فيها .

ولئن استخدمت المصادر العربية لهذه الغايات فان علينا أن نعترف بفضل تلك البحوث في التعريف بدقة بمواقع جغرافية ومدن ومناطق وممالك وشخصيات معروفة في الجغرافيا العربية .

المصادر العربية والجغرافيا التاريخية لافريقيا :

يمكن ان تندرج في هذا الباب سلسلة كاملة من البحوث والأشغال المختلفة التي قام بها مؤرخون أوروبيون فيما بين الحرب العالمية الثانية وفترة الاستقلال .

وأول النماذج هي التي قام بها أ. ج. أركال عن السودان ومنطقة بحيرة التشاد (٥٠) وج. س. ب. فريمان ـ غرانفيل عن الساحل الشرقي وبلاد سواحلي (٥١) و ر. موني عن غربي أفريقيا .

وبفضل هؤلاء المؤلفين الثلاثة فحسب أمكن الحصول على بحوث تغطي من الشرق الى الغرب كل الجهات المتاخمة للصحراء والتي شرعت في الاتصال بالعالم العربي الاسلامي في البحر الابيض المتوسط .

وقد وقع استخدام الجانب الأوفر الضخم في المصادر العربية التي تعرفنا عليها في الوقت الحاضر . وأضحت النتائج المتولدة عنها أخاذة وعديدة في الآن نفسه :

ـ أولا تم تحديد دقيق لكل الجهات الافريقية المعروفة لدى الكتاب العرب والموصوفة من طرفهم .

ـ تم تشخيص الشبكات الاقتصادية عبر أفريقيا أو البحرية والساحلية بالنسبة الى أفريقيا الشرقية والمراكز العمرانية والتجارية والمواد المتبادلة بين الأفارقة والعرب من القرن ٨م/٢هـ الى القرن ١٦م/١٠هـ .

ـ بالاضافة الى تفاصيل هامة جدا عن مختلف البنى السياسية (امبراطوريات ، ممالك ، امارات) وعن الاحداث التي ذكرها المؤلفون العرب .

ـ وأخيرا تحليل مقارن عن قيمة ودقة الشهادات المختلفة التي ذكرتها المصادر العربية عن مختلف المسائل .

وقد قامت تلك الأعمال بدور لا ينكر في كشف أهمية الحياة الاقتصادية والسياسية الماضية في المناطق المتاخمة للصحراء وقيمة العلاقات القديمة والصحراء وامكانيات البحوث التي وفرتها المصادر العربية لدراسة التطور التاريخي لأفريقيا السوداء .

ومع ذلك لابد من الاعتراف بمحدودية تلك المصادر . فأهم الحدود كان يكمن من ناحية في كون المؤلفين بالجغرافيا الاقتصادية وبدراسة المناطق ودورها عناية أكثر من عنايتهم بالسكان

أنفسهم وبدورهم بعلاقاتهم الداخلية الصرفة . ومن ناحية أخرى فانهم لم يتعرضوا للتدرج الزمني ولتحليل التحولات الفنية والاجتماعية والسياسية التي لا شك فيها طوال مدة هذا القبيل .

وبالمقابل فهناك الكثير مما يمكن استخلاصه من تلك المؤلفات . المعطيات المتعددة عن الجغرافيا التاريخية والتوضيحات المفيدة لضبط المدن والمواقع والمنتوجات التي ميزت بعمق التطور التاريخي .

التجدد التاريخي والمصادر العربية :

لقد تحقق منذ سنوات تقدم ذو بال في دراسة التاريخ الأفريقي . وفي الحقيقة فان ما يسر ذلك التقدم هي الآفاق الجديدة التي فتحها استعمال تقنيات لمعرفة الماضي كعلم الآثار .

وان تغداوست وكيلو تعطيان أبرز الأمثلة على التوالي في الغرب وفي الساحل الشرقي للقارة الأفريقية .

أولا تغداوست أن البحوث التي قام بها منذ أوائل السّتينات فريق من خبراء الآثار الفرنسيين من جامعة داكار بادارة ج . ديفيس ، و س . روبار عن هذا الموقع في موريتانيا الحالية ، تشكل المحاولة الأولى التي نعرفها لأول ارتباط منهجي بين وضع ملف للمصادر العربية والحفريات الأثرية الواسعة النطاق . (٥٣)

وانبثقت عن تلك البحوث المعلومات والخلاصات العديدة المتباينة التالية :

- ان المعطيات والمعلومات التي وفرتها الحفريات الأثرية لا تقاس من حيث النوع والتنوع والعمق بما يمكن استنتاجه من المصادر المكتوبة التي هي أقل دقة لتسمح بالتقرير ان تغداوست هي نفسها أو داغست القديمة .
- أما بخصوص التحريات الأثرية فانها تؤكد في الوقت نفسه التدرج الزمني وامتداد الموقع وكذلك أهمية العلاقات الاقتصادية والتجارية التي يحتمل أنه كان مركزها .

ان الأدوات الموجودة والخزف والقطع البلورية وحتى المعطيات المسكوكية تلقي الأضواء على التطور الاقتصادي والعلاقات المنظمة بالعالم العربي - الاسلامي وعلى الحياة الثقافية والدينية لهذا الموقع الذي قام حوالي القرنين ١٠ / ١١م ٤ / ٥هـ بدور الوطن الأم والقطب الاقتصادي الى درجة ان علماء الآثار أيقنوا أن تغداوست ليست هي أوداغست .

ـ ان علم الآثار لا يشكك في المصادر المكتوبة ، لكنه يكملها لا سيما في صمتها ، بل يمكن القول ان المعلومات المتوفرة في المصادر المكتوبة ، بخصوص بعض المدن في شمال أفريقيا وأنشطتها ، كانت ذات فائدة كبرى في ضبط تواريخ الطبقات الأثرية التي تحتوي مواد مصدرها تلك البلدان ، وان أصدق مثال عن تلك العلاقة المتبادلة هو رقادة التي كانت تصدر ، قبل خرابها ، فخارا متميزا نحو تغداوست .

وفي أفريقيا الشرقية وقعت دراسة كلوا ( ) بصورة خاصة من طرف ن. شتيك (٥٤) ( )، ولابد ان نذكر ان عالم الآثار هذا لم يصطدم في بحوثه بمشاكل التعرف على المدن القديمة في المنطقة الساحلية لافريقيا الغربية ، بل على العكس فان النصوص العربية غزيرة فيما يتعلق بهذا الجزء الساحلي الواقع على ضفاف المحيط الهندي والذي كان البحارة والجغرافيون العرب يسمونه بحر الزنج ، وفيما قبل فان غ. س. ب. فريمان غرنفيل ( ) تعرض الى تلك المدن وأصنافها وعددها الكبير . ويرجع الفضل في تمتع مدينة كلوا ( ) بهذه الخطوة الى مرتبتها ودورها في العلاقات الاقتصادية والتجارية بين تلك الجهة والعالم العربي ـ الاسلامي . وفعلا فقد كانت النقطة القصوى للخطوط البحرية المستغلة من طرف التجار العرب . وباعتبارها الوطن الأم حقيقة فقد كانت مركز عبور الصادرات والواردات بين المناطق .

وقد أكدت الحفريات الأثرية المعلومات المستقاة من المصادر العربية مضيفة اليها معطيات جديدة عما نعلمه من قبل عن الحياة الثقافية في مدينة كلوا ( ) وعن طرافة مدنيتها العمرانية وبخصوص هذه النقاط المتنوعة ، فان أهم ما يلفت النظر في عمل العالم الأثري ن. شتيك ( )، هو المقارنات الدقيقة التي استطاع وضعها بين المصادر العربية المكتوبة ونتائج الحفريات .

بيد أن مواضيع البحوث الجديدة واتجاهاتها ليست محدودة بهذه الصلة بين

علم الآثار والمصادر المكتوبة . فالأخيرة خاضعة أكثر فأكثر لعدة مسائل ومراكز اهتمام مثل التطور التاريخي لتبادل النتائج : نشأة وتطورا ، وربما على الأصح ، وظيفة دول أفريقيا المتاخمة للصحراء في تلك المبادلات وفي التباينات الداخلية للمجتمعات الساحلية ومشاكل نشر الفنيات وطبع المدنيات العمرانية بطابع خاص ، وتطورها . وأخيرا في تاريخ العقليات والتصورات الايديولوجية .

وبخصوص النقطة الأخيرة فلابد من الاشارة الى العمل الكبير الذي قام به أ. ميكال ( ) لما فيه من الفائدة ولما يوفره من معلومات جديدة . فقد خصص ذلك العمل لدراسة الأدب الجغرافي العربي ، انطلاقا من العهد العباسي ، فألقى الأضواء على الصور الأساسية والمقاييس الأصلية والقوالب والأشكال التطورية لتصور العالم ومفهومه لدى شتى المؤلفين العرب الى القرن ١١م/ ٥هـ فأطلعنا على جوانب أساسية لدراسة تاريخ افريقيا السوداء ولاستغلال متجدد للمصادر العربية ، وسنلاحظ بدون شك تأثير الجغرافيا اليونانية ، وأهمية التقاليد المتوسطية (البحر الأبيض المتوسط) والمصاعب التي واجهها العالم العربي ـ الاسلامي في رغبته تجاوز المناطق القريبة من الصحراء وبلوغ ما بعدها مما أدى الى ظهور الأوصاف الخرافية عن تلك المناطق المجهولة من طرق الجغرافيين العرب والجاذبية التي خلقتها النظريات القديمة عن شكل القارة ومظهر السود الجسمي ، وأخير الأراء الشبيهة بالأوهام والبعيدة عن الواقع بخصوص الذهب ومادته ومصدره والاتجار فيه . وبهذه الصورة ندرك ما هو بقية العمل الذي ينبغي القيام به ، والأسئلة الجديدة التي يمكن لمؤرخي أفريقيا السوداء أن يوجهوها للمصادر العربية الاسلامية التي انجلت أكثر من ذي قبل بتكرارها والمفاهيم التي تميزها وتفاصيلها المضلة سواء للعموم أو للقراء الذين أعدت لهم .

وكما يتضح فان اعادة قراءة المصادر العربية تجري في الوقت الراهن ، وفي الامكان التنبؤ بأنها ستتطور ، لا في نطاق منظور شامل تركيبي ، يستحيل أكثر فأكثر ، بالنظر الى أهمية المشاكل التاريخية وتنوعها ، ولكن بفضل دراسات وافية

منتظمة ومقارنة بين مؤلف وآخر ، وبين وصف وآخر ، ومعلومات وأخرى ، لا سيما عندما تكون متعلقة بحدث واحد أو جهة أو نشاط واحد .

د ـ ثلاث سبل جديدة :

ان المصادر العربية لتاريخ أفريقيا السوداء مرتبة ومضبوطة كما أسلفناه . وفي متناول الباحثين اليوم نتائج العمل الكبير الذي قام ج. كوك ( ) من تراجم ومقابلات بين الأثر القديم والمخطوطات بيد أن بقية العمل الذي ينبغي القيام به ما زالت كبيرة خاصة في اتجاهات ثلاثة :

أولا ادراج بلدان أخرى في البحوث التي قام بها منذ عهد قريب م. أ. الكتاني والموجودة في الوثائق المغربية فحسب (٥٦). فلا مجال للشك ان المغرب قام بدور خاص في العلاقات العربية ـ الافريقية . بيد انه يمكن الاعتقاد ان لدى بلدان شمال ـ أفريقية أخرى لا سيما مصر ، وثائق تهم تاريخ أفريقيا المتاخمة للصحراء . فالمؤلفات الجغرافية ليست وحدها التي تشكل أهمية علمية ما كمصدر لتاريخ أفريقيا ، اذ يتجلى ، يوما بعد آخر ، أن مخطوطات مختلفة أخرى ما زالت مفيدة للمؤرخين مثال ذلك الدراسة التي سبقت الاشارة اليها والتي قام بها ؟. دراماني اسيفي ( ) وأن دراسة علاقات أفريقيا السوداء الدولية في القرن ١٦ تبرز أهمية المصادر المخطوطة المحفوظة في المغرب وفي تركيا أيضا ، وواضح أن ذلك جرى خلال سلسلة من الأحداث الخاصة المميزة ، لكن ذلك يقوم دليلا على صحة افتراض وجود مخطوطات في البلدان العربية لم تنشر لحد اليوم .

فمن المفيد ، بل من الضروري نشر بعض المؤلفات المعروفة ومنها مؤلف الأدريسي وقد قامت مؤسستان علميتان أطاليتان بسد ثغرة كبرى بقيامهما بنشر « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » (٥٧) وتبقى مؤلفات أخرى لا نعرف عنها في أكثر الأحيان إلا انها موجودة مثل « الجامع لأشتات النبات » و « روض الأنس

ونزهة النفس » ومختصرة « أنس المهج وروض الفرج » و« جني الأزهار من الروض المعطار » (٥٨) .

إن هذه المؤلفات المخطوطة والمنسوبة أو المحررة مباشرة أو بصورة غير مباشرة من طرف الادريسي موجودة في مكتبات مختلفة وضمن الوثائق الأوروبية أو العربية متضمنة أحيانا الخرائط التي تشكل جوهر وصف العالم من طرف الجغرافي العربي .

وقد تعين القيام بحملة حقيقية لاسترجاع هذه المؤلفات واعادة ترتيبها ، وكذلك بالنسبة الى الأعمال الخرائطية العربية مثل ما اشتمل عليه كتاب المسالك والممالك للاصطخري وكتاب صورة الأرض لابن حوقل وغيرهما كثير ، اذ أن لدراسة الخرائط كما هو معلوم ، بعد تكميلي للمصادر المكتوبة .

وثمة ضرورة تتمثل في القيام بمقابلة الأثر بالمخطوط ونشر مدونة للنصوص ومختلف الوثائق العربية التي تهم أفريقيا السوداء على غرار ما قام به ج. كوك ( ) لكن باللغة الأصلية للمصدر ، فللترجمة ، بدون شك ، فضل في كونها تضع على ذمة أكبر عدد من الباحثين وسائل عمل مفيدة وذات قيمة ، لا سيما أنه ما زال عدد المؤرخين الأفارقة قليلا أو المهتمين بالدراسات الافريقية الذين تعودوا اللغة العربية إلا انه يقع السكوت عن جزئيات وتفاصيل ، وأحيانا ، معلومات أساسية عندما لا تقع دراسة النص حسبما وضع له .

ولئن اشتمل مصنف ج. كوك ( ) على ابتكارات فان أبرزها يكمن في اعادة قراءة الترجمات الجديدة لمؤلفات معروفة وقعت ترجمتها منذ أكثر من قرن .


وقد أمكن التوصل بسرعة عجيبة بقدر تقدم الأبحاث الى ادراك أن تاريخ أفريقيا لا يتلخص في تأثير الأجانب أو تدخلاتهم ولا في علاقاتها بالخارج لما فيه العالم العربي ـ الاسلامي .

فهو أقدم مما تفترضه التقاليد التاريخية التي ما زالت تلك الشعوب في تنوعها

محافظة عليها والتي اتسمت بالتحولات والتغييرات بصورة أكبر مما تذكره المصادر المكتوبة .

وأكثر من ذلك فان جزءا واحدا من أفريقيا السوداء يمثل تقريب الساحل وجهات المفاوز ، هو الذي تعـرضت له المصـادر العربيـة . وتتضمن الجغرافيـا العربية هذه الحدود الجغرافية المضروبة فيما مضى على التجارة عبر الصحراء وعلى التجار العرب والتي فرضها المناخ أقل مما فرضته خصوصيات أنظمة التبادل والسلط السياسية المتاخمة للصحراء والحيويـة الثقافيـة في المناطق الغـربية من الصحـراء الاستوائية . وذلك ما يفسر على كل حال بعض تأويلاتها وتخميناتها ومع ذلك فان نتائج أفاق استغلال المصادر العربية في معرفة الماضي الأفريقي تشير الى الامكانيات الكبرى لاستخدام كل ما يستمد منها . وعلى هذا الأساس فان القيود الحقيقية هي ما يفرض على المؤرخين من فكر ثاقب وفعلنة حذرة جادة .

المحتوى



INSTITUTE OF THE ARAB
RESEARCH & STUDIES
BAGHDAD

CONVOYS' TRADE & IT'S CIVILIZED ROLE UP TO THE END OF THE NINTEENTH CENTURY

1404 H. - 1984 AD.